أ.د/ جمال مصطفى النجار
أستاذ التفسير في كلية أصول الدين
جامعة الأزهر بالقاهرة

الإحسان في علوم القرآن

تأليف
الأستاذ الدكتور
جمال مصطفى النجار
أستاذ التفسير وعلوم القرآن
فى كلية أصول الدين
جامعة الأزهر - بالقاهرة

الطبعة الأولى
١٤٢٥ - ٢٠٠٤
الناشر: دار الطباعة المحمدية
درب الأتراك بالأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونستغفره ونتوب إليه، ونستعيذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا.

ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، صل اللهم وسلم، وبارك عليه، وعلى آله وصحبه وأتباعه، عدد خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك، وعدد معلوماتك، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرك الغافلون.

أما بعد..

فلقد عاش العالم كله عربه وعجمه، قبل بعثة الرسول ﷺ حياة، كلها ظلم وظلمات، وفساد وافساد، حتى استحقوا مقت الله وغضبه، كما قال ﷺ فيما يرويه الإمام مسلم فى صحيحه:

«إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[(١)].

ولكن ما أوسع رحمة الله، وما أكرم لطفه!! فلقد أنقذ هذه البشرية الضالة المضلة، من أوحال متعددة، وظلمات متراكمة بعضها فوق بعض،

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الجنة، باب (٦٣).

فأرسل إليها خير البشر على الاطلاق، وأنزل عليه خير كتاب سماوى عرفه أهل الأرض وسكان السماء، وجعل هذا الكتاب روحا ونورا، روحا يعيد للدنيا حياتها، ونورا يبدد منها ظلماتها، فبدونه يكون الناس أمواتا وان كانت لهم قلوب تنبض فى أجسادهم، أو دماء تسير فى عروقهم، وبدونه يعيش الناس فى ظلمات، وان كانت تعلوهم شمس مضيئة، أو يظللهم قمر منير، قال تعالى: «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا»[1].

ولقد بلغ الرسول ﷺ قرآن ربه هذا، بكل أمانة ودقة، وما انتقل إلى الرفيق الأعلى، إلا بعد أن انتهى من مهمته التى من أجلها خلق، ثم ترك عبء هذه الدعوة لأصحابه الكرام البررة، فجاهدوا في الله حق جهاده، بالفعل قبل القول، وما خافوا فى الله لومة لائم، حتى عم نور هذا القرآن الوجود كله.

ولقد يظن البعض - نظرا لاعتناقه الإسلام بالوراثة - أن هذا القرآن وصل إليه، أو إلى أبيه أو جده، دونما بذل جهد من أولئك الصحب الكرام، كما تصل البيضة مقشرة على ملعقة من ذهب، إلى رجل متكىء على أريكته، وهو فى ظنه هذا غافل عن تاريخ نشر القرآن، بل جاهل بتاريخ دينه ودين سلفه الصالح، لقد كان الصحابة يقدمون أنفسهم قتلى بالعشرات فى سبيل تعليم الناس بعض آيات من قرآن ربهم، هذا هو وفد مكون من عشرة رجال يبعثهم الرسول ﷺ ليعلموا قبائل عضل والقارة القرآن فلما كانوا فى الطريق غدروا بهم، وانتهى الأمر بقتلهم جميعا،

---

(١) سورة الشورى: آية ٥٢.

وكانت آخر كلمات أحدهم وهو خبيب بن عدى:

ولست أبالى حين أقتل مسلما
على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذاك فى ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع

وهذا وفد آخر مكون من سبعين قارئا للقرآن يرسلهم الرسول ﷺ أيضا ليعلموا بعض القبائل قرآن الله تعالى، وفى أثناء الطريق يتعرضون جميعا للقتل فيقتلون، وكان آخر كلمة نطق بها أحدهم، وهو حرام بن ملحان، حينما طعن، وانتضح الدم فى وجهه أن صاح قائلا: فزت ورب الكعبة[1].

إلى غير ذلك من عشرات الصور، وعشرات الغزوات، التى استشهد فيها الآلاف المؤلفة من المسلمين من أجل نشر القرآن، ليعيدوا للدنيا روحها، التى سلبت منها، ونورها الذى طمس فيها، وكرامتها التى محيت منها.

دوافع الكتابة

١ ـ وتقديرا لمن حملوا إلينا هذا القرآن غضا طريا، كما نزل من السماء، من غير تحريف، بزيادة أو نقصان، أو بأية صورة من صور التحريف.

٢ ـ وتخليدا لآثارهم الصالحة، التى قد كتبوها على جبهة التاريخ بأرواحهم ودمائهم، والتى يقول الله تعالى عنها: «ونكتب ما قدموا

(١) انظر صحيح البخارى، كتاب المغازى، غزوتا الرجيع وبئر معونة.

وآثارهم»[1].

٣ ـ ولما كانت صحة الاعتقاد مبنية على صحة النص القرآنى.

٤ ـ ولما كان المستشرقون، ومن سار فى ركابهم ممن يسكنون ديار الإسلام وممن يتسمون بأسماء إسلامـية، يبذلون طاقتهم فى تشكيك المسلمين فى سلامة النص القرآنى.

٥ ـ ولما كان كـثير من الشبـاب يعيشون فى غـربة عن دينهم، حيث لا يجدون من يهتمون بتـربيتهم تربية إسلامية، أو يعنون بتثقـيفهم ثقافة إسلامية تحصنهم ضد تيارات الفكر الملحـد وأتباعه، حتى أصبح كثير من الشباب فريسة سائغة لشبهات تلك التيارات.

لما كان الأمر كذلـك وجدتنى مسوقا إلى وضع كتـاب فى موضوعات تتعلق بالقرآن الكريم من حيث كيفية قراءته كما قرأه الرسول ﷺ.

وضمنت ذلك الكتاب أيضا بعض الموضوعات الأخرى التى تدل على أن هذا القـرآن من عند الله تعـالى، كعـلم المناسبـات بين آيات القـرآن وسوره، ليتبين للمنصف أن هذا القـرآن لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا.

كما تحدثت فيه عن الفاصلة القرآنية، وهى اللفظة الأخيرة فى كل آية، وبينت كيف أنها أسهمت مع آيتهـا فى تعجيز العالم عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

إلى جـانب موضـوعـات أخرى كـالمبهـمـات فى القرآن، والوجـوه والنظائر، والتقـديم والتأخير، فتـلك الموضوعات جميـعها تخدم قـضية الإعجـاز القرآنى، بمـا يجعل كل منصف فى النهـاية يقر وهو فى غـاية

(١) سورة يس: ١٢.

اليقين بأن قائل هذا القرآن هو الله رب العالمين، ويستحيل أن يكون غيره، ولو كان غيره هذا هو كل الخلق أجمعين.

وإنى لأبرأ إلى الله عز وجل من كل حول وقوة، فما كان فيه من صواب فمن الله وحده لا شريك له، وما كان فيه من خطأ فمنى والشيطان وحسبى أنى اجتهدت، وللمجتهد أجران إذا أصاب، وأجر إن أخطأ، فنرجو من الله عز وجل أن يكون هذا العمل المتواضع خالصا لوجهه الكريم، حتى لا نحرم من الأجرين، أو من أحدهما على الأقل.

كما نسأله سبحانه وتعالى أن ينفع به كاتبه ووالديه، وأساتذته وكل من قرأه، وأن يجعله فى ميزان حسناتنا جميعا، إنه سميع قريب، وهو مولانا ونصيرنا، فنعم المولى ونعم النصير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

دكتور

جمال مصطفى

جمع القرآن

معنى جمع القرآن

قبل أن نحدد المراد من مصطلح (جمع القرآن) يحسن بنا أن نعرف معنى الجمع لغة ، فنقول :

يقول الفيروز آبادي : «الجمع : تأليف المتفرق »[1]

ويقول الراغب الأصفهاني : «الجمع : ضم الشيء ، بتقريب بعضه من بعض ، يقال : جمعته فاجتمع »[2]

ويقول ابن منظور : «جمع الشيء عن تفرقه يجمعه جمعا ، وجمعت الشيء إذا جئت به من ههنا وههنا ، وتجمع القوم : اجتمعوا أيضا من ههنا وههنا »[3] .

وعلى ذلك : فالجمع في لغة العرب يعني : الضم ، والاستقصاء والإحاطة .

فإن قال قائل : جمع ثمرات النخيل ، فإنه يعني أنه استقصاها وضم بعضها إلى بعض .

وكذلك إن قال : جمعت علم كذا ، فإنما يعني أنه استقصى أصوله وفروعه ، وأحاط بجميع جزئياته وجوانبه .

المراد بجمع القرآن :

فإذا أردنا أن نطبق هذا المعنى اللغوي على القرآن الكريم ، فإننا نقول : إن المراد بجمعه استقصاء جميع آياته وسوره ، وضم بعضها إلى بعض ، بالترتيب المعروف .

---

(١) القاموس المحيط : ٣/١٤ ، ط دار الجيل بيروت .
(٢) المفردات في غريب القرآن : ٩٦ ، ط دار المعرفة ببيروت .
(٣) لسان العرب : (جمع) .

وهذا الجمع يتحقق بإحدى وسيلتين . .

الأولى : عن طريق حفظه في القلب ، ونقشه في الذاكرة ، ويدل لهذه الوسيلة آيات وأحاديث .

منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾[1] ، قال الزمخشري وغيره في تفسير هذه الآية : «إن علينا جمعه في صدرك ، وإثبات قراءته في لسانك » [2]

ومنها ما جاء عن عبد الله بن عمرو ، أنه قال : «جمعت القرآن ، فقرأته كله في ليلة ، فقال رسول الله ﷺ : «إني أخشى أن يطول عليك الزمان ، وأن تمل ، فاقرأه في شهر ، فقلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي ، قال : فاقرأه في عشرة ، قلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي ، قال : فاقرأه في سبع ، قلت : دعني أستمتع من قوتي وشبابي فأبى »[3] .

فقول عبد الله بن عمرو(جمعت القرآن) معناه حفظته عن ظهر قلب .

الوسيلة الثانية لجمع القرآن ، جمعه عن طريق كتابته

ويدل لهذه الوسيلة أكثر من عبارة وردت في حديث واحد ، على لساني أول وثاني خليفتين لرسول الله ﷺ ، وعلى لسان أحد كتاب الوحي حيث قال عمر لأبي بكر : (وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن) .

وحيث قال أبو بكر لزيد بن ثابت : (فتتبع القرآن فاجمعه) .

وحيث قال زيد بن ثابت : «فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال » [4] .

وإذا نظرنا إلى أشهر أسماء القرآن الكريم ، فإننا سنجد فيها اسمين يتصدرانها جميعا ؛

---

(١) القيامة : ١٧ .

(٢) الكشاف : ٤ / ٦٦١ .

(٣) أخرجه ابن ماجة : كتاب إقامة الصلاة ، باب (١٧٨) .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .

١ – اسم (القرآن) .

٢ – واسم (الكتاب) .

فالاسم الأول إشارة إلى جمعه عن طريق الوسيلة الأولى ، وهي الحفظ في الصدور ، والاسم الثاني إشارة إلى جمعه عن طريق الوسيلة الثانية ، وهي الحفظ في السطور .

يقول الإمام السخاوي في جمال القراء :

«القرآن اسم من أسماء هذا الكتاب العزيز ، والقرآن معناه الجمع ، من قولهم قرأت الشيء ، أي جمعته ، ويدل على ذلك قوله عز وجل : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾[1] أي فإذا جمعناه فاتبع جمعه .

إلى أن يقول : (ومن أسمائه : الكتاب ، سمي بذلك : لأن الكتب ـ بفتح الكاف وسكون التاء ـ الجمع ، يقال كتب : إذا جمع الحروف بعضها إلى بعض ، وتكتب بنو فلان ـ بفتح أوله وثانيه ، وثالثه مع تشديده ، أي اجتمعوا) .

ثم نقل عن أبي عبيدة قوله : «سمي قرآنا لأنه جمع السور وضمها ، وكذلك تسميته بالكتاب أيضا »[2] .

وعلى ذلك يكون القرآن الكريم قد اجتمع له من وسائل الجمع أعلاها ، ومن طرق الحفظ أقواه ، صيانة له من التبديل ، ورعاية له من نسيان إنسان ، أومن افتراء عدوله ، حتى إذا حدث لفرد أو جماعة خلل في إحدى الناحيتين ـ أعنى الحفظ والكتابة ـ وجدت الناحية الأخرى ، مذكرة ومنبهة .

وإذا كان قد توافر للنص القرآني تلك المنزلة السامية ، من الحفظ في صدور الرجال ، وسطور الكتب ، فإن ذلك ليس بكثير عليه ، بل إن هذا هو للائق به ، والواجب تجاهه ، حيث يمثل للمسلمين المصدر الأول في العقدية والتشرع ، وحيث يعتبر خاتم الكتب السماوية ، فلا كتاب بعده إلى أن تقوم الساعة ، فكان من رحمة الله

(١) سورة القيامة : آية ١٨ .

(٢) جمال القراء : ١/٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ .

بآخر الأمم أن تكفل بحفظ القرآن ، حتى لا يعبث به عابث ، فيلبس على الناس دينهم ، ويخلط عليهم أمورهم ، فيشتبه عليهم الحق والباطل ، فيضلون ويضلون ، تماما كما حدث لليهود والنصارى ، حينما وكل الله إليهم حفظ كتبهم ، فبدلوا وغيروا .

أما وقد تكفل الله بحفظه ، فقد هيأ له أسباب ذلك في كل زمان ومكان ، فقيض له رجالا يحفظونه في صدورهم ، ويكتبونه فيما يتيسر لهم ، ليتكاتف المحفوظ مع المكتوب ، ولينبه المكتوب الذهن إذا احتاج إلى تنبيه .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في النبأ العظيم :

روعي في تسميته (قرآنا) كونه متلوا بالألسن ، كما روعي في تسميته (كتابا) كونه مدونا بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه .

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين . لا في موضع واحد .

أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

فلا ثقة لنا بحفظ حافظ ، حتى يوافق الرسم المجمع عليه ، من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل ، على هيئته التي وضع عليها أول مرة .

ولا ثقة لنا بكتابة كاتب ، حتى يوافق ما هو عند الحفاظ ، بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة ، التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية ، اقتداء بنبيها ﷺ . بقي القرآن محفوظا في حرز حريز ، إنجازا لوعد الله ، الذي تكفل بحفظه ، حيث يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1].

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل ، وانقطاع السند . حيث

(١) الحجر : ٩ .

لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس ، فقال تعالى :﴿ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ﴾ [١] أي بما طلب إليهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة : أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جيء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ، ومهيمنا عليها ، فكان جامعا لما فيها ، من الحقائق الثابتة ، زائدا عليها بما شاء الله زيادته ، كان سادا مسدها ، ولم يكن شيء منها ليسد مسده ، فقضي الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم » [٢] .

وهكذا تحقق للقرآن الكريم - بحكم خلوده ، وبحكم تكفل الله لحفظه ، وبحكم كونه المصدر الأول للعقيدة والشريعة ، وبحكم عموميته لكل الخلق أجمعين - تحقق له أفضل وسائل الحفظ على الإطلاق ، وبشروط خاصة ، حتى يبقى لهذا النور ضياؤه المشع على الدنيا كلها ، وقداسته التي تجعله فوق ارتياب كل مرتاب ، ليكون هاديا لأولي الألباب .

---

(١) المائدة : ٤٤

(٢) النبأ العظيم : ٧ - ٩ ، ط السعادة ، ١٩٦٩ م .

الفصل الثاني

جمع الرسول ﷺ

المبحث الأول : جمعه حفظا .

المبحث الثاني : جمعه كتابة .

جمع الرسول ﷺ

تمهيد :

وبعد أن عرفنا معنى الجمع في لغة العرب ، وبيان المراد منه في جانب القرآن حيث يقصد منه ضم كل آيات السورة الواحدة ، مرتبة على النحو الذي نزل به جبريل من السماء ، ثم ضم كل سورة إلى أختها ، واستقصاء ذلك كله ، بحيث لا تسقط سورة ولا آية ، بل ولا حرف واحد ، وأن هذا الجمع يكون بإحدى طريقتين ، إما بالحفظ في الصدور ، وإما بالكتابة في السطور ، بعد ذلك كله يحسن بنا أن نعرج على الحديث عن جمع القرآن ، في أهم وأخطر المراحل التي مر بها ، وعايشها المسلمون .

هذه المراحل هي :

١ – جمعه في العهد النبوي ، وذلك على يد كل من :

(أ) الرسول ﷺ ، حفظا وكتابة .

(ب) صحابته الكرام حفظا .

٢ – جمعه كتابة في عهد أبي بكر الصديق .

٣ – جمعه كتابة في عهد عثمان بن عفان .

ونبدأ الحديث عن جمع الرسول ﷺ فنقول :

لقد جمع الرسول ﷺ قرآن ربه عز وجل بكلتا الوسيلتين معا ، أعني عن طريق الحفظ في الصدور ، وعن طريق الكتابة في السطور .

ولتفرد كل جمع بالحديث ، وبشيء من التفصيل ، في مبحثين :

المبحث الأول

جمعه ﷺ حفظا

فحينما اقتضت حكمة الله تعالى ، أن ينزل للناس كتابا ، فيه يأمرهم وينهاهم ، وبه يخرجهم من الظلمات إلى النور ويرعاهم ، إذا به يصطفي أميا من أمة أمية ، حتى لا يرتاب في نبوته مرتاب ، إذا كان قد تتلمذ على يد مدرس ، أو قرأ الكتاب .

وإذا بهذا النبي الأمي سيدنا محمد ﷺ يتلقى الوحي من السماء ، فيجهد نفسه في تلقيه أشد ما يكون الجهد ، ويستحضر كل قواه الذهنية ، لينقش ذلك الوحي في قلبه أقوى مما ينقش لفظ على حجر ، حتى لا تتفلت منه كلمة ، أو يلتبس عليه حرف .

إلى أن يصل حرصه ذلك إلى ملاحقة جبريل في قراءته ، وتسرعه في الأخذ عنه ، وترديده ما يسمع منه ، قبل فراغ جبريل من قراءة ما نزل به .

وللرسول ﷺ عذره في ذلك .

فهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وشأن الأمي أن يعول على ذاكرته لتكون مرجعا له وقتما يريد .

وله عذره أيضا : لأن هذا القرآن لا يجوز لمخلوق بحال من الأحوال إبدال حرف منه بحرف آخر .

وإذا كان الرسول ﷺ قد تسرع في القراءة ، فما أسرع رحمة ربه به ! !

لقد تدارك عز وجل هذا الأمي ، حيث تكفل له بعدم نسيان ، شيء من قرآنه .

وما دام الأمر كذلك : فلا داعي للقلق ، ولا ضرورة للتسرع فالأمن من التغيير والتبديل والنسيان إذا مضمون وما على هذا النبي الأمي إلا حسن الإنصات ، ساعة أن ينزل عليه الوحي ، وليكل الأمر بعد ذلك إلى مولاه ، حيث يرسل له عنايته لترعاه ، ولتنقش في قلبه ما تسمعه أذناه ، وحيث يسخر له توفقيه ، لييسر له استحضار كلامه على لسانه ، وليسهل له استنباط حكمه وأحكامه .

أخرج البخاري وغيره عن موسى بن أبي عائشة أنه سأل سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ** ﴾[1] قال : وقال ابن عباس : « كان يحرك شفتيه إذا أنزل عليه ، فقيل له : لا تحرك به لسانك ـ يخشى أن ينفلت منه ـ ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ** ﴾ أن نجمعه في صدرك ، ﴿ **وَقُرْآنَهُ** ﴾ أن تقرأه ، ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ** ﴾ يقول أنزل عليه ﴿ **فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ أن نبينه على لسانك »[2] .

كما أخرج البخاري أيضا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله : ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ** ﴾ قال :

« كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل عليه بالوحي ، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه ، فيشتد عليه ، وكان يعرف منه ، فأنزل الله الآية التي في ﴿ **لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ** ﴾ : ﴿ **لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ** ﴾ قال علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه ﴿ **فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ** ﴾ فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ علينا أن نبينه بلسانك ، قال : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله »[3] .

وبمجرد أن نزل النهي الإلهي عن التسرع في الأخذ عن جبريل ، وبمجرد أن طمأن الله نبيه ﷺ ، بجمع القرآن في قلبه ، وتيسير استحضاره على لسانه ، إذا بالرسول ﷺ يتفاعل مع هذا النهي ، فلا يقرأ إلا بعد فراغ جبريل من قراءته ، وإذا قرأ مفسرا واضحا ، بين المخارج ، ظاهر الصفات .

---

(١) القيامة ١٦ .

(٢) البخاري : كتاب التفسير ، تفسير سورة القيامة .

(٣) نفس الموضع السابق

أخرج البخاري وغيره عن قتادة قال : « سئل أنس : كيف كانت قراءة النبي ﷺ ؟ فقال : «كانت مدا ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد ببسم الله ، ويمد بالرحمن ، ويمد بالرحيم »[1].

وأخرج الترمذي عن يعلى بن مملك أنه سأل أم سلمة زوج النبي ﷺ عن قراءة النبي ﷺ وصلاته ، فقالت : مالكم وصلاته ؟ كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى ، ثم يصلي قدر ما نام ، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح ، ثم نعتت قراءته ، فإذا هي تنعت قراءة مفسرة ، حرفا حرفا »[2].

كما أخرج أبو داود بإسناده عن أم سلمة :

« أنها ذكرت ـ أو كلمة غيرها ـ قراءة رسول الله ﷺ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقطع قراءته آية آية »[3].

وهكذا كان ﷺ كلما نزل عليه نجم من نجوم القرآن ، جمعه الله له في صدره ، فوعاه قلبه ، واشتغل به لسانه ، لنفسه وللمسلمين ، في الصلاة وخارجها ، في سفره وحضره ، في سلمه وجهاده ، حتى أتاه اليقين ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى ، مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين .

العوامل التي ساعدت رسول الله على حفظ القرآن :

وجدت عوامل علة ، كان الواحد منها كفيلا بأن يجمع الرسول ﷺ قرآن ربه في قلبه جمعا مكينا ، وهي كثيرة كثيرة ، نقتصر منها على ما يلي :

١ – ضمان الله لنبيه جمع هذا القرآن في قلبه الطاهر ، كما مر آنفا ، حيث كان يتسرع في أخذه عن جبريل أثناء الوحي ، فنهاه ربه عن هذا التسرع ، وطمأنه بجمعه له ، فقال مخاطبا : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه

(١) البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل القرآن ، باب مد القراءة .

(٢) الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب كيف كان قراءة النبي وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب استحباب الترتيل في القراءة .

(٣) أبو داود في سننه ، في كتاب الحروف والقراءات .

وقرآنه) أي إن لك علينا أن نجعل قلبك حافظا لكل لفظ من ألفاظه ، فلا تنساه ونجعل لسانك ذللا لقراءته ، ومسخرا لتلاوته .

٢- إيجاب الله على رسوله تبليغ هذا القرآن لأمته .

فلم يكن هذا التبليغ في حقه ﷺ إلا واجبا ، وحيث وجب عليه التبليغ وجب عليه الحفظ ، وإلا فكيف يقع التبليغ ؟

ولا يقال إنه كان من الممكن الاكتفاء بإملاء الرسول ﷺ ما ينزل عليه من ربه ، ذلك أن القرآن لابد من تلقيه شفهيا ، حتى ينطق به كما نزل من السماء ، دونما خطأ أو تغيير .

٣- أمية الرسول ﷺ .

فمعلوم أنه عليه السلام كان أميا ، بل كانت أميته هذه دليل حق على صدق نبوته ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١) .

ومن شأن الأمي أن يجعل من ذهنه حافظته التي إليها يرجع فيما يريد ، ومن عقله سجله الذي يضمنه ما يشاء ، خصوصا إذا كان يعيش بين أمة أمية ، يغلب عليها الجهل ، ويقل فيها من يجيد كتابة كلمة ، أو قراءة جملة .

٤- الظروف الطبيعية للمكان الذي نشأ وترعرع فيه الرسول ﷺ . لقد ولد وشب وشاب في بيئة صحراوية واسعة ، تعلوها السماء الصافية ، والشمس الدافئة . والقمر المضيء ، والنجوم المتلألئة، ويتخللها الهواء النقي ، ويسودها المناخ المعتدل السوي . . .

وتلك هبة من الله تعالى لهذه البيئة ، لها عظيم الأثر في حدة الذهن ، وصفاء الفكر ، وقوة القريحة ، مما جعل ملكة الحفظ عنده ﷺ ينقش فيها القرآن ، نقش الألفاظ على الحجارة ، بل أشد تثبيتا .

٥- حب الرسول ﷺ لربه ، بصورة لم يوجد لها في الكون مثيل . هذا الحب الذي

---

(١) العنكبوت ٤٨ .

بدا عليه طاغيا قبل البعثة ، للدرجة التي جعلته في بعض الأحايين يترك الدنيا وما فيها ، ويخلوا بنفسه في غار حراء ، إلى أن نزل عليه فيه الوحي ، وأعلمه بأن الله اصطفاه من بين خلقه ليكون رحمة لمن أراد هداه وحينئذ وبعده ازداد ذلك الحب ازديادا لا نظر له ، حتى يمتلك عليه كل وقته ، خاصة إذا جن الليل ، وأرخى أستاره ، فيقف بين يدي ربه مناجيا متقربا ، ضارعا ، متذللا ، شاكرا لأنعمه ، شكرا جعله في هذه المناجاة ينسى أكله وشربه ، بل وتعب جسده ، الذي يصل إلى حد تورم القدمين ، من الوقوف مبتهلا متضرعا ، حتى يأخذ عليه صحابته كل ذلك التعب ، وهو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيقول مرشدا ومعلما : « أفلا أكون عبدا شكورا » [1] .

ومعلوم أن المحب إذا أخلص لمن يحب ، وخالطت بشاشته سويداء قلبه ، أجهد نفسه في وعي كل ما يقوله حبيبه ، بل يتلذذ بتكراره ، وتحدث له نشوة بترداده ، نشوة تحمله على إدمان متابعة آثاره ، وحفظ أقواله وأخباره ، ولو كان على حساب طعامه وشرابه ، كما قال الشاعر :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضاء به ومن حديثك في أعقابها حاد
إذا اشتكت من كلال السير واعدها روح القدوم فتحيا عند ميعاد

٦- إملاؤه ﷺ على كتبة الوحي .

فإن من تلقى شيئا ، وحفظه جيدا ، ثم أملاه على غيره ، كان ذلك أحفظ له من ذي قبل ، وأوعى ، وأشد تثبيتا .

٧- تنجيم القرآن على قلبه الشريف ﷺ .

فمعلوم أن القرآن نزل في أكثر من عشرين عاما مفرقا ، ولاشك أنه بتلك الكيفية - خاصة وأن كثيرا منه قد نزل مجاريا للحوادث والوقائع والأسئلة التي شغلتهم - لاشك أنه بتلك الكيفية أصبح ميسرا للذكر والحفظ ، تيسيرا ما بعده تيسير ، ليثبت

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، تفسير سورة الفتح .

للنبي ﷺ قلبه ، ثباتا مكينا ، فيعي حكمه وأحكامه ، وإلى هذه الحكمة يشير قوله عز وجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (١) .

٨ - تعبده ﷺ بالقرآن ، في جميع صلاواته ، سواء كانت فرضا ، أم نافلة ، وسواء أكان الحال حال سفر أم حال حضر .

أخرج مسلم في صحيحه عن حذيفة ﷺ قال :

« صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضي ، فقلت : يصلي بها في ركعة ، فمضى فقلت : يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ، يقرأ مترسلا ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ثم ركع . . . الحديث » (٢) .

٩ - مدارسة جبريل القرآن للرسول ﷺ .

فإن جبريل عليه السلام لم يكتف بتبليغ الرسول قرآن ربه ، بل كان يسمعه منه حتى يزداد ثبات قلب النبي ﷺ به ، وليطمئن جبريل أكثر وأكثر من أن ما في قلبه موافق تماما لما استقر عليه آخر الأمر .

أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن . . . الحديث » (٣) .

وأخرج مسلم في صحيحه عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها أنها قالت : « فأخبرني (أي الرسول ﷺ) أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة ، وإنه عارضه الآن مرتين ، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب » (٤) .

---

(١) الفرقان ٣٢ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل .

(٣) البخاري في صحيحه ، في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة .

(٤) مسلم في صحيحه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل فاطمة بنت النبي .

١٠- ديمومة رجوعه ﷺ إلى القرآن ، في كل أمر من أمور دينه .

خاصة إذا طلب منه بيان حكم مبهم ، أو تفصيل شأن مجمل ، أو توضيح أمر مشكل ، أو إزالة لبس وقع لبعضهم .

ولا شك أن هذه الديمومة كانت من أهم عوامل التثبت لهذا القرآن في قلب النبي ﷺ .

١١- زهده ﷺ في الحياة وزينتها وقد بدت عليه علامات الزهد هذه قبل البعثة ، وبعدها ، إلا أنها تجلت بوضوح شديد بعد البعثة ، خاصة بعد الإذن في قتال الأعداء ، وتحليل أموالهم وممتلكاتهم ، من غنيمة وفيء ، وجعل قدر كبير منها خاصا لرسول الله ﷺ .

ومع ذلك ، تعزف نفس الرسول عنها ، فلا يأكل كما يأكل باقي الناس ولا يعيش كما يعيشون .

أخرج البخاري عن أنس ﷺ قال : « لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات ، وما أكل خبزا مرققا حتى مات » (١).

كما أخرج البخاري أيضا عن عائشة رضي الله عنها قالت : « لقد توفي النبي ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير ، في رف لي ، فأكلت منه حتى طال علي » (٢).

والزهد في الحياة ومتاعها يجعل الإنسان راضيا بأقل رزق موجود ، غير باك على ما لم يصل ، أو على أي مفقود ، مما يكون له عظيم الأثر على نفس صاحبه ، وصفاء قلبه ، فيؤثر ذلك بدوره على قوة ذاكرته ، وسيلان ذهنه .

فإذا أراد صاحب هذا الحال حفظ شيء تمكن من قلبه أشد ما يكون التمكن ، على حد قول من قال :

* فصادف قلبا خاليا فتمكنا *

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب فضل الفقر ، والخوان : المائدة ما لم يكن عليها طعام .

(٢) نفس الموضع السابق .

غير ذلك من الأمور ، والتي سنذكر بعضا منها إن شاء الله عند تعرضنا لعوامل حفظ القرآن لدى الصحابة ، والتي كانت قدرا مشتركا بين الرسول ﷺ ، وصحابته الكرام ، وجميع المسلمين ، والتي جعلته عليه السلام أتقن المتقين للقرآن ، وسيدا للحافظين ، وإماما وقدوة للقراء والمقرئين .

* * * *

المبحث الثاني

جمعه ﷺ كتابة

من المتواتر عن الرسول ﷺ ، وعن القرآن الذي أنزل عليه ، أنه كان يأمر بكتابة كل نجم منها بمجرد فراغ جبريل عليه السلام ، من قراءته له ، سواء أكان ذلك النازل سورة أم آية ، أم أقل من ذلك ، أم أكثر .

ولم يكتف ﷺ بحفظه وحفظ صحابته الكرام ، زيادة في توثيق هذا القرآن ومبالغة في المحافظة على كل حرف من حروفه .

وقد ثبت هذا التواتر بآيات وأحاديث وآثار متعددة ، يحسن بنا أن نذكر بعضا منها ههنا .

١- إطلاق لفظ الكتاب على القرآن الكريم ، في مواضع متعددة في أكثر من سورة من سور هذا القرآن ، كقوله تعالى في أول سورة البقرة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ .

قال ابن منظور في لسان العرب نقلا عن الأزهري : « الكتاب : اسم لما كتب مجموعا »[1] فهذا اللفظ - أعني لفظ الكتاب - يدل على أن القرآن مكتوب .

يقول مؤلف كتاب « تدوين القرآن ، الوثيقة الأولى في الإسلام » : « إن النص المنزل لم نقتصر على كونه « قرآنا » ، أو مجموع من الآيات التي تتلى ، أو تقرأ ، أو تحفظ في الصدور ، وإنما كان أيضا « كتاب » مدونا بالمواد ، فهاتان الصورتان تتضافرن ، وتصحح كل منهما الأخرى .

ولهذا كان الرسول ﷺ ، كلما جاء الوحي وتلاه على الحاضرين ، أملاه فورا على

---

(١) لسان العرب

كتبة الوحي ، ليدونوه على أي شيء كان في متناول أيديهم ، مثل الرق ، أو الخشب ، أو قطع الجلد ، أو صفائح الحجارة ، وكسر الأكتاف .(1)

٢- ومن الآيات الدالة على أن القرآن كان يكتب أيضا قوله تعالى في سورة البينة : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .

قال الفخر الرازي في تفسير هاتين الآيتين : « اعلم أن الصحف جمع صحيفة ، وهي ظرف للمكتوب »(2) .

٣- ومن النصوص في ذلك أيضا : ما رواه ابن عباس عن عثمان ﷺ قال : « كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان ، ينزل عليه من السور ذوات العدد ، وكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنه يقول : ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا »(3) .

٤- ومن ذلك ما ورد في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾(4) .

أخرج البخاري عن البراء ﷺ قال : « لما نزلت ﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ دعا رسول الله زيداً فكتبها ، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته ، فأنزل الله ﴿ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾ »(5) .

٥- أخرج البخاري وغيره أن أبا بكر قال لزيد بن ثابت رضي الله عنهما : « كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ »(6) .

٦- أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « لا تكتبوا عني ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه »(7) .

---

(1) تدوين القرآن ، للدكتور محمد القبيسي ، ص ١٥ ل درا الآفاق الجديدة ببيروت .
(2) مفاتيح الغيب ٣٢/٤٢ .
(3) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير ، في سورة التوبة .
(4) النساء ٩٥ .
(5) في كتاب التفسير ، تفسير سورة النساء .
(6) البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .
(7) أخرج مسلم في كتاب الزهد ، باب ٧٢ .

فهذا الحديث يدل على أن الصحابة في أول الأمر كانوا منهيين عن كتابة الحديث النبوي، ومأذونا لهم كتابة القرآن فقط، خشية الالتباس.

٧- روي البخاري ومسلم وغيرهما «أن رسول الله ﷺ نهي أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو»[١].

٨- أخرج الإمام أحمد في مسنده عن عثمان بن أبي العاص قال: «كنت جالسا عند رسول الله ﷺ، إذ شخص ببصره ثم صوبه، ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة[٢]: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ .. الآية.

يقول المحاسبي: «كتابة القرآن ليست محدثة، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته»[٣].

وهكذا تتوارد النصوص المتواترة وأقوال العلماء على أنه ﷺ كان يأمر بعض أصحابه ممن يجيدون الكتابة بكتابة ما ينزله الله من قرآن.

وقد بلغ عدد هؤلاء الكتاب ما يزيد عن أربعين كاتبا، كانوا هم الخيرة من أصحابه ﷺ، ومن هؤلاء كما نص على ذلك الحافظ ابن حجر في فتح الباري: الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي ارتد ثم رجع إلى الإسلام، والزبير بن العوام، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص، وحنظلة بن الربيع الأسدي، ومعيقيب بن أبي فاطمة، وعبد الله بن الأرقم الزهري، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن رواحة، وآخرون[٤].

وكان أول من كتب له بمكة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، ثم ارتد ثم أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، وأول من كتب له بالمدينة أبي بن كعب، وكان أكثرهم ملازمة للكتابة زيد بن ثابت، وعلي بن أبي طالب.

---

(١) البخاري في كتاب الجهاد، باب ١٢٩، ومسلم في كتاب الإمارة باب ٢٩.
(٢) اخرجه أحمد في مسنده ٤/٢١٨ والآية من سورة النحل رقم ٩٠.
(٣) البرهان ١/٢٣٨.
(٤) فتح الباري ٨/٦٣٩

جاء في المصاحف لابن أبي داود السجستاني : « عن خارجة بن زيد قال ، دخل نفر على زيد بن ثابت ، فقالوا : حدثنا بعض حديث رسول الله ﷺ ، فقال : ماذا أحدثكم ؟ كنت جار رسول الله ﷺ ، فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي ، فكتبت الوحي ، وكان إذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عنه » .(١)

فيم كان يكتب القرآن في العهد النبوي ؟

باستقراء الأحاديث والآثار الخاصة بكتابة النص القرآني في العهد النبوي نستطيع أن نقول : إن كتاب الوحي كانوا يكتبونه فيما كان ميسرا في هذا الزمان ، حيث كانوا يكتبون في :

١ – الألواح . ٢ – والرقاع .

٣ – والعسب . ٤ – والأكتاف .

٥ – والأضلاع . ٦ – والأقتاب .

٧ – والأديم . ٨ – واللخاف .

والألواح : جمع لوح ، واللوح الصحيفة العريضة ، المتخذة من الخشب والعظم ، ويلحق بهما ما يقوم مقامها ، قال ابن منظور(٢) :

اللوح : كل صحيفة عريضة من صفائح الخشب والكتف إذا كتب عليها سميت لوحا ، واللوح الذي يكتب فيه .

والرقاع : جمع رقعة ، سواء أكانت من جلد أم من غيره .

والعسب : بضم العين والسين جمع عسيب ، وهو كما قال ابن منظور : جريدة من النخل مستقيمة ، دقيقة يكشط خوصها .

(١) المصاحف لابن أبي داود ٣ .

(٢) لسان العرب (لوح)

وقـال أيضـا : « وفي التهـذيب : العسـيب جريـد النخـل ، إذا نحـى عنـه خوصه ، والعسيب ما لم ينبت عليه الخوص ، وما نبت عليه الخوص فهـو السعف »[1].

والأكتاف : جمع كتف ، وهو العظم المعروف ، للحيوان ، فإذا كان عندهم منه شـيء قد جف ويبس كتبوا عليه .

والأضلاع جمع ضلع ، وهو الذي يكون للحيوان أيضا .

أما الأقتاب فجمع قَتَب ، بفتح أوله وثانيه ، وهو قطع الخشب التي تكون فوق ظهر الإبل ، ليركب عليه الإنسان .

وأما الأديم فهو الجلد ، وأما اللخاف : فهي كما قال ابن منظور : حجـارة بـيض ، عريقة رقاق ، واحدتها لَخْفَة ، بفتح اللام ، وسكون الخاء[2] .

ما الدافع لكتابة القرآن في العهد النبوي ؟

وقد يسأل سائل فيقول : إذا كان الرسول ﷺ موجودا بشخصـه بـين المسـلمين ، ومعه من صحابته الحفاظ مالا يحصون عددا ، وإذا كان المعول عليه في المقام الأول هو الاعتماد على المحفوظ لا علـى المكتـوب ، وإذا كـان الله ضـمن لنبيـه عليـه الصلاة والسلام جمعه في صدره ، ووعده بأن لا يحدث له نسيان شيء منـه ، فمـا الـداعي إذا لكتابة القرآن في عهده ﷺ ؟

ونقول : إن ألفاظ القرآن الكريم مقصودة بذاتها ، فلا يجوز لمخلوق أن يبدل حرفـا بحرف ، أو أن يتدخل بزيادة أو نقصان ، إذ أن القرآن كلام الله ، الذي تحدى به الثقلين ، وعلى ذلك فالإعجاز مبني على الألفاظ ذاتها ، فلا محل للتغيير ، مهما كان هذا التغيير ، حيث لا تـؤدي عبـارة مخلـوق مـراد الله عـز وجـل مـن عبارتـه هنو ، ولـذلك لا تجـوز روايته بالمعنى .

---

(١) لسان العرب : (عسب) .

(٢) لسان العرب (لخف) .

قال ابن عطية في مقدمة تفسيره:

«وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»[1].

وبناء عليه كان من الواجب على الرسول ﷺ والمسلمين أن يأخذوا كافة الاحتياطات لضمان سلامة النص القرآني، وفي مقدمة تلك الاحتياطات كتابته وتدوينه، بحيث يتناصر المكتوب والمحفوظ، خوفا من أن يضل أحدهما، فيذكره الآخر.

ومن دوافع الكتابة أيضا زيادة مصدر آخر، لتوثيق القرآن الكريم فلا شك أن الشيء إذا كان له أكثر من جهة توثيق صحته، وتشهد بسلامته، كان ذلك أدعى للقبول، وأحرى بنفي أية شائبة، تحدث لأي مشكك، أو متشكك.

ومما زاد من هذه المبالغة في توثيق النص القرآني بالكتابة مع الحفظ أهمية، طبيعة القرآن نفسه، حيث تقوم على العموم والخلود، نظرا لأنه آخر الكتب السماوية، والناس إلى يوم القيامة، مادام الأمر هكذا، في احتياج إلى مرجع للقرآن، مكتوب، يرجع كل قطر إليه.

وسبحان الله العظيم... فلقد كشفت الأحداث ـ وبسرعة مذهلة ـ عن فائدة كتابة النص القرآني في العهد النبوي، حينما استحرى القتل بالقراء في عهد أبي بكر، وحينما تنازع المسلمون في قراءة القرآن نفسه، كما سنرى بعد قليل إن شاء الله، فلقد وجد المسلمون للقرآن في هذه الظروف الحرجة مصدرين يخرجانهم مما يخشون وقوعه، ومما وقعوا فيه بالفعل، حيث وجدوا القرآن محفوظا في الصدور، ومكتوبا في السطور، فاطمأنت نفوسهم بصورة أكبر وأقوى مما لو كان الموجود هو المحفوظ في الصدور فقط.

كيف كتب القرآن في العهد النبوي؟

كان القرآن ينزل على الرسول ﷺ، ويأمر كتبة الوحي بتدوينه، وقد ذكرنا قريبا بعض الأحاديث الدالة على ذلك، والتي تنص صراحة على أن الصحابة لم يكن لهم

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٧٢.

أدنى اختيار في ترتيب ما يكتب بين يديه ﷺ ، ومن هذه الأحاديث حديث ابن عباس عن عثمان رضي الله عنهما ، حيث جاء فيه :

« وكان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده ، يقول : ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ».

ومنها حديث عثمان بن أبي العاص ، حيث يقول :

« كنت جالسا عند رسول الله ﷺ ، إذا شخص ببصره ، ثم صوبه ، ثم قال : « أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ . . . الآية ».

وفي حديث للترمذي وغيره عن زيد بن ثابت قال : كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع .[1]

ومن هذه الأحاديث حديث في البخاري ، حيث يروى لنا بإسناده عن ابن الزبير أنه قال : « قلت لعثمان بن عفان : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ قال : قد نسختها الآية الأخرى ، فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن أخي : لا أغير شيئاً منه من مكانه ».[2]

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أن الرسول ﷺ وأصحابه الكرام ، لم يكن لهم اختيار في ترتيب ما ينزل من قرآن ، خاصة إذا علمنا أن ذلك القرآن مدون بالكامل في اللوح المحفوظ ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ .[3]

ومعلوم أن ترتيب النزول غير ترتيب التلاوة ، والمعول عليه في الكتابة هو ترتيب التلاوة ، ولذلك كان ﷺ يعلم كتبة الوحي بذلك ، ويعلم المسلمين جميعا بهذا الترتيب حينما يقرأه لهم ، في الصلاة وخارجها .

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب ، باب فضل الشام .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، في تفسير سورة البقرة .

(٣) سورة البروج : ٢١ ، ٢٢ .

قال البغوي في شرح السنة :

« كان رسول الله ﷺ يلقن أصحابه ، ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن ، على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا ، بتوقيف جبريل إياه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا ، فثبت أن سعى الصحابة كان في جمعه في موضع واحد ، لا في ترتيبه ، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب ، أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ، ثم كان ينزله مفرقا عند الحاجة ، وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة » [١].

وقال الزركشي في البرهان ، معلقا على جمع الصحابة للقرآن ، وترتيبهم إياه كما هو الآن :

« وهذا الترتيب كان منه ﷺ بتوقيف لهم على ذلك ، وأن هذه الآية عقب تلك الآية ، فثبت أن سعى الصحابة في جمعه ، في موضع واحد ، لا في الترتيب ، فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ ، على هذا الترتيب ، الذي هو في مصاحفنا الآن » [٢].

سمات جمع القرآن في العهد النبوي

من تتبع الأحاديث الخاصة بكتابة القرآن في العهد النبوي ، تستطيع إن نقول أن هذا الجمع الكتابي اتسم بسمات معينة ، كان أبرزها ما يلي :

١- أن القرآن كله جمع مكتوبا في عهده ﷺ .

٢- أن هذه الكتابة كلها كانت بين يديه ﷺ ، وبتوجيهات منه .

٣- أن هذا الجمع كانت كل سورة فيه مرتبة آياتها ، كما هي الآن ، - وان كانت غير مجموعة في شيء واحد - وكان ذلك بأمر من جبريل لرسول الله ﷺ ، والذي أمر بدوره كتاب الوحي بذلك ، ثم بينه عمليا ، بتلاوته لأصحابه في الصلاة ، وخارجها .

---

(١) الاتقان : ١ / ٦ ، ٦٢ .

(٢) البرهان : ١ / ٢٣٦

٤- عدم تجانس ما كانوا يكتبون فيه ، فقد سبق أنهم كانوا يكتبون في أشياء مختلفة ، كالعسب ، واللخاف ، والرقاع ، وغير ذلك ، وعلى هذا : فمن الممكن أن يكون هناك سورة واحدة ، قد كتب بعض آياتها على عظم ، وبعضها على العسب ، وبعضها على اللخاف ، وهكذا .

٥- ترتب على عدم التجانس أن هذا المكتوب لم يوضع بين دفتين ، وهذا من البداهة معروف ، حيث كانت الأشياء التي كانوا يكتبون عليها غير متجانسة ، كانت مختلفة في النوع ، والحجم ، طولا وعرضا ، وسمكا ، فجمعها بين دفتين والحال هكذا ، من الصعوبة بمكان ، إن لم يكن من المحال .

٦- أن هذا الجمع كان خاليا من النقط والشكل ، ليكون شاملا للأحرف السبعة ، حتى يتسنى تيسير قراءة القرآن لجميع أفراد الأمة . وعلى ذلك فلو كان في اللفظ أكثر من قراءة ، وكانت كتابته مجردة من النقط والشكل تحتمل القراءتين ، كتب اللفظ برسم واحد ، وإن لم يحتمل الرسم إلا قراءة واحدة ، فالأمر لا يخلو من حالين ، إما أن يكون الرسول ﷺ أمر كاتبا بكتابته برسم ، وأمر آخر بكتابته برسم آخر في صحيفة أخرى ، وإما أن يأمر الكاتب بكتابته برسم ، ثم يتلو على الصحابة جميع القراءات الواردة في اللفظ ، فيعلموا جميع الأوجه فيه .

٧- أن ما كان منسوخ التلاوة كان يرفع بأمر النبي ﷺ ، من هذا المكتوب بين يديه ﷺ ، وإلا التبس أمره .

٨- كان لبعض الصحابة مصاحف خاصة ، وربما كانت هذه المصاحف – نظرا لظروف أصحابها المختلفة والكثيرة – تحتوي على بعض منسوخ التلاوة وهم لا يعلمون ، أو كانت غير كاملة ، وعذرهم في ذلك أنها كانت مصاحف خاصة لهم ، وليست مرجعا عاما لكل الأمة ، يتوقف تحاكم الناس عليها ، وعلى نظامها .

لماذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد في عهد الرسول ﷺ ؟

وهنا قد يسأل سائل ، إذا كان للقرآن تلك الأهمية الفريدة ، وذلك الخلود العظيم ، فلماذا لم يجمعه الرسول ﷺ في مصحف واحد ، بحيث تكون محتوياته متجانسة النوع ، ليربطها رابط واحد ؟

وهنا نقول ، لم يفعل الرسول ﷺ ذلك ، لعدة أسباب ، منها :

١- الظروف التي عاشها الرسول ﷺ ، وصحابته الكرام ، بما فيهم كتاب الوحي في المقام الأول .

(أ) كانوا عرضة في أي وقت من الأوقات لسفر من الأسفار ، أو لغزوة من الغزوات .

(ب) وحيث لم يكن نزول الوحي عليه ﷺ مرتبطا بزمان معين ، ولا بمكان خاص .

(جـ) وحيث كانت أدوات الكتابة في ذلك الوقت غير ميسورة .

(د) وحيث كان كتاب الوحي يكتبونه فيما تيسر لهم وقت نزوله فلو طلب من هؤلاء الكتاب جمع القرآن في مصحف واحد ، مرتبا ترتيبا نزوليا ، والحال حال سفر ، أو غزو ، والحصول على أدوات الكتابة ، أمر غير ميسور ، لو طلب منهم ذلك لكان عليهم أن يبحثوا عن أشياء متجانسة ، وبحجم متحد ، حتى يستطيعوا جمعها بين دفتين متماثلتين ، ويربطوا جميعها برباط واحد ، وفي ذلك من المشقة على المسلمين ما هو بين واضح .

٢- معلوم أن للقرآن الكريم ترتيبين :

(أ) ترتيب النزول . (ب) ترتيب تلاوة .

أما ترتيب النزول فهو مرتبط بالواقع والأحداث ، وما يعن لأحد من سؤال ، ونحو ذلك ، وأما ترتيب التلاوة فهو مرتبط بترتيب القرآن ، كما هو في اللوح المحفوظ . فلو كتب القرآن مرتبا حسب نزوله ، لخالف ترتيبه في اللوح المحفوظ ، ولوقع اضطراب في

كثير من آياته ، بما يتنافى وإعجازه ، بل لأصبح قرآنا آخر ، سمته الغالبة هي الهلهلة ، وصفته البينة هي الاضطراب وعدم الانسجام .

٣- لو كتب القرآن مرتبا كما أنزل ، ونزلت آية لتأخذ موضعها الحقيقي التي سجلت فيه في اللوح المحفوظ ، فأنها ستجد المكان قد أغلق أمامها ، فهل تهمل كتابتها ، بحجة أنه ليس لها مكان ، أو يكتب القرآن مفرقا غير مجموع بين دفتين ليكون في المجال فسحة لأن تأخذ الآيات النازلة مكانها الطبيعي ، الموافق لما في اللوح المحفوظ ؟

٤- ومما يرتبط بالعامل السابق ويترتب عليه ، أن هذا النص اللاحق لو أراد أن يأخذ مكان الطبيعي في موضع سابق ، لأدى ذلك إلى تغيير ما كتب أولا . فإذا علمنا أن القرآن نزل في نحو ثلاث وعشرين سنة أدركنا مدى هذا التغيير وكثرته ، التي لا تحصى عددا ، بما يوقع المسلمين في حرج شديد ، خاصة مع ندرة أدوات الكتابة ، والظروف التي ذكرناها في السبب الأول .

يقول الإمام الزركشي : « وإنما لم يكتب في عهد النبي ﷺ في مصحف ، لئلا يفضي إلى تغييره كل وقت ، فلهذا تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ ، فكتب أبو بكر والصحابة بعده ، ثم نسخ عثمان المصاحف ، التي بعث بها إلى الأمصار » [١] .

٥- معلوم أن القرآن طوال فترة الوحي كان عرضة لنسخ بعض آيات منه ، وفقا للحكمة الإلهية ، في إصلاح البشرية ، فلو كتب مرتبا كما نزل ، بين دفتين ، لم تكن هناك فرصة لحذف ما نسخ تلاوة ، فكان من الطبيعي الانتظار إلى أن يكمل نزول القرآن كله .

يقول الإمام النووي : «وإنما لم يجمعه النبي ﷺ في مصحف واحد ، لما كان يتوقع من زيادته ، ونسخ بعض المتلو ، ولم يزل ذلك التوقع إلى وفاته ﷺ ، فلما أمن

(١) البرهان : ١ / ٢٦٢ .

أبو بكر وسائر أصحابه ذلك التوقع ، واقتضت المصلحة جمعه فعلوه ، ﷺ »[1] .

وأيضا لو جمع النبي ﷺ القرآن مرتبا كما نزل في مصحف واحد ، والنسخ لبعض المتلو مازال مترقبا ، لأدى ذلك إلى اختلاط الناسخ بالمنسوخ ، وفي ذلك من اضطراب المسلمين ، واختلافهم في كتاب ربهم ما فيه .

يقول الزركشي : « وإنما ترك - أي النبي ﷺ - جمعه في مصحف واحد ، لأن النسخ كان يرد على بعض ، فلو جمعه ثم رفعت تلاوة بعض لأدى إلى الاختلاف ، واختلاط الدين ، فحفظه الله في القلوب ، إلى انقضاء زمان النسخ ، ثم وفق لجمعه الخلفاء الراشدين »[2] .

٦- يضاف إلى ما سبق من أسباب ، سبب هو من القوة بمكان .

فمعلوم أن جمع القرآن في مصحف واحد ، زمان أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما كان لسبب أوجب عليهما ذلك ، ألا وهو خوف ضياع شيء من القرآن بموت القراء زمان أبي بكر ، وحدوث فتنة عظيمة بين المسلمين في قراءة القرآن زمان عثمان . أما في عهد الرسول ﷺ فلم يوجد سبب يقتضي جمعه في مصحف واحد .

فهو عليه الصلاة والسلام ما زال حيا بينهم ، والصحابة لم يكونوا قد انتشروا في البلاد انتشارهم بعد ذلك .

فهل يخشى ضياع شيء منه حال حياته ﷺ ، وقد ضمن الله له حفظه في قلبه ، فحفظه ومعه المئات من المسلمين يشاركونه هذا الحفظ ؟

وهل يخشى على المسلمين فتنة من اختلافهم في القراءة ، وهو ﷺ مازال حيا ، وقد تكفل الله ببيانه له على لسانه ، فكان ملاذا للمسلمين ، إليه يرجعون في كل صغيرة وكبيرة مما يتعلق بالقرآن ، ويسمعون ويطيعون ؟

قال صاحب تفسير المباني ، في مقدمته : « أنه ﷺ لما وعده الله عز وجل ، أن يحفظ

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن ، للنووي : ١٤٩ ، ط مكتبة دار البيان بدمشق .

(٢) البرهان : ١/ ٢٣٥ .

القرآن له وعليه ، ويثبته في قلبه أمن نسيانه ، فعمل على أنه يحفظه على أمته ، ولا يزال يقرؤه عليهم ، ويقرئهم إياه ، ويعظهم به أحيانا ، ويعرفهم الفرائض ، والأحكام ، والمناسب من تأويله ، الذي يعرف بعد تلاوته .

فكان بذلك مستغنيا عن كتب القرآن وجمعه ، وكان المسلمون غانين – وبينهم النبي ﷺ – عن تخليد القرآن في المصاحف و الصحف » [١]

لهذه الأسباب لم يكتب الرسول ﷺ القرآن في مصحف واحد ، فلما احتاج المسلمون أيام أبي بكر إلى ذلك جمعه الصحابة في مكان واحد .

(١) مقدمة تفسير المباني : ٢٣ .

الفصل الثالث

جمع الصحابة للقرآن

المبحث الأول : (أ) تمهيد .

(ب) الأسباب التي دفعت الصحابة لحفظ القرآن .

المبحث الثاني: (أ) كثرة الحفاظ من الصحابة .

(ب) أبطال شبهة سخيفة .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

جمع الصحابة للقرآن الكريم

وكما تعرضنا لجمع الرسول ﷺ للقرآن ، حفظا وكتابة ، نتعرض لجمع صحابته الكرام لهذا القرآن حفظا وكتابة أيضا .

ونحن إزاء جمعهم له حفظا ، فإننا سنتعرض لعظيم شغفهم بقرآن ربهم ، وعن العوامل التي دفعتهم إلى ذلك ، دفعا ، والظروف التي هيأتهم إلى أن يكونوا سادة الحفاظ على القرآن ، وأئمة المفسرين له .

أما عن جمعهم له كتابة : فإننا سنتعرض لأهم وأشهر جمعين ، حيث اكتسبا صفة الإجماع عليهما من جميع أفراد الأمة ، وكان لهما من الأهمية ما حفظ الله بهما كتابه من الضياع ، وأمة رسوله ﷺ من التنازع والاختلاف في المصدر الأول من التشريع ، فلم يختلفوا في قرآن ربهم كما اختلفت اليهود والنصارى في كتابهم ، فضلوا وأضلوا .

المبحث الأول

(أ) تمهيد :

أما عن جمعهم عن طريق حفظهم إياه في صدورهم : فكـان الرسـول ﷺ ، إذا نـزل عليه شيء من القرآن ، دعا بعض من يكتب له ، وأملاه عليه ، ثم يقرأه ﷺ على كل من استطاع تبليغه إليه ، بما يكفل للقرآن تواتره ، وذلك تنفيذا لأمر ربـه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١) .

ونظرا لأمية الغالبية العظمى من الصحابة ، وندرة أدوات الكتابة ، وغـير ذلـك ، من أمور أخرى سنذكرها الآن إن شاء الله تعالى ، فقد عول الصـحابة في المقـام الأول في جمعهم للقرآن ، على ذاكرتهم أذهانهم ، وكانوا يفرغون الأوقات خصيصا لأخذه من فم الرسول مباشرة ، أومن فم من أخذ من فمه الشـريف ، عليـه الصـلاة والسـلام أخـرج البخاري في صحيحه ، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : « كنت أنا وجار لي من الأنصـار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة – وكنا نتناوب النزول علـى رسـول الله ﷺ ، ينزل يوماً ، وأنزل يوماً ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم ، من الـوحي غـيره ، وإذا نـزل فعل مثل ذلك » (٢) .

وإذا كان الصحابة قد اعتمدوا على ذاكرتهم في المقام الأول ، فإن ذلك تحقيق لموعـد الله تجاه كتابه ، حيث وعد نبيه ﷺ أن يجعل من قلوب أتباعه أناجيل ، تحوي كتابه ، بعكـس كل أمة من الأمم السابقة ، فلم يكن لديهم قدرة على قراءة كتابهم كله من الـذاكرة عـن ظهر قلب كما هو ، وإنما كانوا يردعون إليه بأبصارهم ، فيما كانوا يسطرون .

روي الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال : « .... وان الله نظر إلى أهـل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب .

---

(١) سورة المائدة : آية ٦٧ .

(٢) البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب التناوب في العلم .

وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرأه نائما ويقظان ، وإن الله أمرني أن أحرق قريشا ، فقلت : رب ! إذا يثلغوا رأسي فيدعو خبزة ، قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك [1] ، وأنفق فسننفق عليك ، وابعث جيشا نبعث مثله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك . . الحديث » [2] .

فقد دل هذا الحديث على أن الله تعالى خص أمة نبيه ﷺ بكتاب لا يحتاج في حفظه إلى لوح يغسله الماء ، ولكن إلى قلوب طاهرة ، تكون منارة لاستقبال نور الله عز وجل .

وعلى ذلك فالمعول عليه في جمع القرآن ، ونقله متواترا جيلا عن جيل هو حفظه في الصدور ، وليست كتابته في السطور .

يقول ابن الجزري رحمة الله : « ثم إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على خط المصاحف والكتب ، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة » .

ثم استشهد ابن الجزري على كلامه هذا بالحديث السابق ، ثم علق عليه بقوله :

« فأخبر تعالى أن القرآن يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء ، بل يقرأ في كل حال ، كما جاء في صفة أمته (أنا جيلهم في صدورهم) وذلك بخلاف أهل الكتاب ، الذين لا يحفظونه إلا في الكتب ، ولا يقرأونه كله إلا نظرا ، لا عن ظهر قلب .

ولما خص الله تعالى بحفظه من شاء من أهله ، أقام له أئمة ثقاة ، تجردوا لتصحيحه ، وبذلوا أنفسهم في إتقانه ، وتلقنوه من النبي ﷺ حرفا حرفا ، لم يهملوا منه حركة ولا سكونا ، ولا إثباتا ولا حذفا ، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم ، وكان منهم من حفظه كله ، ومنهم من حفظ أكثره ، منهم من حفظ بعضه ، كل في زمن النبي ﷺ [3] .

---

(١) بضم النون ، وكسر الزاي ، أي تعينك .
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الجنة ، باب (٦٣) .
(٣) النشر في القراءات العشر

(ب) الأسباب التي دعت الصحابة لحفظ القرآن عن ظهر قلب :

وإذا كان صحابة رسول الله ﷺ قد أقبلوا بكليتهم على حفظ القرآن الكريم ، عن ظهر قلب ، وتنافسوا فيه تنافسا لم يحدث أن رأت البشرية تنافسا في حفظ كتاب سماوي أو أرضي مثله ، حتى وجدنا منهم ﷺ المئات قد حفظوه ، فإن ذلك يرجع إلى عدة أسباب ، جعلتهم يدفعون إلى هذا الحفظ دفعا ، ويساقون إلى الاستمرار في قراءة القرآن سوقا .

وقبل أن نذكر هذه الأسباب نود أن ننص هنا على أن هذه الأسباب منها ما قد يكون مشتركا بينهم وبين الرسول ﷺ ، دفع الجميع إلى سرعة الحفظ وإتقانه ، كما أننا قد نجد بعض الأسباب التي ذكرناها في حق الرسول ﷺ آنفا متوافرة لدى صحابته الكرام أيضا .

وبناء عليه فلا حرج علينا إن أشرنا الآن في جانب حفظ الصحابة إلى أسباب قد ذكرت في جانب حفظ الرسول ﷺ ، أو إذا ذكرنا أسبابا يصح أن نعتبرها في جانبه ﷺ أيضا ، وذلك بحكم أنه يشاركهم في الإسلام ، وفي العروبة وفي النشأة والبيئة ، ويشارك غالبيتهم العظمى في الأمية .

أما عن هذه الأسباب التي جعلت الصحابة يحفظون القرآن حفظا جيدا ، ويأخذونه بقوة ، فهي كثيرة ، نقتصر فيما يلي على أهمها وأشهرها :

١- أمية الغالبية العظمى من الصحابة .

فمعلوم أن أمة العرب أمة أمية ، في مجموعها ، لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، كما وصفهم ربهم بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

ومن شأن الأمة الأمية أن تعول على ذاكرتها ، وتعتمد على حفظها ، ولذلك وجدنا العرب يعولون على أذهانهم في تسجيل مفاخرهم وأنسابهم ، وأشعارهم ، وأيامهم .

٢- المناخ الطبيعي للبيئة التي نشأوا فيها ، وشبوا في جنباتها ، وترعرعوا في ثناياها .

---

(١) سورة الجمعة : آية ٢ .

فقد كانت بيئة معتدلة المزاج ، لا تعرف التطرف المناخي كما هو طبيعة بلدان كثيرة من بلدان الدنيا .

فالصحراء الواسعة تسودها ، والشمس المشرقة تتخللها ، والسماء الصافية تعلوها ، والهواء النقي ينقيها ، والقمر المنير ، يضيئها ، والنجوم المتلألئة تسر أنظار ساكنيها .

إنها البيئة التي تلهب وجدان الشعراء ، فيفيضون شعرا ، مليئا بالإحساس الصادق ، والكلمة المؤثرة .

أفلا تؤثر تلك البيئة في اعتدال مزاجهم ، وصفاء قريحتهم وحدة ذهنهم ؟ بلى ، وألف بلى . . .

ولذلك وجدناهم يمتازون في هذه الناحية ـ أعني ناحية اعتدال المزاج وحدة الذهن ، وقوة الحافظة ـ عن غيرهم من الأمم الأخرى ، التي لا تشاركهم تلك البيئة .

ولذلك لم يكن عجبا أن نسمع عن أحدهم أنه كان يحفظ قصيدة تربو على السبعين بيتا عن ظهر قلب بمجرد أن تمر على سمعه مرة واحدة .

٣ - وربما يتصل بالسبب السابق سبب آخر ، ألا وهو :

اختصاص الله تعالى العرب من بين سائر الناس ليكونوا أول من يستقبلون هداية السماء ، ولينطلقوا بنورها إلى كل أرجاء الدنيا .

فمهد لهم الأسباب التي تساعدهم على ذلك ، ومن بينها حدة أذهانهم ، وقوة حافظتهم .

٤ - حب الصحابة المنقطع المثيل لله عز وجل ، ذلك الحب الذي ما رأى الوجود معشار مثله ، وقد سبق أن ذكرنا أن المحب إذا أخلص لمن يحب ، حمله حبه ذلك على إدمان متابعة كلام محبوبه وآثاره ، وحفظ أقواله وأخباره ، ولو كان على حساب طعامه وشرابه ، وماله وبيته ومتاعه ، يعرف ذلك كل من له أدنى تجربة حب خالص ، صادق ، مشروع ، ومن له أدنى إطلاع على النفس وأحوالها ، وعلى القلوب وأخبارها .

فهل يجد الإنسان حبيبا أحب إليه ، من مولاه ، مالك أمره ، وولي كل نعمة تغمره ، وواهب الحياة له ؟

وهل يجد الإنسان كلاما أحب إليه من كلام هو روح هذه الحياة ، والنور المشع في جنباتها ، والذي به يرى ، وبه يتحرك ويسكن ، ولولاه لهام في ظلام دامس ، ولعاش في ضلال حالك ؟

٥ - زهد الصحابة في الحياة ، واقتصارهم فيها على ما يحفظ لهم حياتهم ، دون أن يغرقوا أنفسهم في زخارفها ، أو يتعلقوا بزينتها . . .

وقد كان لهذا السبب من عظيم الأثر ، على نقاء نفوسهم ، وصفاء قلوبهم ، فلم يحزنوا على ما فقدوا ، ولم يطغوا بما وجدوا . . .

ولذلك فما أن قرئ عليهم القرآن ، إلا ووجد من آذانهم آذانا صاغية ، ومن قلوبهم قلوبا واعية ، فكان حفظهم حفظا متينا ، ووعيهم وعيا مكينا .

٦ - تنجيم القرآن على أكثر من عشرين عاما .

فإذا علمنا أن العرب كانوا يمتازون بقوة الحفظ وبراعته ، وسيلان الذهن وحدته ، وأضيف إلى ذلك أن القرآن لم ينزل من السماء دفعة واحدة ، وإنما نزل في أكثر من عشرين عاما ، أدركنا مدى تمكن الصحابة من حفظ القرآن ، وإتقانهم له إتقانا جيدا ، بل بإحاطتهم في جملتهم بمعانيه إحاطة شاملة .

٧ - عملهم بما كانوا يعلمون .

فلم يكن الصحابة تجار كلام ، وما كانوا ليسمعوا قولا ولا يؤثر فيهم ، بل كان الواحد منهم إذا سمع شيئا من القرآن ، نفذه في الحال ، وبلغ به الآخرين ، بقدر ما أوتي من قوة ، وما قصة نزول آية الحجاب وتبليغ الصحابة نساءهم وبناتهم بها بخافية على أحد .

ولاشك أن العمل بالقرآن من أقوى الأسباب ، التي تمكنه في الذهن وتنقشه في القلب .

٨- وجود الرسول ﷺ بينهم .

حيث كان يتلو عليه في صلاة وخارجها ، فإذا احتاجوا إلى إزالة لبس ، أو تبيين مشكل ، أو تفصيل مجمل ، وجدا أمامهم المبلغ عن ربه ، والمأمور ببيان كلامه ، يستقبلهم بوجه طلق بشوش ، وبصدر رحب رحيم .

ولا ريب في أن سماع الصحابة من رسول الله ﷺ قرآن الله ، وتفسير ما احتاجوا إليه منه ، من أقوى العوامل لحفظ القرآن الكريم .

٩- تشريع التعبد بقراءة القرآن ، سواء في الصلاة أم في خارجها ، بعكس الحديث النبوي .

قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (١) .

وقال أيضا : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلاً ﴾ (٢) .

وقال أيضا : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ . . . الآية (٣) .

وها هو الرسول ﷺ تتورم قدماه في الصلاة من طول قراءته ، وها هم أصحابه يقتدون به في ذلك ، فنجد أبا بكر الصديق يقرأ ذات فجر بسور البقرة كلها ، فيقول له عمر : كادت الشمس تطلع ، فيرد عليه : لو طلعت لم تجدنا غافلين ! !

١٠- مكانة القرآن عند المسلمين . . .

فالقرآن هو المصدر الأول في التشريع ، وهو المنهج الذي ينظم للإنسان علاقته بالخالق والمخلوق ، على حد سواء ، بل ينظم له علاقته مع نفسه هو ، وعرف المسلمين

---

(١) سورة الإسراء ٧٨ .
(٢) سورة المزمل ١ – ٤ .
(٣) سورة المزمل ٢٠ .

كيف يعيشون دينا ودنيا ، فوضع لهم الأسس التي يبنون عليها أمور لاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة ، والحرب ، وكل أمر في حياتهم ، ليحقق لهم السعادة لكاملة في الدنيا ، والامتلاك التام لناصيتها ، والنجاة من نار الآخرة ، والفوز بجنتها .

أكثير على قرآن هذا شأنه أن يحفظ عن ظهر قلب ؟

١١- الترغيب في قراءة القرآن ، وحفظه .

وقد ورد ذلك الترغيب مبثوثا بين ثنايا القرآن نفسه ، وفي العديد من أحاديث رسول الله ﷺ ، وهي أكثر من أن تحصى ، وأشهر من أن تنسى ، ومن هذه النصوص :

(أ) قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ (١)

(ب) وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢)

(جـ) وقوله تعالى في الحديث القدسي ، الذي أخرجه الترمذي ، وأبو داود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الرب عز وجل : من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » (٣) .

(د) وقوله ﷺ فيما يرويه مسلم : « الماهر بالقرآن مع السفرة ، الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق ، له أجران » (٤)

(هـ) وقوله أيضا : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول (الم) حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » (٥) .

---

(١) فاطر ٢٩ .

(٢) فاطر ٣٢

(٣) الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب ٢٥ ، وأبو داود نفس الكتاب ، باب (٦) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المسافرين ، باب ٢٤٤

(٥) الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ١٦

(و) أخرج الترمذي أيضا وقال عنه حسن صحيح ، أن النبي ﷺ قال : « يقال لصاحب القرآن اقرأ ، وارتق ورتل ، كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها » [1] .

١٢- ومما يلتحق بالسبب السابق ، ترغيب بصورة أخرى ، وهي عدم مساواة من لا يحفظ القرآن ، بمن هو حافظ ، وذلك من البداهة بمكان ، وقد وردت النصوص من القرآن والسنة واضحة في ذلك ، ومنها ما يلي :

(أ) قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

ولا شك أن العلم بالقرآن أشرف وأفضل العلوم على الإطلاق .

(ب) ومنها قول الرسول ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » [3] .

(جـ) وقوله ﷺ : « إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن ، كالبيت الخرب » [4] .

وقد وضح عدم المساواة وضوحا عمليا ، في مجال الحياة ، حينما توقف إسناد كثير من المناصب الخطيرة على حفظ القرآن ، وفهمه ، كالإمامة الكبرى ، وقيادة الجيوش ، والولاية على البلدان ، والقضاء بين الناس ، وإمامة الناس في الصلاة ، وغير ذلك .

أخرج الإمام مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ؛ فإن دانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلما » [5] أي إسلاما ، وفي رواية (سنا) مكان (سلما) .

بل بلغ ذلك التفضيل وقت الدفن في القبر .

---

(١) المصدر السابق ، نفس الكتاب ، باب ١٨

(٢) الزمر: ٩ .

(٣) البخاري كتاب فضائل القرآن ، باب ٢١

(٤) الترمذي ، كتاب فضائل القرآن ، باب ١٨ .

(٥) مسلم ، كتاب المساجد ، باب ٢٩٠

أخرج البخاري وغيره ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال : « كان النبي ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ، في ثوب واحد ، ثم يقول : أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد » [١].

١٣ - ومن الأسباب التي جعلت الصحابة يحفظون القرآن ، بل ويتقنونه أحسن ما يكون الإتقان ، الأمر بمعاهدة القرآن دائما ، والحرص على قراءته باستمرار في أحاديث كثيرة .

منها قوله ﷺ ، فيما رواه البخاري ومسلم : « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفصيا من الإبل في عقلها » [٢].

١٤ - نزول كثير من آيات القرآن الكريم ، على أسئلة تهم كثيرا من المسلمين ، سواء من المسلمين ، أم من غيرهم ، وعلى وقائع خاصة ، تحتاج إلى تعليق من الله عز وجل عليها ، بتقرير ، وتشجيع ، أو باعتراض ، وتصحيح ، إلى غير ذلك ، مما تقتضيه وقائع الناس وأحوالهم .

ولا شك أن القرآن إذا نزل مرتبطا بوقائع الناس ، وجاريا لحوادثهم . ومجيبا عن أسئلتهم ، تمكن في النفس أشد ما يكون التمكن ، ورسخ في الأذهان في كل الأزمان .

١٥ - بلاغة القرآن نفسه وإعجازه إياهم .

فلقد حوى القرآن العديد من السمات البيانية ، والخصائص البلاغية ، ما جعل العرب أنفسهم ، وهم أهل الصنعة ، وأرباب البلاغة والبيان - يقفون مستسلمين ، معترفين بأن هذا ليس من كلام مخلوق .

وأمام تلك السمات ، وهذه الخصائص ، وجد الصحابة متعتهم الروحية والعقلية ، فكان في قراءتهم له - كما يقول الدكتور عبد الوهاب غزلان : « متعة نفسية لا حد لها ،

---

(١) البخاري ، كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهيد .

(٢) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب استذكار القرآن ، ومسلم في كتاب المسافرين ، باب فضائل القرآن .

فإنهم عرب خلص ، يستطيعون أن يدركوا هذه المزايا ، ويمتعوا بها أرواحهم . وفي هذا وحده ما يحبب إليهم الإكثار من قراءته .

ويقرب هذا من أفهامنا ما نجده في أنفسنا من الإقبال على ما نستعذ به من كتب الأدب ، وغير خاف أن الإكثار من قراءته هو السبيل إلى حفظه » [1] .

١٦- سهولة حفظ القرآن الكريم .

فقد كان من رحمة الله تعالى على خلقه ، أن يسر لهم حفظ قرآنه ، ليجعل من ذلك سبباً مانعا من ضياع شيء منه ، أو حتى مجرد تحريف فيه ، ولو بصورة طفيفية .

فكما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [2]

قال أيضا : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [3]

وإذا كان حفظ القرآن ميسرا بهذه الدرجة لكل إنسان ، فما بالك بصحابة رسول الله ﷺ ، وهم العرب الأميون ، الذين يمتازون بقوة الذاكرة ، وحدة الذهن ، وصفاء القريحة ، وسلامة الفطرة ؟

* * * *

---

(١) البيان ، للدكتور عبد الوهاب غزلان ١٤٩ .

(٢) الحجر ٩ .

(٣) القمر ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠ .

المبحث الثاني

(أ) كثرة الحفاظ من الصحابة

لاشك أن توافر تلك الأسباب السابقة في أي شعب من الشعوب يجعل منهم حفاظا للقرآن، بل متقنين له، وأعين لأحكامه، بل إن ربع هذه الأسباب كفيل بذلك، فكيف بتوافرها مجتمعة في خير قرن من قرون الزمان على الإطلاق، حيث جمع الصحابة أتقى أفئدة، وأسلم فطرة، وأحد الأذهان، وأقوى ذاكرة ؟

بلا ريب ستجعل منهم هذه الأسباب مجتمعة - وبكل سهولة - آذانا صاغية لكلام ربها، وقلوبا حافظة له، وألسنة شغوفة بترداده، وستجعل من نهارهم حركة سعي لتحصيله ما استطاعوا، ومن ليلهم فرصة ينتهزونها ليخلوا به مع أنفسهم وبارئهم ما أطاقوا.

ولذلك: لم يكن غريبا عليهم أن يفرغوا الأوقات لتحصيله.

أخرج البخاري عن ابن مسعود أنه قال:

« والله الذي لا إله غيره: ما من كتاب الله سورة إلا أنا أعلم، حيث نزلت. وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت »[1]

كما أخرج البخاري عنه أيضا أنه قال: « والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة »[2]

فإذا عجز أحدهم عن تفريغ وقت لتحصيله مباشرة من فم رسول الله ﷺ، الشريف، أناب عنه من يحصل له.

---

(١) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي

(٢) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي.

أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال :

« كنت أنا وجار لي من الأنصار ، في بني أمية بن زيد - وهي من عوالي المدينة - وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ، ينزل يوما وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم ، من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك » (١)

كذلك لم يكن غريبا قيامهم معظم الليل بهذا القرآن ، والناس في نومهم يغطون ، أو في ملذاتهم وشهواتهم يسبحون ، حتى لقد سجل الله لهم ذلك في قرآنه ، بقوله : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (٢).

بل كان يسمع لليلهم دوي كدوي النحل من كثرة القراء ، ومن طول قراءتهم ، حتى لو كانوا في غزوة من الغزوات ، وبهم من الإرهاق ما بهم .

أخرج البخاري في كتاب المغازي عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن ، حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ، وإن كنت لم أر منازلهم ، حين نزلوا بالنهار » (٣)

ولم يكن هذا الاهتمام الشديد ، وذلك الشغف العظيم بحفظ القرآن خاصا بكبارهم ، بل شمل صغارهم أيضا .

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « توفي رسول الله ﷺ ، وأنا ابن عشر سنين وقد قرأت المحكم » (٤)

وكان الكبار يشجعون الصغار على ذلك ، ويقدرونهم أيما تقدير .

أخرج البخاري أيضا عن ابن عباس أنه قال :

« كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال : لم تدخل

---

(١) البخاري : كتاب العلم ، باب التناوب في العلم .
(٢) الذاريات : ١٧ .
(٣) البخاري : كتاب المغازي ، باب ٣٨ .
(٤) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب ٢٥ .

هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم ، فدعا ذات يوم فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم ، قال : ما تقولون في قول الله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [1].

فقال بعضهم : أمرنا نحمد الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال : إذا جاء نصر الله والفتح ـ وذلك علامة أجلك ـ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » [2].

وكان الرسول ﷺ يدفعهم إلى التنافس في حفظ القرآن دفعا :

أخرج البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين ، رجل علمه الله القرآن ، فهو يتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، فسمعه جار له ، فقال ليتني أوتيت مثلما أوتي فلان ، فعملت مثل ما يعمل ، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق ، فقال رجل : ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان ، فعملت مثل ما يعمل » [3].

وكان ينمي فيهم تلك الهمة العالية ، وتلك المنافسة السامية ، فكان يحب أن يسمع القرآن منهم ، وإذا استمع إلى أحد منهم أثنى عليه وشجعه .

أخرج البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال له : « لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة ! لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » [4].

ويبلغ ذلك التنافس من العظمة أنه كان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ، ضجة من كثرة القراءة ، وارتفاع أصواتهم بالقرآن ، فيخرج عليهم النبي ﷺ ، مشجعا وموجها ، قائلا لهم : « لا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن » [5].

---

(١) سورة النصر .

(٢) البخاري : كتاب التفسير ، سورة النصر .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب ٢٠ .

(٤) البخاري : في كتاب فضائل القرآن ، باب ٣١ ، ومسلم : كتاب المسافرين ، باب ٢٣٦ .

(٥) مالك في الموطأ : كتاب النداء ، باب ٢٩ ، وأحمد في مسنده ٢/ ٣٦ .

وكان ذلك التشجيع والاهتمام منه ﷺ بأصحابه، بمجرد أن يأتي الرجل مسلما إليه ﷺ.

عند عبادة بن الصامت ﷺ قال: «كان الرجل إذا هاجر دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا، يعلمه القرآن، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن، حتى أمرهم رسول الله ﷺ يخفضوا أصواتهم، لئلا يتغالطوا» [1].

ووصل ذلك التشجيع إلى أن المرأة كانت تعتز إذا كان صداقها أن يحفظها من يريد زواجها بعضا من سور القرآن الكريم، بدلا من أن يكون هذا الصداق مثل صداق مثيلاتهما، من مال، أو إبل، ونحو ذلك.

ولم يقف هذا الاهتمام بتحفيظ القرآن مقصورا على من يعيشون مع رسول الله ﷺ، بل تعدى إلى المناطق النائية عنه سواء أكان ذلك قبل الهجرة، أم بعدها.

يعلم ذلك من إرساله ﷺ قبل الهجرة مصعب بن عمير إلى المدينة، ليقرئ أهلها القرآن، ومن إرسال القراء إلى القبائل التي كانت تطلب ذلك، كما حدث مع الوفد اللذي غدروا به في بئر معونة...

وقد ترتب على كل ما سبق، من أسباب متعددة، ومن تشجيع عظيم، ومن ظروف مواتية أن بلغ عدد القراء من صحاب رسول الله ﷺ من الكثرة، ما لا يحصى عددا، ولا يحاط بهم جمعا، بحيث توافر للقرآن تواتره بهم، تواترا أجمع عليه المسلمون، وشهد له غيرهم من المنصفين...

ولقد اشتهر من هؤلاء الصحابة جماعة، فاضت الروايات بذكر أسمائهم، والتحدث عن مناقبهم، وإذا كانت تلك الروايات نصت على جماعة بأعيانهم، فليس معنى ذلك حصر عدد الحفاظ فيهم، فإن حصر ذلك يفوق القدرة، خاصة بعد افتتاح البلدان، واستبحار العمران.

ومن بين الذين نصت الروايات على أسمائهم - كما ذكر أبو عبيد القاسم بن سلام والزركشي، وابن حجر والسيوطي وغيرهم: كثير من المهاجرين، وكثير من

---

(١) أحمد في مسنده ٥/٣٢٤.

الأنصار ، وبعض أزواج النبي ﷺ ، فمن المهاجرين : الخلفاء الأربعة ، وطلحة ، وسعد ، وابن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن عمرو ، وعمرو بن العاص ، وأبو هريرة ، ومعاوية ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن السائب.

ومن الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وزيد بن ثابت ، ومجمع بن جارية ، وأنس بن مالك .

ومن أزواج النبي ﷺ : عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة . وقد نص على هؤلاء أبو عبيد ثم قال :

« وبعض ما ذكرنا في القراءة ، وأعلى من بعض ، وإنما خصصنا بالتسمية كل من وصف بالقراءة ، وحكي عنه منها شيء »(١)

ومما هو جدير بالذكر أنه من الصعب في كل زمان استقصاء حفاظ القرآن الكريم ، وذلك من كثرتهم ، وتفرقهم في القرى والأمصار ، فلقد بلغ تواتر القرآن في كل جيل مبلغا ، جعل المسلمين لا يهتمون بإحصاء حفاظه ، لاستغنائهم عن مثل ذلك .

(ب) شبهة سخيفة وبيان زيفها

لعلنا مما سبق ، من الحديث عن الأسباب ، التي لو وجد ربعها في أي جيل من الأجيال ، فضلا عن جيل الصحابة الكرام ، لوجدنا معظمه قد حفظ قرآن ربه ، ولعلنا مما سبق من الحديث عن اهتمام الصحابة الشديد ، وشغفهم العظيم بحفظ القرآن ، وتشجيع الرسول ﷺ لهم ، ولعلنا بعد ذلك كله ندرك أن الكثرة الكاثرة من صحابة رسول الله ﷺ ، كانت تحفظ القرآن كله ، أو معظمه على الأقل ، أو على أقل القليل أن جيل الصحابة قد توافر فيهم من الحفاظ ما يتحقق به تواتر القرآن الكريم ، ولا يشكك في ذلك إلا كافر بربه ، حاقد على دينه .

وللعجب فقد وجد هذا الصنف من الناس الذين حاولوا أن يطعنوا في تواتر القرآن ،

---

(١) انظر المرشد الوجيز لأبي شامة ٤٠ ، ٤١ ، والنشر لابن الجزري ١ /٦.

زاعمين ندرة حفاظه من خير القرون على الإطلاق : قرن العهد النبوي ، والنور المحمدي . . . .

وقد ظنوا أنهم واجدون لشبهتهم تلك سندا يتكئون عليه من كتب السنة ، التي يشترط أصحابها صحة أسانيدها .

فقالوا إن القرآن غير متواتر ، ودليلنا على ذلك ما جاء في صحيح البخاري عن أنس ﷺ قال :

« مات النبي ﷺ ، ولم يجمع القرآن غير أربعة ، أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » .

وفي رواية أخرى ذكرها البخاري قبل هذه الرواية مباشرة ، عن قتادة قال : سألت أنس بن مالك ﷺ : من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ ؟ قال : أربعة كلهم من الأنصار ، أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » [1]

وقد يظن جاهل مخدوع أن الأمر كما يدعون ، نظرا لصحة الحديثين اللذين أتوا بهما ، ولكننا في هذا المقام رغم ظهور بطلان هذه الشبهة ، ووضوح زيفها ، لا نملك إلا الوقوف أمامها والإتيان عليها من قواعدها ، ليخر سقفها على أهلها ، فنقول وبالله التوفيق .

١- من ينظر إلى الأسباب السابقة ، والتي أفضنا في الحديث عنها خصيصا لمثل هذه الشبهة ، ويعلم أنها جميعا قد توافرت للصحابة الكرام ، يدرك استحالة أن يكون عدد الحفاظ من الصحابة لا يتجاوز أربعة أشخاص .

٢- لو تتبعنا بعض الأحاديث ، والآثار ، الخاصة بقراء الصحابة لوجدناها تنص على غير هؤلاء .

ومن هذه الأحاديث والآثار من يلي :

(أ) ما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قدم أبا بكر في الصلاة في مرضه ليؤم

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ

الجميع ، بدلا منه ، ولا يعقل أن يكون أبو بكر غير جامع للقرآن ويصلي بمن هو جامع له ، خاصة وأن الذي قدمه هو الذي قال « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله »[1] .

يقول أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري : « فلولا أنه كان أقرأهم لكتاب الله لما قدمه عليهم » .

ويعلق ابن كثير على كلام الأشعري هذا بقوله : « وهذا التقرير لا يدفع ولا يشك فيه »[2] .

(ب) أخرج البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو ابن العاص « كيف تصوم ؟ قلت أصوم كل يوم ، قال : وكيف تختم – (أي القرآن) – قلت : كل ليلة ، قال : صم في كل شهر ثلاثة واقرأ القرآن في كل شهر . . . . الخ الحديث »[3] . ورواه ابن ماجة والنسائي بلفظ « جمعت القرآن فقراته كله في ليلة . . الحديث »[4] .

(جـ) أخرج البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « والله الذي لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت ، ولو أعلم أحدا اعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه » .

بل إن ابن مسعود يصرح في نفس الموضع من صحيح البخاري ، بأنه كان حريصا على تلقي القرآن شفهيا من في الرسول ﷺ مباشرة ما استطاع ، فيقول :

« والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ ، بضعا وسبعين سورة » .

(د) كما ذكر البخاري في نفس الموضع ، أن النبي ﷺ قال : « خذوا القرآن من أربعة ، من عبد الله بن مسعود ، وسالم ، ومعاذ ، وأبي بن كعب » .

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ، باب ٥٣ .

(٢) فضائل القرآن لابن كثير ٢٨ .

(٣) البخاري : فضائل القرآن ، باب في كم يقرأ القرآن ؟ ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب ١٨٢

(٤) ابن ماجه ، كتاب إقامة الصرة ، باب ١٧٨ .

(هـ) أخرج ابن أبي داود في مقدمة كتابه « المصاحف » بإسناد حسن عن محمد بن كعب القرظي قال : « جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار ، معاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري » .

ومعلوم أن عبارة جمع القرآن خمسة من الأنصار لا تفيد الحصر فيهم ، فلا تنافي أن يكون غيرهم من الأنصار قد جمعوه ، كما لا تنافي من باب أولى أن يكون كثير من المهاجرين ، وكثير من غير المهاجرين والأنصار ، من القبائل الأخرى قد جمعوه أيضا . .

(و) قال ابن الطيب فيما ينقله عن القرطبي في مقدمة تفسيره : « ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان وعلي وتميم الداري ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عمرو بن العاص » .

إلى أن يقول : « وقد تظاهرت الروايات بأن الأئمة الأربعة قد جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ ، لأجل سبقهم الإسلام ، وإعظام الرسول ﷺ لهم » . [١]

(ز) أخرج البخاري وغيره ، أن وفدا من قبائل عضل والقارة قدم على رسول الله ﷺ ، وقالوا له إن أخبار الإسلام قد وصلتهم ، وأنهم في احتياج إلى من يفقههم أمر هذا الدين الجديد ، فأرسل معهم النبي ﷺ عشرة من خير الفقهاء وأمر عليهم عاصم بن ثابت ، فلما انطلقوا معهم ، غدروا بهم ، وقتلوهم أجمعين [٢] .

(ح) أخرج البخاري وغيره عن أنس بن مالك ﷺ « أن رعلا وذكوان ، وعصية ، وبني لحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو ، فأمدهم بسبعين من الأنصار ، كنا نسميهم القراء في زمانهم ، كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، حتى كانوا ببئر معونة ، قتلوهم وغدروا بهم » . [٣]

(ط) معلوم ـ كما سيأتي قريبا إن شاء الله ـ أن سبب جمع أبي بكر للقرآن كتابة في عهده هو الخوف من ذهاب القراء في المعارك ، بعد وقعة اليمامة مع مسيلمة

---

(١) مقدمة تفسير القرطبي ١ /٥٧ .
(٢) البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة الرجيع .
(٣) البخاري : في نفس الموضع السابق .

الكذاب ، حيث علق عمر ذلك بقوله : « إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن . وإني أرى أ ، تأمر بجمع القرآن » (١).

فعمر نفسه يعترف بكثرة القتلى من القراء في معركة واحدة ، حيث بلغ عددهم إلى سبعين قارئا ، بل نص بعضهم على أنهم كانوا سبعمائة .

قال ابن حجر تعقيبا على قول عمر : « فيذهب كثير من القرآن : وهذا يدل على قول عمر : فيذهب كثير من القرآن : وهذا يدل على أن كثيرا ممن قتل في وقعة اليمامة كان قد حفظ القرآن » (٢).

(ي) روى ابن داود من طريق محمد بن كعب القرظي ، قال : « جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ خمسة من الأنصار : معاذ ابن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وأبي بن كعب ، وأبو الدرداء ، وأبو أيوب الأنصاري » . قال عنه ابن حجر : « وإسناده حسن مع إرساله ، وهو شاهد جيد لحديث عبد الله بن المثنى » (٣).

(ك) قال بن حجر :

وأخرج ابن أبي داود أيضا من طريق الشعبي ، قال : « جمع القرآن في عهد رسول الله ﷺ ستة : منهم أبو الدرداء ومعاذ وأبو زيد وزيد بن ثابت » .

ثم قال عنه أبو حجر : « وإسناده صحيح ، مع إرساله » (٤).

فهذه الأحاديث والآثار وغيرها تدل بكل وضوح ، وبما لا يدع مجالا للشك ، على كثرة قراء القرآن ، كثرة تحقق له تواتره من أقرب طريق ويرد على أولئك الأفاكين الخراصين شبهتهم ، في أن عدد الصحابة الذين حفظوا القرآن في عهده ﷺ لم يتجاوز

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .
(٢) فتح الباري : ٨/ ٦٢٩ .
(٣) المصدر السابق : ٨/ ٦٧٠ .
(٤) فتح الباري : ٨/ ٦٧٠

أربعة أشخاص .

بل إننا لنجزم بكل يعين بأن تلك الأحاديث التي تدل على كثرة القراء من الصحابة ، لا تمثل في الواقع إلا قليلا من كثير ، لعدم الاعتناء بإحصائية للحفاظ لاستغنائهم عنها ، حيث بلغت كثرتهم مبلغا ، اشتهر في الآفاق ، وطار في القرى والأمصار .

قال القاضي أبو بكر في كتابه الانتصار للقرآن ، بعد أن أورد عدة روايات تفيد كثرة الحفاظ من الصحابة ، والذين قتلوا في حرب اليمامة .

« ومن تأمل مجيء هذه الأخبار وألفاظها ، علم وتيقن أن أمر القرآن كان بينهم ظاهرا منتشرا ، وأن حفاظه آن ذاك كانوا في الأمة عددا عظيما ، وخلقا كثيرا »[1] قد يسأل متسائل ويقول :

إذا سلمنا لهم بكثرة الحفاظ من الصحابة ، طبقا لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة في ثبوت التواتر للقرآن ، فما تقولون في حديثي أنس ، خاصة أن أحدهما جاء بصيغة الحصر ، وهو الذي قال فيه : (لم يجمع القرآن غير أربعة) ؟

وللجواب عن هذه الشبهة نقول :

١ - لا يمكننا الأخذ بظاهر كل من الحديثين معا ، لتعارضهما من جهتين :

الأولى : أن أحدهما يفيد الحصر في أربعة أشخاص فقط ، والآخر لا يدل على الحصر .

الثانية : أن أحدهما ، والذي ورد بصيغة الحصر لم يذكر فيه أبي بن كعب ، وإنما ذكر بدلا منه أبو الدرداء ، أما الثاني فقد ذكر فيه أبي ولم يذكر فيه أبو الدرداء .

وعلى هذا يكون أنس قد جزم في حديث الحصر بأن أبيا لم يجمع القرآن ، وجزم في

(١) المرشد الوجيز لأبي شامة : ٦٣ .

الحديث الآخر بأنه جمعه ، وذلك تناقض واضح .

٢ - وإذا لم يمكننا الأخذ بظاهر كل من الحديثين معا ، حتى وأن وردا في الصحيحين ، وأما أن يؤولا تأويلا صحيحاً بما يتفق مع الجزم بتواتر القرآن ، واشتهار كثرة قرائه بما لا يحصى عددا .

٣- وقد ذهب بعض العلماء إلى رد الحديثين معا ، وعدم الأخذ بهما ، لاضطرابهما ، ولمخالفتهما الواقع .

قال الشيخ غزلان : « وقد ذهب بعض العلماء إلى أنه ينبغي رد هذين الحديثين من أصلهما ، وعدم الإلتفات إليهما ، وإن وردا في الصحيح ، لما في تأويلهما من التكلف ، ولأنهما من كلام أنس نفسه ، وقد اضطرب فيه ، والكلام المضطرب لا يقبل .

فقد ذكر القسطلاني طائفة من هذه التأويلات ، ثم عد القراء من الصحابة كما ذكرهم أبو عبيد ، ثم قال : » وبالجملة فيتعذر ضبطهم على ما لا يخفى ، ولا يتمسك بما في هذين الحديثين ، لما ذكرناه ، وكيف يكون ذلك مع ما ورد من قتل القراء ببئر معونة ، ويوم اليمامة ، لاسيما مع ما في هذه الأحاديث من الاضطراب في العدد ، والنفي والاطلاق ، وليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ [١] .

٤- فمن حق الإنسان إذاً أن يرد ظاهر هذين الحديثين لاضطرابهما ، ومخالفتهما واقع صحابة الرسول ﷺ ، ولأنهما من كلام أنس نفسه ، وليس من كلام الرسول ﷺ .

٥- وإذا أردنا أن نجمع بينهما ونأخذ بهما ، ولا نردهما لأنهما في صحيح البخاري ، فإننا نقول : إن الحصر الوارد في أحدهما ، لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون حصرا حقيقيا ، وإما أن يكون حصرا إضافيا .

فإن كان حصرا إضافيا ، فلا يطعن ذلك في تواتر القرآن ، وللعلماء في توجيه هذا الحصر الإضافي أكثر من توجيه ، بعضهما وجيه حسن ، وبعضها متكلف ظاهر .

---

(٢) البيان في مباحث من علوم القرآن للشيخ غزلان : ١٥٥ ، وهدى الساري ٧ / ٤٥٨ .

ونحن هنا نقتصر على ما هو وجيه حسن في نظرنا، فنقول:

(أ) إن أنسا ﷺ حينما ذكر هؤلاء الأربعة، مقارنا بينهم وبين غيرهم، لم تكن مقارنته بلك مقارنة مطلقة، أي بين الأربعة من جهة، وباقي الأمة كلها من جهة أخرى، ولكنها كانت مقارنة محدودة بينهم وبين جماعة معينة، تعلق بهم دهنه لغرض معين، وقت الكلام، ولذلك ذكر في أحد الحديثين أبا الدرداء، وفي الآخر أبي بن كعب بدلا منه.

وذلك كما يصر أحد الأشخاص على أن يكون عشاؤه حلوى مثلا، فيقول لا آكل هذه الليلة إلا حلوى، فحصره هنا ليس حقيقيا، بدليل أن الحلوى لو قدمت له ومعها غيرها لأكل من الجميع.

وهذا كما وجه الشافعي رحمه الله الحصر الموجود في قوله تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾.. الآية [1].

حيث كانوا يحرمون ما أحل الله، ويحلون ما حرم الله، فكأن الله قال لهم بهذا الحصر: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلا ما أحللتموه، فهو حصر إضافي، لا حقيقي.

يقول الكرماني: «لعل السامع كان يعتقد أن هؤلاء الأربعة لم يجمعوا، وكان أبو الدرداء ممن جمع، فقال أنس ذلك ردا عليه، وأتى بصيغة الحصر ادعاء ومبالغة، ولا يلزم منه النفي عن غيرهم بطريق الحقيقة، والله أعلم» [2].

ويقول الشيخ محمد علي سلامة: «إن أنسا ﷺ لم يقصد الحصر بالنسبة لجميع الصحابة، بل قصده بالنسبة للحاضرين معه، وقت هذا القول، ويكون قد قال ذلك لغرض من الأغراض الدينية، وقرينه الواقع – وهي أنه لم يستوعب جميع الصحابة – تؤيد ذلك، وعلى هذا فلا تعارض بين الحديثين» [3].

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٤٥

(٢) فتح الباري: ٨/ ٦٧٠

(٣) منهج الفرقان في علوم القرآن: ١/ ١٠٠، مطبعة شبرا ١٩٣٨م.

(ب) وقريب من هذا التوجيه قول ابن كثير : « ولعل مراده لم يجمع القرآن من الأنصار ، ولهذا ذكر الأربعة من الأنصار »[1].

(جـ) وقريب منهما أيضا توجيه ابن حجر ، حيث قال : « إن المراد إثبات ذلك للخزرج دون الأوس فقط ، فلا ينفي ذلك من غير القبيلتين ، من المهاجرين ، ومن جاء بعدهم »[2].

وقد استند ابن حجر في توجيهه هذا إلى رواية لابن جرير الطبري عن قتادة عن أنس حيث جاء فيها : « افتخر الحيان الأوس والخزرج ، فقال الأوس : منا أربعة ، من اهتز له العرش سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين ، خزيمة بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة حنظلة بن أبي عامر ، ومن حمته الدبر[3] ، عاصم ابن ثابت ، فقال الخزرج : ما أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم » .

لكن هذا الحديث الذي استند إليه ابن حجر ، ومن تابعه من المؤلفين حديثا قد يدل على أن مراد أنس من الحصر الحقيقي ، وليس الإضافي ، حيث جاء في هذا الحديث عبارة (لم يجمعه غيرهم) هكذا على الإطلاق . إلا أن يوجه المعنى بأنه أراد لم يجمعه غيرهم منكم يا معشر الأوس .

(د) وقد يوجه هذا الحصر الإضافي بأن المراد : أنه يجمعه على جميع قراءاته ووجوهه ، إلى هؤلاء الأربعة ، فلا ينافى أن يكون غيرهم قد جمعوه كله ، ولكن على بعض الأوجه والقراءات .

(هـ) وقد يكون مقصود أنس بالجمع : الجمع كتابة ، أي أنهم جمعوه كتابة ، وحفظا عن ظهر قلب ، فلا ينافي أن يكون غيرهم قد جمعه حفظا فقط ، إذ المعول عليه هو الجمع حفظا ، لا الجمع كتابة .

---

(١) فضائل القرآن : ٢٨

(٢) فتح الباري : ٨/٦٦٩ .

(٣) الدبر : جماعة النحل .

قال ابن الجزري : « ثم أن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على حفظ المصاحف والكتب » [1].

وقال القسطلاني في لطائف الإشارات : « الاعتماد على الحفظ لا على مجرد الخط » [2].

(و) وقد يكون مرد أنس : أنه لم يأخذ كل القرآن من فمه ﷺ مباشرة ، إلا هؤلاء الأربعة ، حيث كان الأخذ من الفم الشريف اعتزازا عظيما لهم ، وشرفا جليلا ، يتباهون به فيما بينهم .

يقول عبد الله بن مسعود فيما يرويه البخاري عنه : « والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة » [3] قال القاضي أبو بكر بن الطيب : « يحتمل أنه لم يجمع القرآن ، وأخذه تلقينا من في رسول الله ﷺ ، غير تلك الجماعة ، فإن أكثرهم أخذ بعضه عنه ، وبعضه عن غيره » [4].

٦ – أما لو ذهبنا مع حديث الحصر في أربعة ، إلى أبعد مدى ، وقلنا إن مراد أنس هو الحصر الحقيقي ، فإن ذلك أيضا لا يترتب عليه الطعن في تواتر القرآن لما يلي :

أولا : لأن هذا كان من اعتقاد أنس ، المخالف للواقع ، الذي يرد عليه اعتقاده هذا ، بدليل تلك الروايات الكثيرة ، الدالة على أن الواقع كان مليئا بكثرة الحفاظ ، تلك الروايات التي يعقب عليها القاضي أبو بكر بقوله : « ومن تأمل مجيء هذه الأخبار وألفاظها ، علم وتيقن أن أمر القرآن كان بينهم ظاهرا منتشرا وأن حفاظه إذ ذاك كانوا في الأمة عددا عظيما ، وخلقا كثيرا » [5].

ويصفها بدر العيني أيضا بقوله : « وقد ظهر من هذا أن الذين جمعوا القرآن على

(١) النشر : ٦ .

(٢) لطائف الاشارات : ٦٤ .

(٣) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي .

(٤) تفسير القرطبي : ٦٣ .

(٥) عن المرشد الوجيز : ٦٣ .

عهده ﷺ لا يحصيهم أحد ، ولا يضبطهم عدد »[1] .

وإذا كان هذا من اعتقاد أنس . وهو اعتقاد مخالف للواقع فالواجب ترك قوله ، والأخذ بما هو واقع في نفس الأمر .

ثانيا : ومما يدل على أن هذا من اعتقاد أنس نفسه ، وعلى حسب ما وقع في علمه هو ، أنه ما قابل جميع الصحابة فردا فردا وسألهم عن جمعهم للقرآن ، وأخبره كل فرد بأنه لم يجمعه .

لم يفعل ذلك أنس ، بل لم يكن ذلك في مقدوره ، لكثرة الصحابة ، من ناحية ، ولتفوقهم في القرى والأمصار من ناحية أخرى .

قال المازري فيما ينقله عنه ابن حجر :

« لا يلزم من قول أنس (لم يجمعه غيرهم) أن يكون الواقع في نفس الأمر كذلك ، لأن التقدير أنه لا يعلم أن سواهم جمعه ، وإلا فكيف الإحاطة بذلك مع كثرة الصحابة ، وتفرقهم في البلاد ، وهذا لا يتم إلا أن كان لقي كل واحد منهم على انفراده ، وأخبره عن نفسه أنه لم يكمل له جمع القرآن في عهد النبي ﷺ ، وهذا في غاية البعد في العادة ، وإذا كان المرجع إلى ما في علمه لم يلزم أن يكون الواقع كذلك »[2] .

ويقول الشيخ غزلان مقررا هذا المعنى ، ومؤكدا له :

« على أن أنسا قد يكون مراده من حصر جمع القرآن في هؤلاء الأربعة ، أن ذلك بالنظر إلى علمه ، لا بالنظر إلى الواقع ، أي أنه لا يعلم أن أحدا سوى هؤلاء الأربعة جمعه ، وعلى فرض أنه يريد الحصر في الواقع فقد يكون مخطئا في اعتقاده »[3] .

ثالثا : لو قلنا إن المراد بالحصر في أربعة فقط الحصر الحقيقي ، فإن هذا أيضا لا يخل بتواتر القرآن .

---

(١) عمدة القارئ : ١٦/٢٠٩

(٢) فتح الباري : ٨/٦٦٩

(٣) البيان في مباحث علوم القرآن : ١٥٣ .

لأنه لا يشترط في تواتره أن يحفظ من أوله إلى آخره عدد يحصل به التواتر، بل لو حفظ كل سورة منه أو جزءا منها عدد يحصل به التواتر لكفى، حتى لو لم يحفظ هذا العدد غير تلك السورة، وغير ذلك الجزء.

يقول القاضي أبو بكر: - كما جاء في عمدة القارئ -: «ليس من شروط التواتر أن ينقل جميعهم جميعه، بل لو حفظ كل جزء منه عدد التواتر لصار الجميع متواترا، وقد حفظ جميع أجزائه مئون لا يحصون»(1).

ويؤكد المازري هذا المعنى، فيقول كما جاء في فتح الباري:

«ليس من شروط التواتر أن يحفظ كل فرد جميعه، بل إذا حفظ الكل الكل، ولو على التوزيع كفى»(2).

وبهذا السهم القاتل لهذه الشبهة يسدد الإمام النووي في نحرها فيقول: «لو ثبت أنه لم يجمعه إلا أربعة لم يقدح في تواتره، فإن أجزاءه حفظ كل جزء منها خلائق لا يحصون، يحصل التواتر ببعضهم، وليس من شرط التواتر أن ينقل جميعهم جميعه، بل إذا نقل كل جزء عدد التواتر صارت الجملة متواترة بلا شك، ولم يخالف في هذا مسلم ولا ملحد»(3).

وعلى هذا يتبين أن الحصر الموجود في حديث أنس سواء أكان حصرا حقيقيا أم إضافيا لا يدل على عدم تواتر القرآن الكريم في عهده ﷺ.

(حديث أنس خاص بالعهد النبوي)

٦- ثم أن حديث أنس كما هو ظاهر، لا يعدو العهد النبوي المبارك فإن الآلاف المؤلفة من الصحابة قد أكملوا ما لم يكمل حفظه في حياته ﷺ، ولكن لم ينقل إلينا أسماءهم لعدم اتصال أسانيدهم بنا.

---

(١) عمدة القارئ: ١٦/ ٢٠٩.
(٢) فتح الباري: ٨/ ٦٦٩.
(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ك١٦/ ٣٠.

٧- قال الحافظ الذهبي فيما ينقله عنه الزركشي من كتاب (معرفة القراء) له : « وأما من جمعه منهم ، ولم يتصل بنا فكثير » [١]

وحينما انتشر الإسلام بعد العهد النبوي المبارك ، بفتح البلدان ، واستبحار العمران ، ودخول الأقطار الكثيرة تحت لواء القرآن الكريم ، كثر حفاظه كثرة لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، بحيث كان الحفاظ في القطر الواحد يفوق بمراحل العدد الذي يحصل به التواتر ، ولا زال الحفاظ للقرآن يكثرون جيلا بعد جيلا ليتحقق للقرآن التواتر في كل زمان ، تحقيقا لوعد الله عز وجل « إنا نحن أنزلنا الذكر وأنا له لحافظون » [٢] .

---

(١) البرهان : ١ / ٢٤٢ .

(٢) سورة الحجز : آية ٩ .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

الفصل الرابع

جمع الصحابة القرآن كتابة

في العهد البكري

جمع الصحابة القرآن كتابة في العهد البكري

وكما جمع صحابة رسول الله ﷺ القرآن حفظا ، جمعوه كتابة ، بدليل قوله ﷺ : « لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه » (١)

وكان النهي عن كتابة غير القرآن في أول الأمر ، حتى لا يلتبس بالقرآن .

فهذا الحديث ينص صراحة على أنهم كانوا يجمعون القرآن كتابة ، وقد عرف ذلك عنهم واشتهر ، ولم يخف على من له أدنى اطلاع على الثقافة القرآنية ، ولو كان غير مسلم ، وكان لبعضهم مصاحف خاصة ، اشتهر ذكرها في الأوساط القرآنية .

ونحن حينما نتعرض لجمعهم ﷺ ، فإننا لا نتحدث عن الجمع الفردي لكل منهم ، حيث لم يأخذ هذا الجمع الفردي صفة الإجماع من الأمة كلها ، فربما كان في مصاحف بعضهم ما هو منسوخ التلاوة ، وتركه لعدم علمه بالنسخ ، وربما كان فيها بعض العبارات التفسيرية ، وربما فات صاحبها ـ لظروف خاصة ـ كتابة بعض الآيات ، ولذلك فإن هذه المصاحف الخاصة لم تأخذ صفة الإجماع من الأمة ، كما لم تكتسب صفة التواتر .

وإنما الذي يعنينا في هذا المقام جمعان أخذا صفة الإجماع ، من كل الأمة ، كما كان لهما عظيم الأثر في تاريخها ، حيث حفظ الله بهما كتابة من الضياع ، وأمة الإسلام ، من الاختلاف فيه اختلاف اليهود والنصارى في كتابهم ، بعد أن كانت قاب قوسين أو أدنى منه .

هذان الجمعان حدثا في عهدي الخليفتين الراشدين ، أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان رضي الله عنهما .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد ، باب (٧٢)

جمع أبي بكر :

في العام العاشر الهجري انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق العلى ، بعد أن أدى مهمته في الوجود ، من تبليغ رسالة ربه إلى الأمة ، وتركها دولة فتية ، قد وطدت أقدامها في الأرض أيما توطيد ، ورفعت هامتها بين كل الأمم حتى صارت أعلاها وأشرفها وأقواها .

وإذا بقدر الله عز وجل لهذه الأمة الرشيدة أن يلي أمرها خير من طلعت عليه الشمس بعد العهد النبوي ، فيتولى قيادتها أبو بكر الصديق ﷺ وأرضاه ، فيسير السفينة كما سيرها صاحبه ونبيه من قبل ، وبينما هو مشغول بقيادة السفينة تلك ، اذا بفتنة داخلية تنفتح عليه من داخل الجزيرة ، بعد أن بدأ السير خارجها ، وكانت المهمة في داخل أصعب وأقسى منها في الخارج ، ذلك أن عدو الأمة إذا كان من داخلها ، كان أمكر وأخطر ممن هو خارج عنها .

فلقد ارتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ أناس كثيرون ،حيث تجمعوا حول كذاب أشر ، وهو مسيلمة الكذاب ، الذي ادعى النبوة .

والعجيب أن أولئك المرتدين كانوا على بينة من كذب هذا الأفاك ، خاصة بعد أن بين لهم الرسول ﷺ كذبه ، حال حياته .

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما :

« عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم مسيلمة الكذاب ، على رسول الله ﷺ ، فجعل يقول : (إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته) ، وقدمها في بشر كثير من قومه ، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس ، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد ، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال : (لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ، ولن تعدو أمر الله فيك ، ولئن أدبرت ليعقرنك الله ، وإني لأراك الذي أريت فيه ما رأيت ، وهذا ثابت يجيبك عني ، ثم انصرف عنه » [١] .

ويري البخاري بعد هذا الحديث مباشرة عن ابن عباس ، فيقول : قال ابن عباس :

---

(١) أخرجه البخاري في كتابه المغازي ، باب وفد بني حنيفة .

« فسألت عن قول رسول الله ﷺ وإني لأراك الذي رأيت فيه ما رأيت ، فأخبرني أبو هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : « بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب ، فأهمني شأنها فأوحى إلي في المنام أن انفخهما ، فنفختهما فطارا ، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي ، أحدهما العنسي ، صاحب صنعاء ، والآخر مسيلمة ، صاحب اليمامة » [1].

ويستمر الكذاب الأشر في ادعائه النبوة وبنو حنيفة مجتمعون حوله رغم يقينهم الجازم بكذبه ، إلى أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، فيظن هذا الكذاب أن الفرصة قد هيئت له من أوسع الأبواب ، فيعلن هو وبنو حنيفة التمرد على خليفة رسول الله ﷺ ، والانصياع تحت لوائه ، فلا يتردد الخليفة الراشد في إعلانها حربا شرسة ، على هذا الأفاك ومن تبعه ، رغم كثرة عددهم ، وقوة عتادهم .

ويصور لنا الحافظ ابن كثير جانبا من هذه المعركة ، التي كان خالد بن الوليد قائدها ، فيقول : « وقاتلت بنو حنيفة قتالا لم يعهد مثله ، وجعلت الصحابة يتواصون بينهم ، ويقولون : يا أصحاب سورة البقرة ، بطل السحر اليوم ، وحفر ثابت بن قيس لقدميه في الأرض ، إلى أنصاف ساقيه ، وهو حامل لواء الأنصار ، بعدما تحنط وتكفن ، فلم يزل ثابتا ، حتى قتل هناك ، وقال المهاجرون لسالم مولى أبي حذيفة : نخشى أن نؤتى من قبلك ، فقال : بئس حامل القرآن أنا إذا ، وقال زيد بن الخطاب : أيها الناس : عضوا على أضراسكم ، واضربوا في عدوكم ، وامضوا قدما ، وقال : والله لا أتكلم اليوم حتى يهزمهم الله ، أو ألقى الله ، فأكلمه بحجتي ، فقتل شهيدا ﷺ ، وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن : زينوا القرآن بالفعال . . . إلخ » [2].

ورغم أن المعركة قد انتهت بانتصار المسلمين ، والقضاء على شوكة المرتدين بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك ، إلا أن المسلمين قد فقدوا في هذه المعركة ، عددا كبيرا من نوعية خاصة ، هي أعظم نوعية على الإطلاق ، حيث كانوا من حفاظ القرآن الكريم .

---

(١) البخاري : كتاب المغازي ، باب : وفد بني حنيفة ومسلم : رؤيا (٢١) .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

ولقد حزن عليهم المسلمون حزنا شديدا ، خاصة عمر بن الخطاب ، الذي نظر إلى فقدهم نظرة خاصة ، فلم يحزنه فقدهم ، بقدر ما أحزنه ، غياب قلوبهم الحافظة لقرآن الله عن الوجود .

فماذا سيكون أمر هذا القرآن في المستقبل بعد انتهاء كل معركة ، وفقد عدد من القراء فيها ، لاسيما وأن المسلمين مأمورون بحمل هذا الإسلام ، وتبليغه إلى كافة الدنيا ، التي يسيطر على شعوبها الطغاة والمستبدون ، والذين لابد لهم من اصطدام هائل ، مع أهل الإسلام أهل النور ، حتى لا ينشر هذا النور ، فيستمر لهم الظلام ، الذي لولاه ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، من الزعامة الظالمة ، والثراء الفاحش واستعباد الخلق وتطويعهم لما يحبون ؟

نظر عمر خطورة الموقف على القراء ، إذا استمر هذا القتل فيهم ، دون أن يكون هناك مكتوب للمسلمين إليه يرجعون ، وفيه ، ومنه يقرءون ، ويعلمون ، فما كان منه إلا أن أبى أبا بكر ، ودار بينهما هذا الحديث ، الذي رواه البخاري وغيره :

« عن ابن شهاب عن عبيد بن السباق : « أن زيد بن ثابت ﷺ قال : أرسل إلي أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر ابن الخطاب عنده ، قال أبوبكر ﷺ : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن استحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن ، قلت لعمر : كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال عمر : هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر ، قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه ، فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلون شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال : هو والله خير ، لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ، وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ حتى خاتمة براءة ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر ﷺ »[1]

كما أخرج البخاري عن ابن شهاب أيضا من طريق خارجه بن زيد بن ثابت أنه سمع زيد بن ثابت قال : « فقدت آية من الأحزاب ، حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ، ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ فألحقناها في سورتها في المصحف »[2]

وأخرج ابن أبي الدرداء في كتاب المصاحف ص ١٢ عن عروة عن أبيه قال : « لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرق أبو بكر على القرآن أن يضيع ، فقال لعمر بن الخطاب ، ولزيد بن ثابت أقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » .

ونستطيع أن نستنتج من قصة معركة اليمامة ، ومن أحاديث جمع القرآن ، عدة أمور مهمة ، نذكر بعضا منها :

أولا : كثرة حفاظ القرآن الكريم من الصحابة :

هناك الكثرة التي تثبت للقرآن تواتره من قريب ، والتي استشهدنا في تزييف ادعاء المستشرقين ، بعدم توات القرآن في العهد النبوي ، مستندين بقول أنس : (لم يجمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ إلا) .

في هذه المعركة كان حفظ القرآن شعارهم ، الذي كانوا يتنادون به ، حيث كانوا يشجعون أنفسهم أمام شدة بأس عدوهم ، بعبارات تدل على حفظهم للقرآن . مثل قولهم : (يا أصحاب سورة البقرة) ، ومثل قول سالم مولى أبي حذيفة : (بئس حامل القرآن إنا إذاً) ، ومثل قول أبي حذيفة : (يا أهل القرآن : زينوا القرآن بالفعال) .

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن

(٢) نفس الموضع السابق

ولقد بلغت كثرة الشهداء من قراء القرآن في هذه المعركة ما هال عمر بن الخطاب خشية تكرارها فيما يستقبله المسلمون من معارك قادمة .

ثانياً : الباعث على جمع القرآن الكريم كتابة في مصحف واحد :

فقد دلت أحاديث الجمع على أن الدافع لهذا الجمع هو خوف المسلمين من ضياع شئ من القرآن باستشهاد حفاظه أو موتهم ، فكتابته مجموعا في مصحف واحد فيه زيادة أمان ، مما قد يحدث في مستقبل الزمان ، ولذلك عد هذا العمل من أجل الأعمال التي نفذها الخليفة أبو بكر في مدة خلافته .

يقول الدكتور عبد الصبور شاهين : « كان قرار أبي بكر - فيما نرى - هو أخطر قرار أتخذه في حياته ، وأعظم الخطوات التي تمت في تاريخ هذه الأمة ، لأنه حل أساساً مشكلة أصولية ، ترتب على حلها سلامة النص القرآني من التحريف ، وهو الأساس الذي انطلقت منه الحضارة الإسلامية في التاريخ ، مطمئنة إلى دستورها المنزل المحفوظ، وهو أيضا القاعدة التي اتخذت مقياسا لكل إصلاح لرسم المصحف ، أو كتابته فيما بعد ولذلك قال علي ﷺ ، فيما حدث به سفيان عن السدي عن عبد خير ، قال : سمعت عليا يقول : « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع القرآن بين اللوحين » [١] .

ثالثا : كما تدلنا هذه الأحاديث على أول من ألهمه الله فكرة الجمع وهو سيدنا عمر بن الخطاب ، وهذا الإلهام في هذا الموقف الخطير في تاريخ القرآن ليس بغريب عليه ، ولا علينا تجاهه .

(أ) فهو الذي قال عنه الرسول ﷺ ، فيما رواه البخاري : « لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر » [٢] .

---

(1) تاريخ القرآن ، للدكتور عبد الصبور شاهين ، فصل جمع القرآن ، ط دار القلم ، ١٩٦٦ ، والأثر الذي نقله عن علي أخرجه ابن أبي داود في كتاب المصاحف ، ص : ٥ .
(٢) البخاري : كتاب فضائل الصحابة ، باب مناقب عمر .

(ب) وهو الذي خاطبه الرسول ﷺ بقوله : « والذي نفسي بيده ، ما لقيت الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك غير فجك » [1] .

(جـ) وهو الذي قال عنه ابنه عبد الله : « ما ظن عمر شيئا إلا كان كما ظن » .

(د) وهو الذي تحدث بنعمة ربه هذه عليه فيما رواه البخاري وغيره ، عن أنس قال : « قال عمر : وافقت الله في ثلاث ، أو وافقني ربي في ثلاث – قلت يا رسول الله: لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى .

وقلت : يا رسول الله ، يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه ، فدخلت عليهن ، قلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيرا منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه ، قالت : يا عمر : أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات » [2] الآية .

رابعا : كما يتبين من الروايات السابقة أن أبا بكر الصديق ﷺ كان أول من جمع القرآن الكريم ، بناء على اقتراح عمر .

فلم يعرف قبل جمع أبي بكر جمع مثله ، توافر له من الصفات والمزايا التي سنتحدث عنها قريبا إن شاء الله تعالى ، والتي اكتسبت صفة الإجماع من الأمة كلها .

أخرج صاحب المقنع عن عبد خير قال : « أول من جمع القرآن بين اللوحين أبو بكر ﷺ » [3]

أما ما رواه ابن أبي داود في المصاحف ، من طريق محمد بن سيرين حيث قال : لما توفي النبي ﷺ أقسم علي ﷺ أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة ، حتى يجمع القرآن في مصحف واحد ففعل » [4] فقد قال عنه الحافظ ابن حجر : « إسناده ضعيف ، لانقطاعه » [1] .

---

(١) نفس الموضع السابق

(٢) البخاري : كتاب التفسير ، تفسير سورة البقرة .

(٣) المقنع لأبي عمرو الداني : ١٣ .

(٤) المصاحف : ١٠ .

ومما يقوي هذا الأثر ما ذكرناه سابقا من قول علي نفسه فيما رواه ابن أبي داود أيضا : « رحمة الله على أبي بكر ، كان أعظم الناس أجرا في المصاحف ، وهو أول من جمع بين اللوحين » .

قال عنه الحافظ ابن كثير : « هذا إسناد صحيح » [2] ، وقال عنه الحافظ ابن حجر : « إسناده حسن » [3] .

أما ما جاء في إحدى الروايات ، التي تنص على أن عمر هو أول من جمع فإنه مؤول بأن عمر كان أول من خطر بباله ذلك ، وأشار على الخليفة أبي بكر به ، فحقق له أمنيته .

خامسا : تعطينا هذه المداولة التي حدثت بين عمر وأبي بكر أولا ، ثم بين أبي بكر وزيد ثانيا ، صورة واضحة لإشراك ولي الأمر أفراد الأمة معه فيما يهم تلك الأمة ، بل والنزول على رأي أحدهم ، ما دام صلاح الحال يقتضي ذلك . لقد ظن أبو بكر أن جمع القرآن كله في مصحف واحد بدعة في الدين ، فخاف أن يحدث فيه ما لم يحدثه رسول الله ﷺ ، فكيف يفعله وهو الوقاف على حدود الله تعالى ، ولذلك قال : (كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ . ؟

ولكن عمر بن الخطاب أخذ يقنعه بصواب الفكرة ، وسداد الرأي ، إذ كيف يكون الحفاظ على القرآن بدعة ؟ وكيف تكون الوسيلة لذلك أمرا محدثا في الدين ؟ والله لهو عين الحق اليقين ، بل هو الذي فعله الرسول ﷺ تماما ، إلا أن ما فعله عليه الصلاة والسلام كان مفرقا ، ولكن الذي سيفعلونه سيكون في مكان واحد .

قال المحاسبي في كتابه فهم السنن :

« كتابة القرآن ليست محدثة ، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقا في الرقاع

---

(١) فتح الباري : ٨/٦٢٩ .

(٢) فضائل القرآن : ٨ .

(٣) فتح الباري : ٨/٦٢٩ .

والأكتاف والعسب ، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان ، وكان ذلك بمنزلة أوراق ، وجدت في بيت رسول الله ﷺ ، فيها القرآن منتشر ، فجمعها جامع ، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء »[1].

فلما اقتنع أبو بكر بصواب الفكرة ، وخيريتها ، وبوجوب فعل الخير . كما قال تعالى : ﴿ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

لما اقتنع بذلك لم يتردد لحظة في الإقدام على الجمع ، وأمر به .

ولذلك قال : « فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك » .

وبنفس الاقتناع قال زيد في آخر الأمر : « لم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما » .

قال ابن بطال فيما ينقله عنه ابن حجر : « إنما نفر أبو بكر أولا ، ثم زيد بن ثابت ثانيا ، لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله ، فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ، فلما نبههما عمر على فائدة ذلك ، وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الشهرة ، رجعا إليه .

قال : ودل ذلك على أن فعل الرسول ﷺ إذا تجرد عن القرائن ، وكذا تركه ، لا يدل على وجوب ، ولا تحريم »[3].

زاد ابن حجر على ذلك فقال : « وليس ذلك من الزيادة على احتياط الرسول ، بل هو مستمد من القواعد التي مهدها الرسول ﷺ »[4].

وقال الباقلاني : « كان الذي فعله أبو بكر من ذلك فرض كفاية ، بدلالة قوله ﷺ :

---

(١) البرهان : ١/ ٢٣٨

(٢) سورة الحج : آية ٧٧

(٣) فتح الباري : ٨/ ٦٣٠

(٤) الموضع السابق .

« لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن » [1].

مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴾ [3] ، وقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [4].

قال : فكل أمر يرجع لإحصائه وحفظه فهو واجب على الكفاية ، وكان ذلك من النصيحة لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم .

قال : وقد فهم عمر أن ترك النبي ﷺ جمعه ، لا دلالة فيه على المنع ، ورجع إليه أبو بكر لما رأي وجه الإصابة في ذلك ، وأنه ليس في المنقول ولا في المعقول ما ينافيه ، وما يترتب على ترك جمعه من ضياع بعضه ، ثم تابعهما زيد بن ثابت وسائر الصحابة على تصويب ذلك » [5].

سادسا : يؤخذ من أحاديث جمع القرآن ، أن أبا بكر ﷺ ، لم يختر أي شخص لهذا الجمع ، وإنما اختار شخصا معينا ، توافرت فيه أعظم الصفات ، التي يتطلبها مثل هذا العمل الضخم ، والخطير ، والعظيم ، فاختار زيد بن ثابت بالذات ، لتوافر هذه الصفات مجتمعة ، وعلى أقوى ما تكون درجتها ، وهذه الصفات هي :

١ - الشباب والقوة ، والصحة والفتوة .

فالمهمة التي أسندت إله تحتاج إلى صبر وجلد ، وتحمل وطاقة ، والهزيل لمثل هذا لا يصلح ، كما أن شبابه هذا يجعله قابلا للحوار والمناقشة ، فلا يتعصب لرأيه ، ولو كان باطلا ، كما هي عادة كثير من كبار السن .

يقول محمد حسن هيكل : « ولعل أبا بكر قد اختار زيدا ، وآثره على غيره من أصحاب رسول الله ﷺ ، لأنه شاب ، فهو أقدر على العمل منهم ، وهو لشبابه أقل

(١) سبق تخريجه

(٢) سورة القيامة : آية ١٧

(٣) سورة الأعلى : آية ١٨

(٤) سورة البينة : آية ٢ ، ٣

(٥) فتح الباري : ٨/ ٦٣٠

تعصبا لرأيه ، واعتزازا بعلمه ، وذلك يدعوه إلى الاستماع لكبار الصحابة ، من القراء والحفاظ ، والتدقيق في الجمع ، دون إيثار لما حفظه هو »[1].

٢ – العقل الراجح ، والذكاء المتقد ، فالرسالة التي كلف بها إن لم يتصف القائم بها بذلك ، لحدث فيها خلل ، واعتراها النقص ، وشابها الارتياب .

ويدل على رجاحة عقله مناقشته لأبي بكر في هذا الجمع ، وتردده في قبوله أول الأمر ، فلم يقبله إلا بعد مناقشة واقتناع ، وليس عن ضغط وإفزاع ، ولم يفعل ما فعل إلا عن دليل وحسن اختيار ، لا عن تقليد وضغط وإضرار .

كما يدل على ذكائه المتقد ما أخرجه الترمذي ، وأبو داود واللفظ له عن زيد بن ثابت قال : « أمرني رسول الله ﷺ ، فتعلمت له كتاب يهود - وفي رواية للترمذي : أن أتعلم السريانية - وقال : « إني والله ما آمن يهود على كتابي » فتعلمته ، فلم يمر بي إلا نصف شهر حتى حذقته ، فكنت أكتب له إذا كتب ، وأقرأ له إذا كتب إليه »[2].

ويشهد لتوافر هاتين الصفتين - الشباب والعقل - في زيد ، قول أبي بكر له : « إنك رجل شاب عاقل » .

٣ – الأمانة الكاملة ، التي يقتضيها كتاب الله تعالى ، بحيث لا يكون هناك أدنى مجال لارتياب مرتاب ، أو لتشكيك مشكك .

وقد شهد أبو بكر لأمانته ، وهو يحثه على هذا الجمع قائلا : « لا نتهمك » وقد استشعر هو خطورتها وضخامتها ، حيث قال : « فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن » .

وعن تقدير زيد نفسه لأمانة وخطورة وضخامة ما كلف به يقول الأستاذ محمد حسين هيكل : « وكيف لا يشعر بجسامة التبعة ، وهو يعلم أن أبا بكر يحفظ القرآن ،

---

(١) الصديق أبو بكر ٣٢١

(٢) الترمذي : كتاب الاستئذان ، باب ما جاء ف تعليم السريانية ، وأبو داود في كتاب العلم ، باب رواية حديث أهل الكتاب .

وعمر يحفظه ، وعلي يحفظه ، وعثمان يحفظه ، وكبار الصحابة يحفظونه ، أو يحفظون منه أجزاء كثيرة ، بل إن أربعة قد تلقوا القرآن ، عن رسول الله ﷺ وكتبوه مرتب الآيات في السور ، وكتب غيرهم ومنهم عبد الله بن مسعود مصاحف بعضها كامل وبعضها غير كامل ، وهؤلاء جميعا رقباء عليه يحاسبونه أدق الحساب ، والرقابة الكبرى ـ رقابة صاحب القرآن ، من أوحاه إلى رسوله ـ أعظم من كل رقابة ، وهي التي جعلت زيدا يشعر بأن نقل جبل من الجبال أيسر مما كلفه الخليفة إياه .

وإيمان زيد بن ثابت بأن الله رقيب عليه في جميع كلامه جل شأنه هو الذي سما به ليقدر ما لهذا الأمر من جلال ، وليبذل فيه كل جهد ، ويستهين بكل مشقة ، وألا يدخر وسعا ، في جمع كل ما سطر القرآن فيه من الرقاع والأكتاف واللخاف والعسب ، ومن صدور الرجال ، وفي موازنة ذلك كله بعضه ببعض ، وموازنته بما حفظ هو ، عن رسول الله ﷺ ، في السنة الأخيرة من حياته والوصول من الجمع إلى الغاية التي يبتغيها خليفة رسول الله ، والتي ترضى الله ورسوله .

بذلك صار هذا المصحف المجموع إماما ، استراح إليه المسلمون » (١) .

٤ – ومن الصفات التي رجحت كفة زيد في جمع القرآن : التجربة العملية ، والممارسة الميدانية ، التي باشرها زيد في هذا المجال من قبل . فلم يكن زيد غريبا عن هذا المجال ، أو دخيلا على هذا الميدان ، فلقد باشره عمليا بأمر وأمام من نزل عليه القرآن ﷺ ، عقب نزول جبريل عليه السلام بكل آية من القرآن .

ولذلك حثه أبو بكر على قبول هذا التكليف بقوله : « كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ » .

قال أبو شامة : « قال أبو عبد الرحمن السلمي : قرأ زيد بن ثابت على رسول الله ﷺ ، في العام الذي توفاه الله فيه مرتين ، وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت : لأنه كتبها لرسول الله ﷺ ، وقرأها عليه وشهد العرضة الأخيرة ، وكان يقرئ الناس

---

(١) الصديق أبو بكر ٣٦١ ، ط النهضة

بها حتى مات ، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه ، وولاه عثمان كتب المصاحف ﷺ أجمعين »[1] .

ويعلق ابن حجر على قول أبي بكر لزيد رضي الله عنهما « إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ بقوله : « ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك ، كونه شابا ، فيكون أنشط لما يطلب منه ، وكونه عاقلا ، فيكون أوعى له ، وكونه لا يتهم ، فتركن النفس إليه ، وكونه كان يكتب الوحي ، فيكون أكثر ممارسة له ، وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره ، لكن مفرقة »[2] .

وهكذا تبدو دقة اختيار أبي بكر لمن يجمع كتاب الله عز وجل .

سابعا : كما يؤخذ من أحاديث الجمع أيضا أن زيد بن ثابت وإن كان قد تولى الجهد الأكبر في هذا الجمع ، إلا أنه لم يتفرد به ، بل شاركه فيه جميع أفراد الأمة ، ابتداء من خليفتها ، وانتهاء بكل من كان معه أي شيء من القرآن ، ولو كان آية واحدة ، كما حدث حينما افتقدوا كتابة آية واحدة من سورة الأحزاب .

قال ابن حجر : « ووقع في رواية سفيان بن عيينة : « فقال أبو بكر : إما إذا عزمت على هذا فأرسل إلى زيد بن ثابت فادعه ، فإنه كان شابا حدثا تقيا ، يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فأرسل إليه ، فادعه حتى يجمعه معنا »[3] .

فقوله « حتى يجمعه معنا » دليل على عدم انفراده بهذا الجمع بل هو مشارك فيه مع جميع الأمة ، وإن كان قد ألقي علي عاتقه العبء الأكبر .

وأخرج أبو سهل الأنماري بإسناده أن أبا بكر قال لزيد : « وسنجعل معك رجلا ، إبان بن سعيد بن العاص ، الأموي الأكبر فإنه فتى من قريش فصيح ، إلى أن قال

---

(١) المرشد الوجيز ٦٩

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٣٠

(٣) فتح الباري ٨/ ٦٣٠

أبو بكر : فإن أشكل عليكما شيء فارفعاه إلي ، لأكون معكما فيه »[1].

كما أخرج ابن أبي داود بإسناده عن أبي العالية ، أنه قال : « إنهم جمعوا القرآن في مصحف ، في خلافة أبي بكر ، فكان رجال يكتبون ، ويملي عليهم أبي بن كعب » .

فهذه الأحاديث والآثار وغيرها تدل على أن زيدا لم ينفرد بجمع هذا القرآن ، لأنه عمل لا يقوم به فرد ، بل ولا جماعة ، وإنما يحتاج إلى تكاتف الأمة كلها ، وتفريغ الأوقات من الحفاظ والمتقنين ، وكل من يستطيع أية مساهمة في ذلك ، وبالفعل فعلوا ، وبالنية أخلصوا ، وبتوفيق الله عز وجل تم لهم ما أرادوا ، بل ما أراد الله لكتابه ، من الحفظ في الصدور ، والخلود في السطور .

كيف جمع زيد القرآن ؟

حينما اقتنع الخليفة الأول أبو بكر ، بما رآه عمر ، واقتنع زيد أيضا بذلك ، أمر الخليفة كلا من زيد وعمر بضرورة كتابة القرآن ، على أدق الأوجه ، وعلى أسلم أصول البحث والتحري .

فمع أن كلا من هؤلاء الثلاثة كان يحفظ القرآن كله ، ومع أن كلا منهم كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، إلا أنهم رأوا أن يشركوا الأمة معهم في هذا العمل الجليل الخطير .

فلم يكتف هؤلاء الثلاثة بما حفظوه في صدورهم ، بل : ولا بما تحفظه صدور الأمة كلها ، ولو أرادوا جمعه من الصدور فقط فما كان أيسرها من مهمة ، فقد كان في مكنة واحد منهم فقط القيام بذلك ، وليسو بحاجة إلى مئات الحفاظ الذي لا يحصون .

ولم يكتفوا بما هو مدون فقط ، حتى ولو كانوا هم الذين دونوه بأيديهم أمام الرسول ﷺ ، بل رأوا ـ مبالغة في إكرام كتاب الله تعلى ـ أن يتبعوا أفضل وأعلى طرق التثبت والاحتياط ، وذلك بأن يعتمدوا على المصدرين معا ، أي على المحفوظ في الصدور ، والمكتوب في السطور ! !

(١) مقدمتان في علوم القرآن ٢١

دليل اعتمادهم على المصدرين معا

ولقد تضافرت الأدلة في ذلك وتعددت فمنها :

١ – ما صرح به زيد نفسه ، حينما قال : « فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ، وصدور الرجال » .

فقوله « من العسب واللخاف » دليل على المكتوب ، وقوله « وصدور الرجال » دليل على المحفوظ .

٢ – قال السيوطي وهو يتحدث عن جمع أبي بكر : « وفي مغازي موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال : لما أصيب المسلمون باليمامة فزع أبو بكر ، وخاف أن يذهب من القرآن طائفة ، فأقبل الناس بما كان معهم ، وعندهم ، حتى جمع على عهد أبي بكر في الورق (أي في الجلود الرقاق) فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في المصحف »[١] .

فقوله « فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم » يفيد اشتراك الأمة جميعها في هذا العمل بالمحفوظ والمكتوب ، لأهميته وخطورته .

فأن قوله « فأقبل الناس » يدل على اشتراك الأمة كلها ، وقوله « بما كان معهم » يدل على إتيانهم بالمحفوظ ، وقوله « وعندهم » يدل على إتيانهم بالمكتوب .

فكان ذلك منهم مبالغة في الدقة والاحتياط ، وزيادة في التوثيق للقرآن ، حتى ينزهوه عن أدنى ارتياب .

مبالغة على مبالغة

وإمعانا في زيادة المبالغة في إثبات كل ما هو قرآن باق ، وتجريد هذا الجمع من كل ما ليس بقرآن ، أمر الخليفة الأول كلا من زيد بن ثابت وعمر بن الخطاب بالجلوس على المسجد النبوي ، حتى يكونا في مكان علم ، يرده كل مسلم ، وأن يطلبا إلى الناس أن

---

(١) الإتقان ١/ ٥٩

يجيئوا بكل ما معهم وعندهم ، بشرط أن يأتي كل إنسان بشاهدي عدل ، يشهدان على أن ما جاء به إليهما ، قد كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف بإسناده أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : « اقعدا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » .

كما أخرج ابن أبي داود أيضا في المصاحف ، بإسناده عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قام عمر فقال : من كان تلقئ من رسول الله ﷺ شيئا من القرآن فليأتنا به ، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب ، قال : وكان لا يقبل من أحد شيئا حتى يشهد شهيدان » (١) .

فهذان الأثران يدلان على أن زيدا وعمر لم يكتفيا بما سمعته آذانهم من رسول الله ﷺ ، ولا بما كتبت يداهما وقت نزول الوحي ، ولا بما حفظ قلبهما لكنهم أرادوا مشاركة الأمة كلها ، بما معهم من محفوظ في صدورهم ، وبما عندهم من مكتوب في سطورهم ، بل لم يقبلوا هذا المكتوب إلا بعد أن يأتي صاحبه بشاهدي عدل يشهدان بأنه كتب بين يدي الرسول ﷺ .

إنها لدقة ما بعدها دقة ، دقة بلغت القمة ، وسمت إلى الذروة ، وتناهت إلى الغاية التي ما بعدها غاية .

يقول الأستاذ محمد حسين هيكل : « أية طريقة اتبع زيد في الجمع ؟ نستطيع أن نقول في غير تردد » إنه اتبع طريقة التحقيق العلمي المألوفة ، في عصرنا الحاضر .

وقد اتبع هذه الطريقة بدقة دونها كل دقة ، فقد طلب أبو بكر إلى كل من عنده من القرآن شيء مكتوب أن يجيء به إلى زيد وإلى كل من يحفظ القرآن أنْ يدلي إليه بما يحفظه ، واجتمع لزيد من الرقاع والعظام ، وجريد النخل ، ورقيق الحجارة ، وكل ما كتب رسول الله القرآن عليه الشيء الكثير ، عند ذلك جعل يرتبه ، ويوزنه ويستشهد عليه ، ولا يثبت آية إلا إذا اطمأن إلى إثباتها ، كما أوحيت إلى رسول الله .

---

(١) المصاحف لابن أبي داود ١٠ .

إلى أن يقول هيكل : « وقد كانت هذه الدقة في جمع القرآن متصلة بإيمان زيد بالله، جل شأنه، فكل تهاون في أمره، أو إغفال للدقة في جمعه وزر، ما كان أحرص زيداً في حسن إسلامه، وجميل صحبته لرسول الله أن يتنزه عنه.

ولقد شهد المنصفون من المستشرقين جميعا بهذه الدقة، حتى ليقول سير وليم ميور : « والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن، ظل إثنى عشر قرنا كاملا، بنص هذا مبلغ صفائه ودقته »[1].

شبهة معكوسة

إن بعض الحاقدين على الإسلام وقرآنه، قد يلبسون الأمر على بعض الجهلة من أتباع هذا الدين ومغفليهم، من خلال الأثرين اللذين ذكرناهما قريبا، والخاصين بشهادة الشاهدين أمام زيد وعمر على أن المكتوب يأتي به شخص ما قد كتب بين يدي الرسول ﷺ.

قد يلبس هؤلاء الحاقدون الأمر على جهلة المسلمين ومغفليهم ويقولون لهم : كيف يقبل القرآن برواية شخص واحد، ومعه اثنان فقط يؤيدانه، وأنتم تقولون بوجوب تواتر كل آية من آياته ؟

إن الطبقة الأولى التي جاء القرآن من خلالها لا تزيد عن ثلاثة أشخاص.

فالقرآن إذا غير موثوق بصحته، لفقده التواتر، خاصة أن هذا النقدان قد حدث في الحلقة الأولى من حلقات سلسلة تأريخ القرآن.

ونجيب عن هذه الشبهة فنقول :

إن هذه شبهة معكوسة، فقد كان المفروض أن يزيد هذان الأثران من الأدلة التي تثبت للقرآن تواتره وسلامته، لا أن تطعن في تواتره، أو تقدح في سلامته، ويظهر ذلك من عدة أوجه، ولكننا قبل أن تبين هذه الأوجه، نحب أن نذكر كلمة عن درجة هذين الأثرين.

---

(١) الصديق أبو بكر ٣٦٢، ٣٦٣.

١ - لقد حكم العلماء على سند أحدهما بالضعف لانقطاعه [١] . أما الآخر فالله أعلم بمدى صحته أو ضعفه .

ومم هو معلوم لدى الجميع أن القرآن قد نقل جميعه نقلا متواترا ، فلا يجوز لنا أن نرد هذا التواتر بأثر ضعيف منقطع ، أو حتى بأثر صحيح لا يرقى إلى درجة القرب من التواتر ، فلا يرفض ما ثبت باليقين الجازم ، بما لم يصل إلى درجة الثبوت بالظن .

وإذا كنا قد استشهدنا بهما سابقا ، فإنما فعلنا ذلك لا لنثبت قرآنية القرآن بثلاثة أشخاص ، وإنما للاستئناس بهما على مبالغة الصحابة في الدقة والتحري للقرآن .

٢ - ثم أننا لو سلمنا بصحة هذين الأثرين ، بل لو افترضنا تواترهما - وهذا ليس بشبه شبه صحيح على الإطلاق - فإنهما أيضا لا يطعنان في تواتر القرآن ! !

لأن المراد بشهادة ثابتة متواترة ن بحفظ مئات الحفاظ ، فلا حاجة إلى إثبات القرآنية بالمكتوب الذي يأتي به شخص ما ، بل ولا إلى حفظه هو فقط .

وإنما كانت الشهادة على أن هذا المكتوب قد كتب بين يدي النبي ﷺ ، لأن بعض الصحابة كانت لهم مصاحف خاصة ، يكتبونها في بيوتهم ، دون أ ، يتقيدوا بكتابتها أمام الرسول ﷺ .

قال الإمام السخاوي ، وهو يتحدث عن أبي بن كعب ، الذي اشترك مع زيد بن ثابت في جمع القرآن في خلافة أبي بكر :

« أن أبيا رحمه الله إنما كان يتتبع ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ في اللخاف والأكتاف والعسب ونحو ذلك ، لا لأن القرآن العزيز كان معدوما » [٢] .

- ويوضح السخاوي معنى هذين الأثرين فيقول : « والمعنى والله أعلم : من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله ، الذي كتب بين يدي رسول الله ، وإلا فقد كان زيد جامعا للقرآن .

---

(١) انظر فتح الباري ٨ / ٦٣١ .

(٢) جمال القرء للسخاوي ١ /٨٧ ، مكتبة التراث بمكة المكرمة .

ويجوز أن يكون معناه : من جاءكم بشاهدين على شيء من كتاب الله ، أي من الوجوه السبعة ، التي نزل بها القرآن ، ولم يرد على شيء مما لم يقرأ أصلا ، ولم يعلم بوجه آخر »[1] .

ويوضح أبو شامة كلام الإمام السخاوي فيقول : « إنما كان قصدهم أن ينقلوا من عين المكتوب ، بين يدي النبي ﷺ ، ولم يكتبوا من حفظهم لأن قراءتهم مختلفة ، لما أبيح لهم من قراءة القرآن على سبعة أحرف »[2] .

ويوضح أبو شامة المراد من الشهادة ، مؤيدا كلامه بالدليل فيقول : « لم تكن البينة على أصل القرآن ، فقد كان معلوما لهم كما ذكر ، وإنما كانت على ما أحضروه من الرقاع المكتوبة ، فطلب البينة عليها أنها كانت كتبت بين يدي رسول الله ﷺ ، وبإذنه على ما سمع من لفظه ، على ما سبق بيانه ، ولهذا قال فليمل سعيد ، يعني من الرقاع التي أحضرت ، ولو كانوا كتبوا من حفظهم لم يحتج زيد فيما كتبه إلى من يمليه عليه »[3] .

٣ - ومما يدل على أن هذين الأثرين - لو صحا - لا يطعنان في تواتر القرآن : أنه من المعلوم أن المعول عليه في نقل القرآن وتواتره ، هو الحفظ في الصدور ، لا الكتابة في السطور .

ومعلوم أن عدد الحفاظ من الصحابة - كما سبق توضيحه - قد بلغ من الكثرة ، ما يتحقق بجزء يسير منهم تواتر القرآن الكريم ، وسلامته من أدنى شبهة .

وعلى ذلك : فلو افترضنا أن زيدا ومن عاونه في الجمع ، قبلوا بعض القرآن كتابة من شخص واحد ، ومعه شاهدان ، فإن ذلك لا يقدح في تواتر القرآن ، بل لو أن زيدا كتبه بنفسه ، ولم يعنه أحد ، ما كان ذلك قادحا في تواتره ، ما دام جاء متفقا مع ما تحفظه الأمة في صدورها من قرآن .

بل لو لم يكتب القرآن كله من الأساس ما ضر ذلك تواتره في شيء ، لأن عدد الحفاظ بلغوا

---

(١) المصدر السابق ١ / ٨٦ .

(٢) المرشد الوجيز ٥٧ .

(٣) المصدر السابق ٦٠ ، ٥٩ .

من الكثرة ما لا يحصيه عدد، ولا يحصره ضبط، وإنما عمد الصحابة إلى كتابته خشية ضياع شيء من صدور الحفاظ لو استمر عدد الشهداء منهم في الارتفاع، فيما يستقبلونه من معارك. كانوا يتهافتون عليها تهافت الفراش على النار، كما جاء في الروايات. فاتخذوا كافة الاحتياطات مبالغة في التحري لهذا القرآن. فأرادوا أن يجمعوه في السطور، كما سبق أن جمعوه في الصدور.

آخر التوبة، وآية الأحزاب

جاء في الأحاديث جمع القرآن في العهدين البكري والعثماني أن زيد بن ثابت افتقد أثناء الجمع الآيتين من آخر سورة التوبة، فلم يجدهما إلا مع أبي خزيمة، كما افتقد آية من سورة الأحزاب (من المؤمنين رجال) فلم يجدها إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ولنا حول هذه الآيات وقفتان عند نقطتين:

١ - النقطة الأولى: أن بعض الرواة ومصنفي الأحاديث ينكرون جديه زيد بن ثابت، في فقده آية الأحزاب بعد جمع عثمان، فهل فقده إياها كان في الجمع العثماني أو كان قبل ذلك في الجمع البكري ؟

٢ - النقطة الثانية: هل يعتبر عثور زيد بن ثابت على الآيتين من آخر التوبة عند أبي خزيمة فقط، وعلى آية الأحزاب عند خزيمة ابن ثابت فقط طعنا في تواتر هذه الآيات ؟

أما النقطة الأولى

فلم أجد أحدا من المتقدمين أو المتأخرين، من أوفاها حقها - في نظري -. والقليل النادر الذي تعرض لها، تحدث عنها بإشارة وجيزة، وبرأي قاطع سريع.

وقد ذهب بعضهم كالحافظ ابن حجر إلى أن فقد آخر التوبة كان في الجمع حيث قال: « والصحيح ما في الصحيح، وأن الذي فقده زيد في خلافة أبي بكر الآيتان، من آخر براءة، وأما التي في الأحزاب ففقدها لما كتب المصحف في خلافة عثمان »[1].

(١) فتح الباري ٨/ ٦٣٨

ولكننا في هذا المقام نخالف أستاذ الأجيال، الحافظ ابن حجر وكل من سار قبله أو بعده على هذا السير..

ونقول: إن آية الأحزاب كانت مفقودة أثناء الجمع البكري، لا العثماني. وقد صرح زيد نفسه بذلك فيما أخرجه ابن أبي داود بإسناده، حيث يقول:

« حدثنا عبد الله، قال حدثنا على بن حرب، قال: حدثنا جعفر بن عون. عن إبراهيم بن إسماعيل الأنصاري، عن الزهري، عن عبيد بن السباق، عن زيد بن ثابت قال: دعاني أبو بكر فقال: إنك رجل شاب كنت تكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ، اجمع القرآن فاكتبه، فوالله لو كلفوني نقل الجبال كان أيسر من الذي كلفني، فجعلت أتتبع القرآن، من صدور الرجال، ومن العسب، ومن الرقاع، ومن الأضلاع، ففقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ، لم أجدها عند أحد، فوجدتها عند رجل من الأنصار، (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) فألحقتها في سورتها، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى مات، ثم عند عمر، حتى مات، ثم عند حفصة »[1].

وقد رجح ابن كثير ما اخترناه هنا، حيث يقول:

« وأما ما رواه الزهري عن خارجة عن أبيه، في شأن آية الأحزاب، وإلحاقهم إياها في سورتها، فذكره لهذا بعد جمع عثمان فيه نظر، وإنما هذا كان حال جمع الصديق الصحف، كما جاء مصرحا به، في غير هذه الرواية عن الزهري عن عبيد بن السباق، عن زيد ابن ثابت »[2].

ولما رأى ابن حجر هذه الرواية صريحة في أن فقد آية الأحزاب كانت في الجمع البكري لم يعجبه ذلك، وادعى أن هذا وهم من راوي هذا الحديث، حيث قال: « ووقع في رواية إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع عن ابن شهاب أن فقده اياها إنما كان في خلاقة أبي بكر، وهووهم منه ».

(١) المصاحف ٨، ٧.

(٢) فضائل القرآن ١٤.

ثم قال : « وجزم ابن كثير بما وقع في رواية ابن مجمع ، وليس كذلك ، والله أعلم » [1] .

ولكننا من الممكن أن نرد على ما اختاره ، بمثل الذي رد به على ما اخترناه ، ونقول له ، ولماذا لا يكون قد حدث وهم من راوي الحديث الذي استند إليه هو ، وفهم أن آية الأحزاب كانت مفقوده في الجمع العثماني ؟

والذي جعلنا نختار ما اخترناه ، وندعي أن الوهم قد حدث من راوي الحديث الذي استند إليه ، وليس من راوي الحديث الذي استندنا إليه ما يلي :

١ - لا يعقل من الصحابة أن ينتهوا من الجمع البكري دون أن يثبتوا في الصحف البكرية آية الأحزاب ، أو دون أن يشعروا بفقدها ، إلا بعد انتهاء العهد البكري ، ثم العمري ، ثم مدة في عهد الخليفة عثمان ، إلى أن حدثت الفتنة والتنازع في قراءة القرآن ، فأمر عثمان بنسخ المصاحف من الصحف البكرية .

أقول : لا يعقل ذلك خاصة ، وأن الأمة كلها كانت مشتركة في هذا الجمع ، ومشرفة عليه ، وتعلم ما كتبت وما لم يكتب ، إلى أن تم الجمع كله ، على أدق وجوه التحري كما علمنا في موضعه سابقا ، وأنهم كانوا يعتمدون على مصدرين –الكتابة والحفظ – ولا يكتفون بأحدهما ، فهل يعقل بعد ذلك كله أن يكتبوا المصحف ناقصا آية ، ليأتي من هذا المصحف البكري ، الذي جعل ليكون إماما للأمة ، ترجع إليه حين الحاجة ؟

وألم يخطر على بال زيد بن ثابت ، وهو الحافظ المتقن ، والكاتب الماهر ، ألم يخطر على باله وعلى بال كل من شاركه هذا الجمع البكري فقدان هذه الآية أثناء هذا الجمع ، فلم يتذكروا ذلك إلا بعد تلك المدة الطويلة حينما جمعوه مرة ثانية في العهد العثماني ؟

ولا يقال إنهم كتبوها أثناء الجمع البكري ، ثم فقدت من المصحف البكري بعد ذلك وحين الجمع العثماني لاحظوا فقدها فالتمسوها ، فلم يجدوها إلا عند خزيمة ، لا يقال ذلك ، لأنه يبعد أن يحدث تفريط في المصحف البكري ، بعد العناء الشديد من

(١) فتح الباري ٨ / ٦٣٨ .

الأمة كلها ، خاصة وأنه كان مكتوبا في الجلود الرقاق ، ومحفوظا بين لوحين ، ومربوطا برابط يمنعه من البعثرة ، فكيف تتفلت آية واحدة من هذا الإحكام الدقيق . دون أخوتها المكتوبات معها في صحيفة واحدة من الجلد ؟

٢ - مما يقوي حرصهم الشديد على عدم التفريط في أية آية مكتوبة من المصحف البكري ، أن البعث على هذا الجمع البكري هو خوفهم من ضياع شيء من القرآن مستقبلا ، فكيف يفرطون فيه بعد هذا الجهد الجهيد ، لتضيع منه آية الأحزاب ؟

٣ - وإذا كان زيد قد فقدها في الجمع العثماني بعد أن كتبها في الجمع البكري ، فهل من اللائق أن يقول - كما قال بالفعل - « فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها » أو كان من اللائق أن يقول : فقدت آية من الأحزاب كنت قد كتبتها في الجمع البكري ؟

٤ - بل إن زيدا نفسه صرح في حديث واحد ، بأن الذي افتقده من آخر التوبة ، ومن آية الأحزاب كان في الجمع البكري فقط .

فقد أخرج أبو سهل الأنماري بإسناده من طريق عمارة بن غزية عن الزهري ، عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه زيد بن ثابت ، وهو يتحدث عن الجمع البكري قال : « فعرضت عرضة واحدة فوجدتني قد أسقطت منه هذه الآية » من المؤمنين رجال . . . الآية « فسألت المهاجرين والأنصار فلم أجدها عند أحد منهم ، وقد كنت أعرفها فكرهت أن أثبتها حتى يشهد معي غيري ، فأصبتها عند خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي أجاز رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ، فكتبتها ، ثم عرضت عرضة أخرى ، فوجدتني قد أسقطت آيتين وقد عرفتهما » لقد جاءكم رسول . . . « الآيتان فسألت عنهما المهاجرين والأنصار ، فلم أجدها عند أحد منهم إلا عند أبي خزيمة [1] ، فكتبتهما في آخر براءة ، قال : فعمد أبو بكر على ذلك حتى هلك . . الحديث » [2] .

---

(١) هذا هو الصحيح ، والذي في أصل الرواية عند خزيمة بن ثابت .
(٢) مقدمة تفسير المباني في نظم المعاني ٢٢ ، ٢١ .

أليس في كل ما تقدم دليل قوي يجعلنا نرجح أن فقد زيد لآية الأحزاب كان أثناء الجمع البكري ، لا العثماني ؟

أعتقد أن الصواب في ذلك ، خاصة وأن أولئك المستشرقين الأفاكين قد وجدوا في مثل هذا القول الذي يقول إن الصحف البكرية كانت خالية من آية الأحزاب ، وجدوا فيه ما ظنوه طعنا في القرآن ، وقالوا إنه قد جمع ناقصا ، بدليل هذا القول ، الذي يستند على ظاهر ما جاء في بعض الروايات .

تنبيه : لو ذهب إنسان إلى ما ذهب إليه ابن حجر من أن فقد زيد لآية الأحزاب كان أثناء الجمع العثماني ، فإن ذلك لا يضر القرآن وتواتره في شيء ، لأن الاعتماد كما قلنا مرارا على المحفوظ والمتلقي شفهيا لا على المكتوب فلو لم يكتب القرآن أصلاً وإلى الآن ، ما طعن ذلك في تواتره ، ما دام قد نقل كله متواترا ، جيلا بعد جيل .

أمـــا النقطة الثانية :

فقد يحلو لبعض المستشرقين ، ولمن في قلبهم مرض أن يطعنوا في تواتر آخر التوبة ، وآية الأحزاب ، حيث يصرح زيد بن ثابت فيقول :

١ – فتتبعت القرآن أجمعه ، من العسب واللخاف ، وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة ، مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الآيتان .

٢ – ويقول أيضا : « فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف ، قد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة ابن ثابت (من المؤمنين رجال) الآية .

أقول قد يحلو لأولئك الأفاكين أن يطعنوا في تواتر هذه الآيات ، استنادا لهذا الذي صرح به زيد بن ثابت ، ولكن هذا لا يدل لهم كما يشتهون ، وتوضيح ذلك كما يأتي :

١ – فزيد –كما سبق في كيفية جمع القرآن – لم يكن يكتفي بالحفظ فقط ، ولا

بالمكتوب فقط ، بل كان يعتمد في جمعه على المصدرين معا .

قال الحافظ ابن حجر : « قوله لم أجدها مع أحد غيره ، أي مكتوبة ، لما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة ، ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبي ﷺ ، وإنما كان زيد يطلب التثبيت عمن تلقاها بغير واسطة » .

إلى أن يقول : « والحق أن المراد بالنفي نفي وجودها مكتوبة لا نفي كونها محفوظة »[1] .

٢ - ومما يدل على أن هذا المفقود كان مفقود كتابة لا حفظا ، تلك الألفاظ التي عبر بها زيد بن ثابت نفسه في قوله « فقدت آية من الأحزاب » وفي قوله : « فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة » .

فقوله « فقدت » دليل على أنها محفوظة ، وإلا فكيف عرفوا فقدها ، وقوله « فالتمسناها » يدل على أنهم يبحثون عنها مكتوبة ، وإلا فكيف يبحثون عن شيء مجهول ، لا يحفظونه أصلا ؟

إنهم كانوا يحفظونها جيدا ، بل وكانوا يعرفون موضعها من سورتها تماما ، ولذلك قال زيد « فألحقناها في سورتها في المصحف » .

ومن ألفاظ زيد أيضا التي تدل على أن هذا المفقود كان مفقودا كتابة لا حفظا ما عبر به فيما أخرجه أبو سهيل الأنماري ، وذكرناه قريبا ، حيث قال : فعرضت عرضة واحدة فوجدتني قد أسقطت منه هذه الآية : « من المؤمنين رجال صدقوا » فسألت المهاجرين والأنصار فلم أجدها عند أحد منهم ، وقد كنت أعرفها ، وقد كان أملاها علي رسول الله ﷺ ، فكرهت أن أثبتها حتى يشهد معي غيري ، فأصبتها عند خزيمة بن ثابت الأنصاري ، الذي أجاز له رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ، فكتبتها .

ثم عرضت عرضة أخرى ، فوجدتني قد أسقطت آيتين ، وقد عرفتهما ، ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ الآيتان ، فسألت عنهما المهاجرين والأنصار ، فلم أجدهما

(١) فتح الباري ٨/ ٦٣٢ .

عند أحد منهم ، إلا عند أبي خزيمة [1] فكتبتهما في آخر براءة [2] .

فألفاظ هذه الرواية وسيفها يدل دلالة واضحة على أن المفقود هو المكتوب لا المحفوظ .

ومما يدل على أن المفقود كان مفقودا كتابة لا حفظا :

قول أبي بن كعب فيما أخرجه ابن أبي داود بإسناد عن أبي العالية : « إنهم جمعوا القرآن في مصحف ، في خلافة أبي بكر ، فكان رجال يكتبون ، ويملي عليهم أبي بن كعب ، فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة : » ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون « ظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن ، فقال أبي : إن رسول الله ﷺ قد أقرأني بعدهن آيتين : (لقد جاءكم رسول) الآيتان . . .

ولصاحب تفسير « المباني في نظم المعاني » توضيح لطيف لهذه المسألة ، إذ يقول في مقدمة تفسيره هذا :

« وليس معنى ذلك أنهم أخذوا الآيات منه - أي من خزيمة أومن أبي خزيمة - بل إنها كانت معروفة عندهم ، ولكنهم لم يجدوها إلا عند هذا الرجل ، فلما وجدوها عنده كتبوها عنه ، ولو شاءوا لكتبوها عن حفظهم .

أولا ترى أنها لولا أنها كانت معروفة عندهم لم يفتقدوها ، وكيف يفتقدون مالا يعرفون هل هو أصلا ؟ ولكن الحافظ للقرآن قد يحتاط ، فيطلب مصحفا يكتب منه .

مع أن عمر ﷺ قد اشتهر عنه الخبر ، لشدة إنكاره على من يكتب المصحف عن ظهر قلبه ، لما اختير الاحتياط ، ومنع الناس من المساهلة فيه .

أخبرنا منصور بن العباس ، قال : أخبرنا الحسن بن سفيان ، قال : حدثنا اسحاق بن إبراهيم ، وابن أبي شيبة ، ومحمد بن المثنى ، قالوا حدثنا أبو معاوية ، قال : حدثنا

---

(١) هذا هو الصحيح ، والذي في أصل هذه الرواية عند خزيمة بن ثابت الذي أجاز رسول الله شهادته ، وهووهم من الراوي فيما يرويه عن زيد .

(٢) مقدمتان في علوم القرآن٢٢ ، ٢١ .

الأعمش عن إبراهيم عن علقمة ، قال : جاء رجل إلى عمر وهو يعرفه ، فقال جئتك يا أمير المؤمنين من الكوفة ، وبها رجل يملي المصاحف عن ظهر قلبه ، فغضب ، زاد ابن أبي شيبة وابن المثنى : « وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرجل » ، قالوا : ثم قال : من هو ؟ ويحك ، قال : عبد الله بن مسعود ، قال : فانطفأ عنه الغضب ، قال : ويحك ما بقي من الناس أعلم بذلك منه ، وسأحدثك عن ذلك ، ثم ذكر عمر حديثا في ذلك ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد .

ثم يستطرد صاحب هذا التفسير فيقول في مقدمته : واستنكار الرجل ذلك من أوكد دليل على أن العامة في ذلك الزمان كانت تستنكره ، وكذلك تخصيصه عبد الله بذلك دليل على امتناع سائرهم من مثله » [(١)].

ومما نرد به على أولئك الذين يريدون التشكيك في تواتر آخر التوبة ، وآية الأحزاب ، لوجودها مكتوبة عند شخص واحد :

أن المعول عليه ـ كما أكدنا على ذلك مرارا ـ هو الحفظ ، لا الكتابة . فحتى لو لم يجد زيدا هذه الآيات المكتوبة عند من وجدها فإن ذلك لن يضير القرآن في شيء ، ذلك أن الأمة كانت تحفظ هذه الآيات ، ولولا أنها كانت تحفظها ما أجمعت على كتابتها ، فليس من المعقول على الإطلاق أن يخص الرسول ﷺ من وجدت عنده هذه الآيات بالتبليغ وحده ، دون سائر الأمة ، بدليل أحاديث متعددة ، ذكرنا بعضها سابقا ، تدل على أن الصحابة كانوا يحفظونها ، وإنما الذي كانوا يفتقدونه هو كتابتها فقط .

يقول عبد الوهاب غزلان : « إجماع الصحابة على كتابتها في المصحف لا يمكن أن يكون مستندهم فيه رواية واحد فقط ، فإن الخصوصية التي تلزم القرآن ، ولا تنفك عنه هي أنه : تتوافر الدواعي على نقله ، وكونه أصل الشريعة ، فلو تجردت هاتان الآيتان عن تلك الخصوصية ، التي هي من لوازم القرآن ، لما أجمع الصحابة على كتابتها

(١) مقدمتان في علوم القرآن : ٣٥ ، ٣٦ .

في المصحف » [1].

والآن أعتقد أننا في عنى عن تلك الآثار التي يستشهد بها بعض المتقدمين والمتأخرين على أن بعض الصحابة كانوا يحفظون هذه الآيات التي افتقدها زيد أثناء جمعه ، كعمر وعثمان وأبي الحارث بن خزيمة ، ذلك أن التواتر لا يثبت بثلاثة أو أربعة ، أو بقريب من هذا العدد .

وعلى ذلك : فالتوجيه الصحيح ، أو الركيزة المعتمد عليها في توضيح قول زيد ، في فقده لهذه الآيات أن يقال أن المقصود هو كونها مكتوبة ، لا كونها محفوظة ، وأنهم ما كانوا ينسخون إلا مما هو مكتوب ومما هو موافق للمحفوظ ، ولا يكتفون بالمحفوظ ، بل ينكرون على من يكتب من ذاكرته وحفظه أشد النكير ، كما وضح من الأثر المروي عن عمر سابقا .

وبذلك يتضح أن الآيات التي فقدها زيد أثناء جمعه ولم يجدها مكتوبة إلا عند شخص واحد متواترة تواتر جميع آيات القرآن الكريم ، ولا حجة لمن في قلبه مرض إذا ذهب إلى غير ذلك .

ملاحظة :

اختلف الرواة فيمن وجد زيد عنده آخر سورة التوبة ، فبعضهم يقول إنه أبو خزيمة ، وبعضهم ينص على أنه خزيمة وبعضهم يشك ، فيقول خزيمة أو أبو خزيمة ، ولكن بالتحقيق نستطيع أن نخرج في النهاية بأن الذي وجد عنده آخر التوبة هو أبو خزيمة الأنصاري ، وأن الذي وجد عنده آية الأحزاب هو : خزيمة بن ثابت .

يقول أبو شامة ، وهو يتحدث عن خزيمة بن ثابت الذي وجدت معه آية الأحزاب : « وخزيمة هذا غير أبي خزيمة بن أوس بن زيد من بني النجار ، شهد بدرا وما بعدها ، وتوفي في خلافة عثمان ، وهذا خزيمة بن ثابت بن الفاكه من الأوس ، شهد أحدا وما

---

(1) البيان ١٧٣ .

بعدها ، وقتل يوم صفين »[1].

ويقول الحافظ ابن حجر : « والأرجح أن الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة ، بالكنية ، والذي وجد معه الآيات من الأحزاب خزيمة ، وأبو خزيمة قيل : هو ابن أوس بن يزيد بن أصرم ، مشهور بكنيته دون اسمه ، وقيل هو الحارث بن خزيمة ، وأما خزيمة فهو ابن ثابت ، ذو الشهادتين ، كما تقدم صريحا في سورة الأحزاب »[2].

سمات الجمع البكري

اتسم جمع القرآن الذي قام به زيد بن ثابت في خلافة أبي بكر ، بعدة سمات ، من أهمها :

١ – أنه قام على أسلم أصول البحث ، وأدق وجوه التحري ، كما سبق توضيحه .

٢ – أنه كان موافقاً لآخر ما استقر عليه القرآن ، ومن تمييز الناسخ من المنسوخ ، فمن جاءهم أثناء الجمع بمنسوخ لا يدري نسخه ردوه ، ولم يكتبوه ، كما جاء في تلك الرواية التي تنص على أن عمر جاء بآية الرجم ، وهولا يعلم نسخها ، فردوها ، ولم يثبتوها .

٣ – كما أنهم لم يثبتوا إلا ما كان متواترا ، وتحقق عند الجميع قرآنيته .

٤ – أن كل سورة كانت آياتها مرتبة تماما ، كما هي محفوظة ، إلا أنهم حيئذ لم يهتموا بترتيب السور ، كما هو موجود في المصحف اليوم ، إذ كان همهم الأكبر جمع القرآن كله مكتوبا ، فجمعوه كذلك ، ورتبوا آيات كل سورة ، بحيث أصبحت كل سورة مستقلة بذاتها .

٥ – كان المصحف البكري مجردا من النقط والشكل ، ليشمل في مجموعه الأحرف السبعة ، قدر الإمكان .

---

(١) المرشد الوجيز : ٥١

(٢) فتح الباري : ٨/ ٦٣٦ ، ٦٣٣

٦ – ومن سمات هذا الجمع البكري أيضا ومن فوائده ، ما ذكره الشيخ عبد الوهاب غزلان بقوله : « اتصال السند الكتابي بالأخذ عن الصحف ، التي كتبت بين يدي النبي ﷺ ، كاتصال السند المتواتر ، في الرواية والتلقي عن الشيوخ ، فتكون كتابة أبي بكر بمثابة الطبقة الثانية من الشيوخ ، وكتابة عثمان بمثابة الطبقة الثالثة ، وهكذا مرات الانتاج من المصاحف العثمانية » (١).

وهكذا تم هذا العمل الجليل ، الذي حفظ للأمة بإرادة الله عز وجل قرآنها من الضياع والتحريف ، وسيظل هذا العمل ـ كما يقول الزرقاني ـ منقبة خالدة ، لا يزال التاريخ يذكرها بالجميل ، لأبي بكر في الإشراف ، ولعمر في الاقتراح ، ولزيد في التنفيذ ، وللصحابة في المعاونة والإقرار » (٢).

وما أعظم اعتراف الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ، بالجميل الذي قام به الخليفة الأول أبو بكر ، تجاه القرآن ، وتجاه أمة القرآن إلى يوم الدين ، حيث يقول فيما يرويه ابن أبي داود : « أعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين » (٣).

---

(١) البيان في مباحث من علوم القرآن : ١٨٥

(٢) مناهل العرفان : ١/٢٥٣

(٣) المصاحف : ص٥ .

الفصل الخامس

جمع الصحابة القرآن كتابة في العهد العثماني

جمع الصحابة القرآن كتابة في العهد العثماني

سبب الجمع :

بعد أن أدى رسول الله ﷺ مهمته التي كلف بها ، من تبليغ رسالة ربه ، ومن الله عليه وعلى أمته بدخول الناس في دين الله أفواجا ، اختاره الله عز وجل إلى الرفيق الأعلى ، ليحمل عبء نشر هذه الدعوة من بعده أصحابه الكرام ، الذين أشربت قلوبهم الإيمان شربا ، وجرى الإسلام في دمائهم وأقوالهم وأفعالهم جريا .

وما أن مضت سنوات قليلة ، هي مدى خلافتي أبي بكر وعمر ، إلا وانساح الإسلام شرقا وغربا ، واتسعت الفتوحات الإسلامية ، واستبحر عمران المسلمين ، وخلط الإسلام بين معتنقيه من العرب والعجم ، في كل مناحي الحياة ، إذا أنه دعوة عالمية ، لا تعرف أي نوع من أنواع التعصب ، مهما أخذ هذا النوع شكله ، سواء أكان في الجنس ، أم في اللون ، أم في الهيئة ، أم في غير ذلك .

خلط الإسلام بين العرب أنفسهم ـ بعد أن تناءت ديارهم ، وتفرقت قبائلهم ـ من ناحية ، وبين العرب والعجم من ناحية أخرى ، فتشارك الجميع في الحضر والسفر ، كما اجتمعا معا في السلم والحرب .

وكان من تقدير الله عز وجل لضمان انتشار دينه ، وحفظ كتابه ، أن تفرق الحفاظ من الصحابة في جميع القرى والأمصار ، واستجابة لأمر رسول الله ﷺ « بلغوا عني ولو آية » (١) ، وطمعا في الوصول إلى مرتبة الخيرية التي سمعوا عنها من الرسول ﷺ

(١) البخاري في كتابه الأنبياء ، باب (٥٠)

« خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[1] ، من أجل ذلك تنافسوا في تبليغ قرآن ربهم إلى كل من استطاعوا ممن خالطوهم قراهم وأمصارهم ، فأقرأ كل صحابي من استطاع اقراءه ، بالقراءة التي أخذها عن رسول الله ﷺ .

فكان عبد الله بن مسعود يقرئ أهل الكوفة ، وأبو موسى الأشعري يقرئ أهل البصرة ، وأبي بن كعب يقرئ أهل الشام ، وهكذا .

ونتج عن هذا اختلاف بين قراءة أهل كل قطر مع الأقطار الأخرى ، نتيجة اختلاف مشرب كل قطر عن مشرب الأقطار الأخرى ، وبدا ذلك واضحا حينما التقى المسلمون من كل الأقطار مع بعضهم في المعارك والغزوات ضد أعدائهم .

« جاء في رواية عمارة بن غزية أن حذيفة قدم من غزوة ، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال : يا أمير المؤمنين : أدرك الناس ، قال : وما ذاك ؟ قال غزوت فرج أرمينية ، فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة أبي بن كعب ، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرءون بقراءة عبد الله بن مسعود ، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام ، فيكفر بعضهم بعضا .[2]

سبب الاختلاف والتنازع

وكان سبب هذا الاختلاف في القراءة ، وذلك التنازع بينهم جهلهم بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وأن الإنسان مخير في أن يقرأ بأيها أحب وشاء .

وكان هذا الاختلاف والتنازع شبيهين بما وقعا لبعض الصحابة أثناء حياة الرسول ﷺ .

أخرج البخاري في صحيحه[3] عن عمر بن الخطاب أنه قال : « سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، في حياة رسول الله ﷺ ، فاستمعت لقراءته ، فإذ هو يقرأ على حروف كثيرة ، لم يقرئنيها رسول الله ﷺ ، فكدت أساوره في الصلاة ، فتصبرت حتى

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب (٢١)
(٢) انظر فتح الباري : ٨/ ٦٣٤
(٣) في كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف .

سلم ، فلببته بردائه فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت : كذبت ، فإن رسول الله ﷺ قد قرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ ، فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها ، فقال رسول الله ﷺ أرسله ، اقرأ يا هشام ، فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ، ثم قال : اقرأ يا عمر فقرأ للقراءة التي أقرأني ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك إنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، فاقرءا ما تيسر منه » .

نعم لقد كان الاختلاف بين المسلمين في عهد عثمان في قراءة القرآن شبيها بذلك الاختلاف في العهد النبوي ، بل فاقه إلى درجة أن كفر بعضهم بعضا .

أخرج ابن أبي داود في المصاحف من طريق أبي قلابة قال :

« لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كفر بعضهم بعضا »[1] .

وأخرج ابن أبي داود أيضا ولكن من طريق محمد بن سيرين أنه قال : « كان الرجل يقرأ حتى يقول الرجل لصاحبه كفرت بما تقول »

ومما زاد الأمر خطورة ، أن هذا الاختلاف لم يكن قاصرا على القراءة فحسب ، بل تعدى ذلك إلى ما كان عندهم من مصاحف خاصة .

أخرج ابن أبي داود وغيره عن أبي وائل قال : « خطبنا عبد الله ابن مسعود على المنبر فقال : ﴿ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[2] غلوا مصاحفكم ، وكيف تأمرونني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله ﷺ ، بضعا وسبعين سورة ، وأن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان »[3] .

---

(١) انظر المصاحف ٢١ ، وفتح الباري : ٨/ ٦٣٥ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٦

(٣) المصاحف : ١٥

الصحابة يهتمون بالأمر ويقدرون خطورته

وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد من الاختلاف ، وعندما تفاقم هذا الخطر حتى وصل إلى حد التكفير ، تطلع كبار الصحابة إلى عمل يقضي على هذا الاختلاف ، ويمحو تلك الأسباب التي جعلتهم يتراشقون بالتكفير ، فرفعوا الأمر إلى خليفة المسلمين ، ليسد الخرق قبل أن يتسع على الراقع ، فيعجز عن إصلاح ذلك الخلل ، فتكون فتنة في الدنيا ، وفساد في الدين .

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك ﷺ أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام ، في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى (١) .

وأخرج ابن أبي داود من طريق بكير بن الأشجع أن ناسا بالعراق يسأل أحدهم عن الآية ، فإذ قرأها قال : إلا أني أكفر بهذه ، ففشا ذلك في الناس ، واختلفوا في القرآن ، فكلم عثمان بذلك » (٢) .

كما أخرج ابن أبي داود أيضا أن حذيفة كان في مسجد من مساجد الكوفة زمن ولاية الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فسمع رجلا يقول : قراءة ابن مسعود ، وسمع آخر يقول : قراءة أبي موسى ، فقام فخطب في الناس ، فقال : هكذا اختلف من كان قبلكم ، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين » (٣) .

الخليفة يستشير ، ثم يصدر أمرا

وما أن وصل الأمر إلى الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ، إلا وشعر هو الآخر بفداحة الأمر ، وعظيم خطره ، على القرآن ، وعلى الأمة ، على حد سواء ، لاسيما وأن هذا الاختلاف والتنازع قد وصل إلى مقربة من المدينة بتلك الأقطار النائية عنها .

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .
(٢) المصاحف : ٢٣ .
(٣) انظر فتح الباري ٨ / ٦٣٤ ، والمصاحف : ١١ ، ١٢

ولذلك ما أن بلغه الخبر إلا وقام خطيبا في الناس ، وصرخ فيهم قائلا كما أخرجه ابن أبي داود : « أنتم عندي تختلفون فيه فتلحنون ، فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافا ، وأشد لحنا » [1].

ثم تداول الخليفة الرأي مع كبار القوم ، وأولى الأحلام والنهي ، لاتخاذ وسيلة تمحو هذا الاختلاف ، وتزيل أسباب التنازع ، فتفتق ذهنه الحصيف ، عن ضرورة كتابة مصحف إمام لكل قطر من الأقطار ، يكون مرجعا لكل من فيه ، منه يقرأون ويقرئون ، وإليه يحتكمون .

أخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح أن عثمان قال لكبار الأمة حينما قالوا له : فما ترى ؟ ، قال : أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد ، فلا تكون فرقة ولا اختلاف ، قلنا : فنعم ما رأيت »

فطنة عثمان وبعد نظره

وإذا كان الخليفة عثمان ﷺ قد أراد جمع الناس على المصحف ، فإنما لم يقصد به من قرب أو بعد من المكان الذي هو كائن فيه فقط ، بل أراد أيضا من قرب أو بعد الزمان الذي يعيش فيه أيضا . لأن الناس إذا كانوا قريبي عهد بالنبوة ، واختلفوا في القرآن إلى هذا الحد ، فمن باب أولى إذا تباعد بهم الزمان عن هذا العهد النبوي ، ولذا قال عثمان في رواية مصعب بن سعد : « أيها الناس : عهدكم بنبيكم منذ ثلاثة عشرة وأنتم تمترون في القرآن ، وتقولون قراءة أبي ، وقراءة عبد الله ، يقول الرجل : والله ما نقيم قراءتك » [2].

نعم ... إن عثمان كان ينظر إلى الأمام ، ولا ينظر إلى الزمان الذي فيه يعيش ، إنه يعلم فعل الزمن مع الناس ومع القرآن ، إذا استمر الناس على هذا الاختلاف في هذا القرآن .

---

(١) المصدر السابق : ٢١

(٢) المصاحف : ٢٣

ولقد صدق أبو مجلز التابعي الجليل ، حينما قال عن علم عثمان : « لولم يجمع الناس على قراءة واحدة لقرأ الناس القرآن بالشعر » [1].

وما أروع قول الرافعي وهو يتحدث عن عظمة الجمع العثماني ، وعن خطورة الزمن على الناس وعلى القرآن ، لو لم يفعل عثمان ما فعل . . .

يقول الرافعي رحمه الله « وإنما أراد عثمان بذلك حسم مادة الاختلاف ، لأنه أمر يمد مع الزمن ، وتنشعب الأيام به ، وهو أن أمن في عصره ، لم يدر ما يكون بعد عصره ، وقد أدرك أن العرب لا يستمرون عربا على الاختلاف والفتوح ، وأن الألسنة تنتقل ، واللغات تختلف .

ثم هو رأى ما وقع في الشعر وروايته ، وأن الاختلاف كان بابا إلى الزيادة والإبداع ، فلم يفعل شيئا أكثر من أنه حصن القرآن ، وأحكم الأسوار حوله ، ومنع الزمن أن يتطرق إليه بشيء ، وجعله بذلك فوق الزمن » [2].

عثمان يشرك الأمة كلها في جمع القرآن

وإذ كان عثمان بن عفان هو الذي تفتق ذهنه عن فكرة هذا العمل الجليل ، إلا أنه أراد أن لا ينفرد بتنفيذه ، بل طلب إلى الأمة كلها أن تشارك فيه .

أخرج ابن أبي داود أن عثمان قال : « اجتمعوا يا أصحاب محمد ، واكتبوا للناس إماما » [3].

كما أخرج أيضا عن سويد بن غفلة الجعفي أنه قال : « والله لا أحدثكم إلا شيئا سمعته من علي بن أبي طالب ، ﷺ ، سمعته يقول : « يا أيها الناس ، لا تغلوا في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيرا ، في المصاحف ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإ منا جميعا » [4].

---

(١) المرشد الوجيز لأبي شامة : ٦٩

(٢) إعجاز القرآن ، لمصطفى صادق الرافعي ، ص : ٣٩ ، ٤٠ ، ط

(٣) المصاحف : ٢١

(٤) المصاحف : ٢٢

انتقاء لجنة عظمى لكتابة المصاحف

وعندما عزم عثمان ـ ومعه الأمة ـ على كتابة المصاحف ، انتقى ﷺ لجنة عظمى من الصحابة ، هي من خيرة الحفاظ والكتاب ، لتباشر هذا العمل الجلل .

فانتقى بادئ ذي بدء أربعة أشخاص ، هم زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، كما جاء في حديث البخاري عن أنس في حديث جمع القرآن : « فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام .. الحديث »

وتنص بعض الروايات أن أعضاء اللجنة كانوا إثني عشر رجلا .

أخرج ابن أبي داود عن محمد بن سيرين عن كثير بن أفلح قال :

« لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثنى عشر رجلا من قريش والأنصار ، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت »[1].

ولا تناقض بين الروايتين كما هو واضح ، لأن هؤلاء الأربعة هم الذين وقع عليهم الاختيار أولا ، ثم ألحق عثمان بهم ثمانية آخرين ، ليعينوهم في هذا العمل الجلل ، ليتمكنوا من سرعة نسخ مصحف إلى كل قطر من الأقطار المختلفة ، وإرساله إليه .

وعلى ذلك : فلو وجدنا رواية تقتصر في كتابة المصاحف العثمانية على ذكر زيد بن ثابت فلأنه رئيس اللجنة ، وإذا وجدنا رواية تقتصر على ذكر الأربعة ، فلأنها اللجنة الأساسية ، وإذا وجدنا رواية تنص على أنهم اثنا عشر ، فباعتبار إنضمام الثمانية المساعدين إلى اللجنة الأساسية .

من هم كتبة المصاحف العثمانية ؟

وإذا كان مجموع الروايات ينص على أن كتبة المصاحف كانوا اثنى عشر رجلا ، فإننا لا نستطيع أن نخرج منها إلا بتعيين عشرة فقط .

(١) المصدر السابق : ٢٥

(أ) فرواية البخاري تسمي أربعة ، حيث جاء فيها :

« فأمر ـ أي عثمان ـ زيدَ بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فنسخوها في المصاحف » .

(ب) وابن أبي داود ينكر في كتابة المصاحف علة روايات مفرقة لتشمل – بالإضافة إلى من سبق – خمسة آخرين ، اشتركوا في هذه اللجنة ، بعضهم ساهم بالإملاء ، وبعضهم ساهم بالكتابة ، وهم :

١ – مالك بن أبي عامر ، جد مالك بن أنس .

٢ – وكثير بن أفلح .

٣ – وعبد الله بن عباس .

٤ – وأنس بن مالك .

٥ – وعبد الله بن عباس .

(جـ) ويضيف أبو عمرو الداني في كتابه (المقنع) إلى من سبق ذكرهم شخصا عاشرا ، حيث يذكر لنا رواية فيها تعيين خمسة أشخاص ، منهم شخص جديد ، ألا وهو عبد الله بن عمرو بن العاص ، حيث يقول :

« فأرسل عثمان إلى زيد بن ثابت ، وإلى عبد الله بن عمرو بن العاص ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى ابن عباس ، وإلى عبد الرحمن بن الحرث بن هشام فقال : انسخوا هذه الصحف في مصحف واحد » [1] .

فهؤلاء عشرة قد عرفوا من الاثنى عشر ، أما الشخصان الآخران فالظاهر كما يفهم من كلام الحافظين ابن حجر والسيوطي ، أنهما غير معروفين .

الخليفة يضع خطة الكتابة

وحينما اتخذ عثمان قراره بكتابة علة مصاحف إلى كل قطر ، واصطفى لذلك العمل مجموعة من خيرة حفاظ الأمة وكتبتها ، لم يدع لهذه اللجنة الكيفية التي تتراءى

---

(١) المقنع : ١٤ .

لها ، بل حدد لها خطوات معينة ، وألقى عليها تعليمات خاصة ، وكان من أمره ﷺ مع هذه اللجنة ما يأتي :

(أ) أمر بإحضار الصحف التي جمع فيها القرآن ، في خلافة أبي بكر ، التي كانت عن السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ، حيث قال لها : « أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك »[١] .

(ب) حدد للجنة الحرف الذي يكتبون عليه القرآن ، وهو حرف قريش ، حيث قال للقرشيين الثلاثة –وهم عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث – « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم »[٢] .

قال بعض العلماء ، ومراد عثمان من قوله : « فإنما نزل بلسان قريش » أن معظمه نزل كذلك ، لأن فيه ألفاظا غير قرشية ، بل غير عربية ، وهذا القول منهم أراه بعيدا عن الصواب ، فإن عثمان ﷺ أراد ظاهر ما نطق به ، من أن كل حرف في القرآن قرشي ، وإذا كان الله عز وجل قال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾[٣] ولم يقل قرآنا قرشيا فليس هناك ما يمنع أنه كله قرشي ، إذ أن قريشا أفصح العرب على الإطلاق ، وأن كل القبائل كانت تتحاكم إليها في ذلك ، وكانت قريش تنتقي من اللغات الأخرى أفصحها ، ثم تتحدث قرشي ، إما أصلا وإما بتصييره كذلك .

قال ابن قتيبة فيما جاء عنه في المرشد الوجيز[٤] : « غير جائز أن يكون في القرآن غير لغة قريش ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾[٥] .

(جـ) حدد عثمان ﷺ لكل عضو من أعضاء اللجنة مهمة خاصة ، عرف البراعة

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) سورة الزخرف : ٣

(٤) صفحة : ٩٤

(٥) سورة ابراهيم : ٤ .

فيها ، بحيث لم يوجد من يفوقه فيها ، وإن كان عرف عنه إجادة وإتقان في أكثر من ناحية استفاد بكل ذلك .

ولذلك وجدناه يأمر بعضهم بالكتابة تارة ، وبالإملاء تارة أخرى . ولقد لفت ذلك نظر أبي بكر الباقلاني ، حينما رأى روايتين إحداهما تنص على أن عثمان بن عفان دعا أبي بن كعب وزيد بن ثابت ، وسعيد بن العاص ، وقال لأبي : (أمل على هؤلاء القرآن في المصاحف) ، أما الثانية فقد جاء فيها أن عثمان قال : (فليمل سعيد وليكتب زيد) .

قال معلقا على هذا الخبر الأخير : « فهذا الخبر يقضي بأن سعيدا قد كان ممن يملي المصحف ، ولا يمتنع أن يمله سعيد ، ويمله أبي أيضا ، فيحتاج إلى أبي ، لحفظه واحاطته علما ، بوجوه القراءات المنزلة ، التي يجب إثباتها جميعا ، وأن لا يطرح شيء منها ، ويجب نصب سعيد بن العاص ، لموضع فصاحته ، وعلمه بوجوه الإعراب ، وكونه أعربهم لسانا ، وقد قيل أن سعيدا كان أفصح الناس ، وأشبههم لهجة برسول الله ﷺ . وليس يجب أن تتعارض هذه الأخبار ، لأنه قد ذكر في كل واحد منها ممل غير الذي ذكر في غيره ، لأنه لا يمتنع أن ينصب لإملائه قوم فصحاء ، حفاظ يتظاهرون على ذلك ، ويذكر بعضهم بعضا ، ويستدرك بعضهم ما لعله يسهو عنه غيره ، وهذا من أحوط الأمور وأحزمها ، في هذا الباب » [1]

(د) ولما كان المراد من كتابة المصاحف ، اتفاق أهل كل قطر على قراءة متواترة ، يقرأ بها من نزل بينهم من الصحابة ، مع مراعاة اشتمال المصاحف في مجموعها على كل الأحرف السبعة فقد جردت اللجنة الألفاظ القرآنية من النقط و الشكل ، وعلى ذلك نظروا إلى اللفظ .

١ - فإن كان يحتمل أكثر من قراءة متواترة ، حالة خلوه من النقط والشكل كتبوه في جميع المصاحف برسم واحد ، نحو (فتبينوا) و(فتثبتوا) من سورة الحجرات ، ونحو (ننشزها) و(ننشرها) من سورة البقرة ، وكذلك كلمة (أف) والتي قالوا عنها أنها تقرأ بسبعة وثلاثين وجها .

---

(١) نقلا عن المرشد الوجيز لأبي شامة .

٢ – أما إذا كان اللفظ لا يحتمل قراءة واحدة ، رغم خلوه من النقط والشكل ، وله قراءة أخرى أو أكثر متواترة ، فإنهم كانوا يرسمون هذا اللفظ في مصحف برسم يوافق قراءة ، وفي مصحف آخر برسم آخر يوافق القراءة الأخرى ، نحو قراءة (تجري من تحتها الأنهار) من سورة التوبة ، بدون (من) في قراءة ، وبإثباتها في قراءة أخرى ، ونحو قوله(وصى) بالتضعيف ، و(أوصى) بالهمز وهكذا .

وكان من منهجهم في كتابة هذا النوع الثاني أنهم يتحرزون عن كتابته مكررا في مصحف واحد ، أحدهما عقب الآخر ، حتى لا يتوهم أنه قد نزل من السماء مكررا ، وأنه يجب أن يقرأ هكذا .

كذلك لم يكونوا يكتبون هذا النوع برسمين في مصحف واحد ، أحدهما في صلب الآية ، والآخر على هامش المصحف ، لأنه قد يظن حينئذ أن ما في الهامش تصحيح لما في الصلب ، وأيضا فقد يقول قائل لم اختير هذا في الصلب دون ذلك الذي ورد في الهامش ، ولم يحدث العكس ؟ فهو ترجيح بلا مرجح ! !

السبب في ذلك

والذي جعل الصحابة يسلكون ذلك المسلك في كتابة المصاحف ، أنهم رأوا القرآن قد نزل على سبعة أحرف ، وبأوجه متعددة ، فرأوا أن يكتبوه كما تلقوه من الذي أنزل عليه ﷺ ، حتى لا يسقط شيء من القراءات المتواترة ، وحتى لا يمنع أحد من القراءة بأي حرف نزل عليه القرآن ، تيسيرا له وتسهيلا ، وإلا فما الداعي إلى تعدد القراءات ؟ وما فائدة إنزال القرآن على هذه الأحرف السبعة .

إشراف عثمان على كتابة المصاحف

ولما كان عثمان هو خليفة المسلمين ، ولما كان هو صاحب فكرة نسخ المصاحف المتعددة ، ولما كان أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ، ولما كان أحد حفاظ الأمة ومتقنيها ، لما كان عثمان كذلك لم يكل الأمر إلى لجنة الكتابة ، إتكالا على ثقته الكاملة في أهليتهم لهذا الأمر ، بل كان يتفقدهم باستمرار ، ويتعاهد عملهم على الدوام ، حتى يخرج إلى الوجود على أحسن صورة ، ليؤدي المهمة التي أجمعت الأمة عليها .

أخرج ابن أبي داود بإسناده عن كثير بن أفلح أنه قال : « وكان عثمان يتعاهدهم ، فكانوا إذا تدارءوا في شيء أخروه »

وأخرج أبو عمرو الداني بإسناده عن زيد بن ثابت أنه قال :

« فجعلنا نختلف في الشيء ، ثم نجمع أمرنا على رأي واحد ، فاختلفوا في (التابوت) ، فقال زيد (التابوه) ، وقال النفر القرشيون (التابوت) ، قال : فأبيت أن أرجع إليهم وأبوا أن يرجعوا إلي ، حتى رفعنا ذلك إلى عثمان : فقال عثمان اكتبوه (التابوت) فإنما أنزل القرآن على لسان قريش » [1].

وكانت اللجنة ـ بإشراف عثمان عليها ـ لا تفعل شيئا لم يفعله الرسول ﷺ في النص القرآني .

أخرج البخاري في صحيحه (٢٨) أن ابن الزبير قال : لقلت لعثمان ابن عفان : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا ﴾ [2] قال : قد نسختها الأخرى ، قلت : فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن أخي ، لا أغير شيئا من مكانه » .

فقول ابن الزبير : « فلم تكتبها أو تدعها » ؟ فيه دلالة على أنهم كانوا يستوثقون لما يكتبون ، ويرجعون إلى الخليفة فيما إليه يحتاجون وإجابة عثمان لابن الزبير بقوله : (لا أغير شيئا من مكانه) فيه دلالة كذلك على أنه كان يرشدهم إلى ما فيه إجابة أسئلتهم ، ليتحقق لهم صواب عملهم .

وهكذا ظل عثمان يتعاهد لجنة الكتابة حتى أتموا نسخ المصاحف ، وأرسلوها إلى كل الأقطار .

ما الذي فعله عثمان ؟

إن عثمان ﷺ ما فعل في المصاحف التي أرسلها إلى كل قطر ، سوى أنه نسخها من الصحف البكرية ، بالطريقة التي بيناها سابقا ، بدليل أن عثمان أرسل إلى حفصة قائلا لها : (أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك) .

(١) المصاحف : ٢٥ ، ٢٦

(٢) سورة البقرة : آية ٢٤٠

وعلى ذلك فما يذكره البعض خاصة من المؤلفين المعاصرين من أن طريق جمع عثمان كانت كطريقة جمع أبي بكر تماما ، من الرقاع والأكتاف ونحو ذلك فهو غير صحيح ، لأنه لا يعقل أن يشغل عثمان الأمة بأمر قد فرغت منه في عهد أبي بكر ، وإن كان ما يتعللون به هو زيادة الاحتياط والتوثيق للنص القرآني ، وإلا فما فائدة هذه الصحف البكرية ؟ وهل لا يوثق بها ؟ إن هذا القول منهم عَبث .

إن هؤلاء الذين قالوا بأن عثمان كتب مصاحفه من الرقاع والأديم والعسب ونحوذلك مما كان عند الناس يسندون إلى روايات لا ترقى من الصحة ما رقت إليه أحاديث البخاري في هذا الموضوع ، من أن عثمان أرسل إلى حفصة لترسل إليه الصحف البكرية لينسخ منها المصاحف .

وعلى فرض صحة تلك الروايات التي تنص على أن عثمان كان يسأل من عنده شيء من الرقاع ونحوها ، فإن ذلك لم يكن للتثبت من قرآنية آية آية ، ولكن للتثبت من كيفية القراءة بها ، وفرق كبير بين قرآنية الآية والقراءة التي تقرأ بها الآية ، كما هو معلوم ، وكان تثبته من كيفية القراءة لأنه أراد أن تكتب المصاحف في مجموعها على جميع القراءات ، التي قرأها الرسولﷺ ، ليقضي على الفتنة التي حدثت بين المسلمين ، بسبب جهلهم هذه القراءات .

والدليل على أن عثمان ﷺ كان يتحرى للكيفية للقرآنية ، ما رواه أبو عمرو الداني في المقنع بإسناده أن عثمان قال : « يا أصحاب محمد ، اجتمعوا فاكتبوا للناس إماما يجمعهم ، قال : وكانوا في المسجد فكثروا ، فكانوا إذا تماروا في الآية يقولون : إنه أقرأ رسول الله ﷺ فلان بن فلان ، وهو على رأس أميال من المدينة ، فيبعث إليه فيجيء ، فيقولون : كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا ؟ فيكتبون كما قال » [(١)]

قال أبو شامة: « فأبو بكر جمع آيات كل سورة كتابة لها من الأوراق المكتوبة بين يدي النبي ﷺ ، بإملائه ، وهو على وفق ما كان محفوظا عندهم ، بتأليف النبي (ﷺ) ، وعثمان جمع السور على هذا الترتيب في مصحف واحد ، ناسخا لها من صحف أبي بكر .

(١) المقنع : ٧

وأما ما روى أن عثمان جمع القرآن أيضا من الرقاع ، كما فعل أبو بكر ، فرواية لم تثبت ، ولم يكن له إلى ذلك حاجة ، وقد كفيه بغيره ، فالاعتماد على ما قدمناه أول الباب . من حديث صحيح البخاري »[1].

ويقول الشيخ عبد الوهاب غزلان : « البحث عن الأشياء التي كتب فيها القرآن بين يدي النبي ﷺ ، ومقابلتها بالمحفوظ عند الصحابة ، كان في جمع أبي بكر »[2].

وعلى هذا : فلا يعجبني في هذا المقام ما يكتبه كثير من مؤلفي هذا العصر من أن لجنة المصاحف العثمانية كانت لا تكتب في هذه المصاحف إلا ما تحققت أنه قرآن ، وعلمت أنه هو الذي استقر في العرضة الأخيرة ، وأنها لم تكتب إلا ما كان متواترا ، وكذلك لم تكن تكتب ما نسخت تلاوته .

أقول لا يعجبني ممن يكتب في هذا المقام قوله هذا ، لأن هذا إن كان يقال في جمع أبي بكر ، فلا يقال في جمع عثمان ، لأن أبا بكر جمع القرآن كتابة ، بعد أن كان مفرقا ، فراعى فيه هذه الأشياء ، وأما عثمان فلم يجمعه من تفريق ، وإنما نسخ مصاحف من صحف منسوخة مجتمعة في مكان واحد ، مربوطة برابط واحد ، روعي فيها أثناء كتابتها ما يقوله هؤلاء المؤلفون .

وعلى ذلك فإن الأحرى في تسمية ما فعله عثمان أن لا يق عنه أنه جمع القرآن - وإن كان جائزا لغة واصطلاحا - إلا أن الأولى أن يقال : إنه نسخ المصاحف ، وهذا التعبير هو تعبير عثمان نفسه ، ﷺ ، حين أرسل إلى حفصة ، وقال لها : (أرسلي إلينا الصحف ، لننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك) .

عثمان يرسل المصاحف إلى الأقطار

وبعد أن قامت لجنة المصاحف العثمانية بنسخها من الصحف البكرية ، أمر الخليفة عثمان ﷺ بإرسال مصحف إلى كل قطر من أقطار خلافته ، ليقضي على التنازع الذي وصل إلى حد التكفير .

---

(١) المرشد الوجيز : ٧٥

(٢) البيان ، للشيخ عبد الوهاب غزلان : ٢١٣

وقد اختلف العلماء في عدد من المصاحف ، التي كتبتها هذه اللجنة ، فمنهم من يقول إنها أربعة ، ومنهم من ينص على أنها خمسة ، ومنهم من يذهب إلى أنها ستة ، ومنهم من يبلغ بالعدد إلى الثمانية ، ومنهم من يزيده إلى التسعة .

١ - قال أبو عمرو الداني في المقنع : « أكثر العلماء على أن عثمان لما كتب المصاحف جعلها على أربعة نسخ ، وبعث إلى كل ناحية واحدا ، الكوفة ، والبصرة ، والشام ، وترك واحدا عنده ، وقد قيل أنه جعله سبع نسخ ، زاد إلى مكة وإلى اليمن ، وإلى البحرين »(١) .

فالعدد هنا أربعة ، وقيل سبعة .

٢ - وقال ابن الجزري عن عثمان : « فكتب منها - أي من الصحف البكرية - عدة مصاحف ، فوجه بمصحف للبصرة ، ومصحف إلى الكوفة ، ومصحف إلى الشام ، وترك مصحفا بالمدينة ، وأمسك لنفسه مصحفا ، الذي يقال له الإمام ، ووجه بمصحف إلى مكة ، ومصحف إلى اليمن ، ومصحف إلى البحرين »(٢) .

فالعدد ثمانية .

٣ - ونص صاحب زاد القراء - كما نقل الزرقاني عنه - على أنها كانت ستة ، حيث قال : « لما جمع عثمان القرآن في مصحف سماه الإمام ، ونسخ منه مصاحف ، فأنفذ منها مصحفا إلى مكة ، ومصحفا إلى الكوفة ، ومصحفا إلى البصرة ، ومصحفا إلى الشام ، وحبس مصحفا بالمدينة .

٤ - وقال الحافظان ابن حجر والسيوطي : « المشهور أنها خمسة »(٣) .

٥ - ومن العلماء من نص على أن عثمان أرسل إلى القطر المصري بمصحف .

وعلى ذلك يتحصل من الأقوال السابقة أن لجنة المصاحف العثمانية قد نسخت تسعة مصاحف .

---

(١) المقنع : ١٠

(٢) النشر : ١/٧ .

(٣) انظر فتح الباري : ٨/٦٣٧ ، والاتقان : ١/ ٦٠

وإذا كان أبو عمرو الداني يقول : إن أكثر العلماء على أن عدد المصاحف أربعة ، وإذا كان كل من الحافظين ابن حجر والسيوطي : يقول : « المشهور أنها خمسة » وإذا كان آخرون يرجحون أنها ستة ، إلا أننا نميل مع من يزيد في عدد هذه المصاحف ، لا مع من يقلل منها ، ويؤيدنا في ذلك أمران : الأول السبب الذي من أجله كتبت هذه المصاحف . الثاني : الروايات التي رويت في إرسالها إلى الأقطار .

أما السبب الذي اقتضى كتابتها ، فهو كما سبق أن قلنا ـ القضاء على الفتنة التي كانت مشتعلة حينئذ ، وتأمين المسلمين مستقبلا من تكرارها .

فإذا عرفنا أن الخلافة الإسلامية في العهد العثماني ، قد ترامت أطرافها ، وتناءت أقطارها ، واستبحر عمرانها ، واختلط عربها بعجمها رجحنا قول من يزيد في عدد المصاحف ، على قول من يقلل من عددها ، وإلا فكيف يقضي على تلك الفتنة ؟ بل فما فائدة هذا العمل من عثمان ؟

أما الروايات التي رويت إرسال هذه المصاحف إلى الأقطار الإسلامية فإنها ترجح قول من يزيد على قول من يقلل ، ومن هذه الروايات ما يأتي :

١- أخرج البخاري عن أنس : « حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا » [(١)] .

٢- أخرج البيهقي في السنن الكبرى : « ثم رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل جند من أجناد المسلمين بمصحف » [(٢)] .

٣- أخرج ابن أبي داود في المصاحف : « حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف بعث عثمان إلى كل أفق بمصحف ، من تلك المصاحف التي نسخوا » [(٣)] .

من أجل هذا نميل مع من يزيد في العدد ، لامع من ينقص منه .

---

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .
(٢) السنن الكبرى للبيهقي ، كتاب الصلاة ، باب الدليل على أن ما جمعه الصحابة كله قرآن : ٢ / ٤٢ .
(٣) المصاحف : ١٩ .

وبعد أن أرسل عثمان إلى كل قطر بمصحف، حتى لا تكون فتنة بين الناس في كتابهم، وفساد كبير في دينهم، أراد أن يبلغ هذا العمل من الفائدة قمتها، فأمر بإحراق كل مصحف آخر، مما كان بأيدي الناس، حتى لا يكون للشيطان مدخل يلج منه في هذا الأمر، وحتى لا يكون في القطر الواحد من يشذ عن قراءة كل أهله، التي أخذوها عن المصحف الإمام.

أخرج البخاري في حديث الجمع العثماني عن أنس: «فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن، في كل صحيفة، أو مصحف أن يحرق». جاء في بعض الروايات (أن يخرق) بالخاء المعجمة، قال ابن حجر: «وفي رواية الإسماعيلي أن تمحى أو أن تحرق»، وفي رواية أبي قلابة (فلما فرغ عثمان من المصحف كتب إلى أهل الأمصار: إني قد صنعت كذا وكذا، ومحوت ما عندي فأمحوا ما عندكم)، والمحو أعم من أن يكون بالغسل أو التحريق، وأكثر الروايات صريح في التحريق، فهو الذي وقع، ويحتمل وقوع كل منهما، بحسب ما رأى من كان بيده شيء من ذلك، وقد جزم عياض بأنهم غسلوها بالماء، ثم أحرقوها، مبالغة في إذهابها»[١].

الأمة تحمد لعثمان فعله

ولأن توحيد كلمة الأمة واجتماع شملها، لا يتأتى إلا إذا كانت مجتمعة على كتاب ربها، ولأن من يستطيع أن يجمع شملها بذلك، فله من الأمة قمة الطاعة، ما دامت في المعروف، ولأن من يفعل ذلك فله من الله ومن أهل السماء كمال المحبة، ومن أمته وأهل الأرض تمام الرضا، ولأن عثمان فعل ذلك كله، فقد احتل عمله هذا من محبة الله وخلقه ما احتل، ونال من رضاه ورضا الأمة ما نال.

قال البيهقي عن جمع عثمان فيما ينقله أبو شامة: «وذلك كله بمشورة من حضره من علماء الصحابة، ﷺ، وارتضاه علي بن أبي طالب، ﷺ، وحمد أثره فيه»[٢].

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٦٣٧

(٢) عن المرشد الوجيز لأبي شامة: ٦٢.

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف بإسناده عن سويد بن غفلة قال : « قال علي في المصاحف : « لو لم يصنعه عثمان لصنعته » [1] .

كما أخرج ابن أبي داود أيضا في المصاحف ، وأبو عمرو الداني في المقنع عن مصعب بن سعد قال : « أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف ، فأعجبهم ذلك ، وقال : لم ينكر ذلك منهم أحد » [2] .

وجاء في المصاحف أيضا عن سويد بن غفلة الجعفي أنه قال : « والله لا أحدثكم إلا شيئا سمعته من علي بن أبي طالب ﷺ ، سمعته يقول : (يا أيها الناس لا تغلو في عثمان ، ولا تقولوا له إلا خيرا ، في المصاحف ، وإحراق المصاحف ، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإ منا جميعا) ، ثم قال بعد ذلك « والله لووليت لفعلت مثل الذي فعل » [3] .

أما ما يروى عن عبد الله بن مسعود ﷺ في هذا الشأن ، من أنه اعترض على فعل عثمان ، فإن هذا كان أول الأمر ، ثم لما علم صواب عثمان في ذلك ، وأن مصلحة الأمة فيما فعله عثمان ، رجع عن رأيه إلى رأي عثمان ، الذي أجمعت عليه الأمة كلها .

والدليل على رجوعه عن رأيه إلى رأي الأمة ، ما أخرجه ابن أبي داود في المصاحف بإسناده عن الجعفي ، في باب (رضاء عبد الله بن مسعود لجمع عثمان ﷺ المصاحف) قال : « فزعت فيمن فزع إلى عبد اله في المصاحف ، فدخلنا عليه ، فقال رجل من القوم : إنا لم نأتك زائرين ، ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر ، فقال : « إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، وإن الكتاب قبلكم كان ينزل من باب واحد ، على حرف واحد » [4] .

رحم الله عثمان ، ورضي عنه وأرضاه ، فلقد حفظ بهذا العمل وحدة الأمة ، بعد

(١) المصاحف : ١٢ .

(٢) المصاحف : ١٢ . والمقنع : ١٨ .

(٣) المصاحف : ٢٣ ، ٢٢

(٤) المصاحف : ١٨ .

أن كانت على شفا جرف هار ، كما أنقذها من التنازع في كتاب ربها ، بعد أن كادت تختلف فيه اختلاف اليهود والنصارى في كتبهم ، وكانت من ذلك قاب قوسين أو أدنى .

قال أبو مجلز : « يرحم الله عثمان ، لو لم يجمع الناس على قراءة واحدة لقرأ الناس القرآن بالشعر » .

وقال حماد بن سلمة : « كان عثمان في المصاحف ، كأبي بكر في الردة » .

وقال عبد الرحمن بن مهدي : « كان لعثمان شيئان ، ليس لأبي بكر وعمر مثلهما ، صبره نفسه ، حتى قتل مظلوما ، وجمعه الناس على المصحف »[1] .

سمات الجمع العثماني

إذا علمنا أن المصاحف العثمانية قد نسخت من الصحف البكرية ، أدركنا بسهولة أن سمات الجمع العثماني هي نفس سمات الجمع البكري ، ولذلك فنحن الآن في غنى أن نفردها بالحديث هنا ، كما يفعل أكثر من يكتبون في هذا الموضوع ، لأن هذا يوهم أن المصاحف العثمانية قد جمعت مرة أخرى من جديد ، من العظام والرقاع ، واللخاف والعسب ، ونحوها ، بل قال بهذا القول بعضهم ، وقد رددنا عليه قريبا .

ولكننا نريد أن نشير إلى سمة في المصاحف العثمانية ، كانت موجودة أيضا في الصحف البكرية ، ألا وهي خلو المكتوب من النقط والشكل ، فلقد أعطت هذه السمة فائدة عظيمة للمصاحف العثمانية ، لم يكن من المستطاع توافر هذه الفائدة بصورة كاملة في الصحف البكرية .

فنظرا إلى أن الصحف البكرية كانت تمثل مصحفا واحدا ، وأن المصاحف العثمانية كانت متعددة ، فلقد تمكن للصحابة أثناء كتابة المصاحف العثمانية تضمينها كل الأحرف السبعة ، فكانت في مجموعها متضمنة لها ، غير تاركة لحرف منها ، بخلاف الصحف البكرية فلم يكن من المستطاع تضمينها كل الأحرف السبعة ، وإن كانت قد تضمنت بعضها ، وذلك لأن بعض الألفاظ أثناء كتابتها لا تحتمل إلا قراءة واحدة ، بينما

(١) انظر ثناء هؤلاء العلماء في : المصاحف : ١٣ ، وجمال القراء : ١ / ٩٠ ، والمرشد الوجيز : ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ .

هي في الواقع لها أكثر من قراءة ، فاكتفى في الصحف البكرية برسم واحد ، أما المصاحف العثمانية فقد كتب فيها كل الأوجه موزعة على كل المصاحف .

السمة الظاهرة التي كانت للمصاحف العثمانية ولم يوجد في الصحف البكرية أنها كانت مرتبة السور ، كما هو محفوظ ومعلوم ، وكما هو مكتوب الآن في المصاحف التي بين أيدينا .

وما عدا ذلك فالمصاحف العثمانية هي صورة طبق الأصل للصحف البكرية ، التي اقترح كتابتها عمر بن الخطاب لتكون إماما يرجع إليه المسلمون وقت الحاجة .

مقارنة بين كل جمع وغيره في العهود الثلاثة

من خلال جولتنا السابقة حول جمع القرآن في كل من العهد النبوي ، والبكري ، والعثماني ، نستطيع أن يلخص مقارنة سريعة بين كل جمع وغيره في هذه العهود الثلاثة ، على النحو التالي :

١- فمن حيث الداعي إلى الجمع في كل عهد ، يتضح لنا :

أن سبب الجمع في العهد النبوي ، هو زيادة الاحتياط ، والمبالغة في توثيق النص القرآني ، وإيجاد مصدر آخر مكتوب يرجع إليه المسلمون وقت الحاجة ، ولذلك فما أن وجدت تلك الحاجة بعد معركة اليمامة في العهد البكري إلا وأتو بهذا المكتوب بنين يدي النبي ﷺ ، والذي كان مفرقا في أشياء غير متجانسة ، ونسخوا منه الصحف البكرية المتجانسة ، وربطوها برابط واحد .

. أما الداعي إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر فكان خشية ضياع شيء ، من صدور الحفاظ بموتهم ، أو استشهادهم .

أما في العهد العثماني : فكان الداعي إلى الجمع ، هو جمع كل قطر على قراءة معينة مأخوذة عن الرسول ﷺ ، فلا يشذ أحد عن المصحف الإمام الذي أرسل إلى قطره ، وبذلك يقضي على النزاع الذي وصل إلى حد تكفير بعضهم بعضا ، وحتى يؤمن على الأمة من حدوث مثل ذلك مستقبلا .

٢- تجريد الكتابة من المنسوخ تلاوة ، قدر مشترك في كل العهود الثلاثة ، أما في العهد النبوي ، فلئلا يلتبس الناسخ بالمنسوخ ، وأما في العهد البكري ، فلأن نزول القرآن قد تم ، بالإضافة إلى أنهم كانوا يكتبون مما كتب بين يدي النبي ﷺ ، وأما في العهد العثماني ، فلأن المصاحف العثمانية منسوخة من الصحف البكرية ، التي كانت خالية من كل ما نسخ تلاوة .

٣- كتابة القرآن في مكان واحد ، كان خاصا بالعهدين البكري والعثماني ، للدواعي التي سبق ذكرها الآن ، أما في عهد النبي ﷺ فكأنْ غير مجموع في موضع واحد ، بل كان مفرقا في الرقاع واللخاف ، والعسب وغير ذلك ، لأسباب أوجبت ذلك ، وقد نصصنا عليها أثناء جمع القرآن كتابة في العهد النبوي .

٤- تجريد الكتابة من النقط والشكل ، قدر مشترك في العهود الثلاثة ، ليحتمل اللفظ قدر الإمكان ، من الأحرف السبعة ما يحتمل ، ولذلك كانت المصاحف العثمانية في مجموعها شاملة لها كلها .

ترتيب الآيات في سورها كتابة قدر مشترك في العهود الثلاثة أيضا . إلا أنها في العهد النبوي لم يكن يربطها رابط واحد ، نظرا لعدم تجانس الأشياء المكتوبة فيها ، فكانت مبعثرة ، إلا أنها كانت معلومة للجميع ، أما في العهد البكري والعثماني فكانت في مكان واحد ، لتجانس ما كتبت فيه .

أما ترتيب السور كتابة : فلم يكن إلا في الجمع العثماني ، أما في العهد النبوي والبكري فلم تكن مرتبه كذلك ، ولكنهم كانوا يعرفون ترتيبها ، من إقراء الرسول ﷺ أياهم القرآن ، ومن قراءته في الصلاة وخارجها .

مصير الصحف البكرية والمصاحف العثمانية

وقد يسأل فيقول : أين هي الصحف البكرية ـ التي جمع فيها القرآن ؟ وأين هي المصاحف العثمانية التي أرسلت إلى الأقطار ؟

وبادئ ذي بدء نقول : ما رددناه كثيرا : إن المعول عليه هو الاعتماد على المحفوظ

٩

في الصدور، لا على المكتوب في السطور، فلو لم يكتب القرآن أصلا ما ضره ذلك في شيء، ما دام قد تم نقله في كل عصر بواسطة عدد يمثل التواتر.

أما الصحف البكرية: فقد ذكرنا أنها كانت عند أبي بكر ثم عند عمر، حياتهما، ثم أوصى بها عمر لتكون عند أم المؤمنين ابنته حفصة رضي الله عنها، فكانت عندها، ثم لما تولى عثمان الخلافة، واحتاج إلى نسخ المصاحف، أرسل إليها، ثم نسخها منها، ثم ردها إليها مرة أخرى، فلما كان زمن معاوية، وكان مروان بن الحاكم أميرا على المدينة من جهته، أرسل مروان إلى حفصة لتعطيه هذه المصاحف، فأبت، فلما كان يوم وفاتها، وعقيب دفنها أرسل مروان إلى أخيه عبد الله بن عمر ليأخذ هذه الصحف، فأرسلها إليه فقام بحرقها [1].

أما المصاحف العثمانية: فالبعض ينص على وجودها في بعض المكتبات كمكتبة استانبول بتركيا، والبعض يتشكك في وجودها الآن.

وقديما بعض الوقت قال ابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤هـ: «وأما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام، بجامع دمشق، عند الركن، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديما بمدينة طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق، في حدود ثماني عشرة وخمسمائة، وقد رأيته كتابا عزيزا، جليلا عظيما ضخما، بخط حسن مبين، قوي، بحبر محكم، في رق أظنه من جلود الإبل، والله أعلم» [2].

ومع بعض الطلاب الأتراك الآن مصحف يقولون عنه أنه مصور عن المصحف العثماني الإمام، الموجود في خزانة مكتبة استانبول، بتركيا، وهو غير منقوط، ولا مشكول.

والشيخ الزرقاني يتشكك في مثل هذه المصاحف التي يدعي البعض الآن أنها هي المصاحف العثمانية الأئمة، فيقول:

«ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن، فضلا عن

---

(١) انظر في ذلك المصاحف لأبن أبي داود صفحة ٢١، وفتح الباري: ٨/ ٦٣٧.
(٢) فضائل القرآن: ١٥.

تعيين أمكنتها ، وقصارى ما علمناه أخيرا أن ابن الجزري رأى في زمانه مصحف أهل الشام ، ورأى في مصر مصحفا أيضا .

أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب ، والآثار في مصر ، ويقال عنها أنها مصاحف عثمانية فإننا نشك كثيرا في صحة هذه النسبة إلى عثمان ﷺ ، لأن بها زركشة ، ونقوشا موضوعة ، كعلامات للفصل بين السور ، ولبيان أعشار القرآن ، ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ، ومن النقط والشكل أيضا ، كما علمت .

نعم أن المصحف المحفوظ في خزانة الآثار بالمسجد الحسيني ، والمنسوب إلى عثمان ﷺ مكتوب بالخط الكوفي القديم ، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً ، ورسمه يوافق رسم المصحف المدني أو الشامي ، حيث رسمه فيه كلمة (من يرتدد) من سورة المائدة ، بدالين اثنين ، مع فك الادغام ، وهي فيها بهذا الرسم فأكبر الظن ، أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية ، على رسم بعضها»[1]

وأيا ما كان مذهب البعض ، الذي يؤيده الواقع حالياً ، أو مستقبلاً أو يخالفه ، في وجود عين المصاحف العثمانية ، التي كتبت بأيدي الصحابة ، أو عدم وجودها ، فإن ذلك قلنا سابقاً ، لا يضير القرآن في شيء ، لأن المعول عليه هو الحفظ في الصدور ، والتلقي شفهياً ، بطريق يحصل به التواتر في كل عصور ، وليس الكتابة في السطور ، والأخذ من بطون المصاحف .

يقول الدكتور أبو شهبة : «ثم إن عدم بقاء المصاحف العثمانية قاطبة لا يضرنا شيئًا مادام المعول عليه هو النقل ، والتلقي ثقة عن ثقة ، وإماماً عن إمام إلى النبي ﷺ ، وذلك متواتراً مستفيض ، على أكمل وجه في القرآن »[2] .

وبالإضافة إلى ما سبق : فإنه من المعلوم أن المصاحف العثمانية هذه قد نسخ منها النساخ في كل عصر ، الآلاف المؤلفة ، بما هو صورة طبق الأصل منها ، وقد أجمعت الأمة

---

(١) مناهل العرفان : ١/ ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

كلها على أن هذه الآلاف لا تخالف عين ما كان في المصاحف العثمانية ذاتها ، في أي حرف من حروفها ، وعلى ذلك فكأن عين المصاحف العثمانية موجودة بالفعل ، فالشبه الكامل بين ما هو منسوخ منها ، وبينها ذاتها ، كالشبه القائم بين كتاب مصور بالآلات الحديثة عن كتاب آخر ، أنه يحل محله تمام بتمام .

وعلى ذلك فلا يضر القرآن ولا المسلمين عدم بقاء عين المصاحف العثمانية اليوم.

اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة

تكرر أثناء الحديث عن الجمع البكري والعثماني ، ذكر الأحرف السبعة مرارًا ، ولم نشأ حينئذ التوسع بأكثر مما تعرضنا له ، وأرجأنا ما رأينا إرجاءه إلى هنا ، ونود أن نشير بها إلى أمرين مهمين في هذا الموضوع ، وبشيء وسط بين الإيجاز والإطناب ، نظراً لعظيم أهميتهما وشديد اتصالهما بموضوع جمع القرآن الكريم .

الأمر الأول : معنى الأحرف السبعة .

الأمر الثاني : اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة كلها ، لا على حرف واحد .

أما الأمر الأول وهو معنى الأحرف السبعة :

فهو مبحث مستقل من مباحث علوم القرآن ، ويفرده العلماء بالتأليف ، ويجعلونه مستقلاً بالتصنيف ، وعلى ذلك : فإن بيان هذه الأحرف بالتفصيل ، وتوضيح مذاهب العلماء فيها ، وتصويب ما نراه صائباً ، وتخطئة ما نراه خاطئاً ، يعتبر موضوعاً آخر ، غير موضوعنا الذي أفردنا له هذا الكتاب ، وهو جمع القرآن الكريم ، خاصة أن أقوال العلماء في ذلك وصلت في عدد بعضهم إلى أربعين قولاً ، ولكن يكفينا أن نشير إلى ما نميل إليه في هذا الموضوع ، فنراه - من وجه نظرنا - صواباً إن شاء الله .

حقيقة أنني بعد كثرة النظر ، وطول الفكر في هذا الموضوع ، وجدت أن أي قول من هذه الأقوال لا يخلو منجملة اعتراضات قوية عليه .

ومع ذلك فلقد لفت هذا الرأي نظري ، ونظرت إلى الاعتراض الموجه إليه

وتوصلت إلى إجابة مقنعة - في نظري - عليه ، بحيث أصبح - في نظري - جديراً بالقبول ، دون الآراء الأخرى .

وقبل أن نذكر هذا القول ثم الاعتراض عليه ، ثم الرد على هذا الاعتراض . وبيان أحقيته بالصدارة على غيره ، ويحسن بنا أن نعرف ما المقصود بكلمة (حرف) في ميدان قراءة القرآن الكريم .

يقول ابن منظور في لسان العرب : «كل كلمة تقرأ على الوجوه من القرآن تسمى حرفاً ، تقول هذا في حرف ابن مسعود ، أي في قراءة ابن مسعود ، قال ابن سيده : والحرف القراءة التي تقرأ على أوجه »[1]

وعلى ذلك : فإن كل وجه تقرأ به أي لفظ من ألفاظ القرآن يطلق عليه حرف ، مهما كان نوع هذا الوجه .

فقراءة اللفظ بالزيادة وجه وحرف ، وبالنقصان وجه وحرف آخر ، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ في سورة التوبة [2] بزيادة (من) ، وبدونها ، فهذان وجهان وحرفان ، وكذلك اللهجات ، فكل لهجة من لهجات العرب يطلق عليها وجه وحرف ، وكذلك الاختلاف في الألفاظ ذاتها أيضاً نحوا (فتبينوا) و (فتثبتوا) من سورة الحجرات ، فهذان وجهان وحرفان ، وهكذا .

أما رأي القاضي عياض في الأجرف السبعة ، فقد ذهب إلى أن هذه الأحرف ليس منحصرة في سبعة فقط ، بل المراد بها الكثير ، وذلك لأن العرب حينما تريد التكثير في عدد ، فإن كان آحاداً ذكرت العدد سبعة ، وإن كان عشرات ذكرت العدد سبعين . وإن كان مئات ذكرت العدد سبعمائة ، والنصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية في ذلك مشهورة .

وقد اعترض العلماء على القاضي عياض ، في رأيه هذا ، حيث قالوا : أن المراد هو حقيقة العدد ، الذي بين الستة والثمانية ، واستدلوا على صحة اعتراضهم هذا بمثل ما

(١) لسان العرب (حرف)

(٢) الآية رقم : ١٠٠ .

جاء في صحيحي البخاري ومسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ، أن رسول الله ﷺ قال : « أقرأني جبريل على حرف فراجعته ، فلم أزل أستزيده ويزيدني ، حتى انتهى إلى سبعة أحرف »[1]

قال العلماء : فهذه الاستزادة من حرف إلى سبعة أحرف ، تدل على أن العدد سبعة يراد به حقيقته المنحصرة بين الستة والثمانية .

هذا الاعتراض يبدو للناظر فيه ، أن فيه من الوجاهة والقوة ما يأتي على رأي القاضي عياض فينسفه من قواعده نسفا .

ولكني بفضل الله تعالى استطعت - من خلال جمع الأحاديث الخاصة بالأحرف السبعة - أن أصل إلى اجابة شافية على هذا الاعتراض ، يترتب عليها - في نظري - أن يكون القاضي عياض أولى بالقبول من غيره . .

فلقد ظهر لي بعد جمع الأحاديث في هذا الموضوع ، والتدبر الشديد فيها ، أنها تنقسم إلى قسمين ، قسم مجمل مختصر ، يدل على الإذن بقراءة القرآن على سبعة أحرف ، وقسم مفصل مطول ، يدور فيه حوار بين جبريل والنبي عليهما الصلاة والسلام ، ينتهي هذا الحوار المفصل إلى الأذن بقراءة القرآن على سبعة أحرف .

وإذا أمعنا النظر في هذا القسم المطول ، فإننا سنجد أحاديثه كلها تتفق في شيئ ملفت للنظر ، ألا وهو أن الرسول (ﷺ) ، حينما طلب المزيد من الأحرف التي عليها تقرأ الأمة القرآن ، تدرج في الأذن من حرف ، ثم إلى حرفين ، ثم إلى ثلاثة ، ثم لما طلب المزيد قفز الإذن من العدد ثلاثة إلى العدد سبعة مباشرة ، دون ذكر للعدد أربعة ، وخمسة ، وستة ، مما يفهم منه بوضوح الأذن بقراءة القرآن على حروف كثيرة ، غير منضبطة بعدد معين ، بشرط أن تكون تلك الأحرف مأخوذة عن الرسول ﷺ .

ومثال ما جاء في هذا الحوار المطول ، وقفز الإذن فيه من العدد ثلاثة إلى العدد سبعة ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب أن النبي (ﷺ) كان عند أضاة[2] بني

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب (٥) ، ومسلم في كتاب المسافرين ، باب (٢٧٤) .
(١) الاضاة : الماء المستنقع .

غفار ، قال : فأتاه جبريل عليه السلام، فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وأن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاء فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف ، فأيما حرف قرأوا عليه فقد أصابوا » [١] .

فهذا القفز من الثلاثة إلى السبعة مباشرة ، باسقاط العدد أربعة ، وخمسة ، وستة ، يرجّح أن المراد ليس حقيقة السبعة ، المنحصرة بين الستة والثمانية ، وإنما المراد الكثرة ، جريًا على عادة العرب ، حينما يريدون التكثير في الآحاد ، كما سبق آنفًا .

وعلى هذا نرجح أن المراد بالأحرف السبعة ، كل الأوجه التي قرأ بها رسول الله ﷺ ، وهي أكثر من سبعة أوجه ، أو أحرف ، كما هو الواقع في كتابة القرآن ، وفي المنطق بتلك الأوجه والأحرف .

لذلك فإننا نميل إلى رأي القاضي عياض بأن عدد السبعة لا يراد به حقيقته وإنما يراد به الكثير ، وهو الذي تؤيده الأحاديث المطولة في الأحرف السبعة ، ويؤيده واقع النص القرآني المكتوب والمتلو على حد سواء .

أما من يقول بحقيقة العدد فهو مطالب بتعيين هذه الأحرف ، بحيث لا تقل ولا تزيد عن سبعة ، وكل الذين عينوها بما لا يقل ولا يزيد عن هذا العدد ، ولم تخل آراؤهم من جملة اعتراضات قوية خاصة أولئك الذين قالوا بأنها لغات سبع ، أو لهجات سبع ، أو ما ذهب إليه أبو الفضل الرازي . . . .

وذلك لأن اللغات العربية التي وردت في القرآن أكثر من سبع وإن كانت كلها قرشية ، إما بالأصل ، وإما بالصيرورة ، لأن قريشا كانت مركز الإشعاع الكلامي والتجاري والاجتماعي ، وكانت تأخذ من كل القبائل أفصح لغاتها وتتكلم بها ، فنزل القرآن بلسان قريش الذي تتحدث به ، سواء أكان بالتأصيل ، أم بالتصيير ، إلى غير ذلك من الاعتراضات الموجهة إلى هذا الرأي .

---

(١) مسلم في كتاب المسافرين ، باب (٢٤٧) .

وكذلك الذين قالوا أن المراد بالأحرف السبعة لهجات سبع ، فقولهم هذا مرجوح أيضاً .

١ - لأن اللهجات العربية أكثر من سبع .

٢ - ثم هم مطالبون بتعيين هذه اللهجات ، لتعضيد رأيهم .

٣ - ثم إن الاختلاف الذي وقع بين المسلمين ، سواء أكان في حياة الرسول (ﷺ) أم بعد وفاته لم يكن اختلافاً في اللهجات ، وإنما كان في ذات الألفاظ ، فلختلاف اللهجات ذاتها ، بدليل أن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم ، اللذين اختلفا في قراءة القرآن ، واختصما إلى رسول الله (ﷺ) في ذلك ، وأقر قراءة كل منهما ، كانت لغتهما واحدة ، ولهجتهما لهجة واحدة ، حيث كان كل واحد مهما قرشياً .

أما ما ذهب إليه أبو الفضل الرازي من تحديد هذه السبعة بقوله : «الكلام لا يخرج عن سبعة أوجه في الاختلاف :

الأول : اختلاف الأسماء من إفراد وتثنية ، وجمع ، وتذكير ، وتأنيث .

الثاني : اختلاف تصريف الأفعال من ماض ، ومضارع ، وأمر .

الثالث : اختلاف وجوه الإعراب .

الرابع : الاختلاف بالزيادة والنقصان .

الخامس : الاختلاف بالتقديم والتأخير .

السادس : الاختلاف بالإبدال .

السابع : الاختلاف في اللغات - يريد اللهجات - كالفتح والإمالة والترقيق ، والتفخيم والإظهار ، والإدغام ، ونحو ذلك »[١]

(١) انظر فتح الباري : ٨/ ٦٤٦ ، ومناهل العرفان : ١/ ١٥٥ .

أقوال ما ذهب إليه أبو الفضل الرازي ومن تبعه كالشيخ الزرقاني في مناهل العرفان وغيره لا يخلو من اعتراض ، وذلك لأن ما ذكره الرازي هو في حقيقته أكثر من سبعة أحرف ، فالوجه الأول الذي ذكره ، وهو اختلاف الأسماء يضم أكثر من حرف ، ومن قرأ (أماناتهم) بالإفراد ، فقراءته حرف ، ومن قرأ (أماناتهم) بالجمع فقراءته حرف آخر ، والوجه الرابع وهو الاختلاف بالنقص والزيادة حرفان ، وليس حرفاً واحداً ، فمن قرأ (تجري من تحتها الأنهار) من سورة التوبة بدون (من) فقراءته حرف ، ومن قرأ (من تحتها) بإثبات (من) فقراءته حرف آخر ، والوجه السابع وهو اللهجات ليس حرفاً واحداً ، ظاهر جلي فإننا لا نعتبر كل الأوجه التي ذكرها ، بل كل لهجة بمفردها حرف ، وكذلك بقية الأوجه التي ذكرها ، والتي تنص بصراحة بزيادة الأحرف عن سبعة ، وليست منحصرة في سبعة ، مما يضعف هذا الرأي بسهولة .

وعلى ذلك فإني أرجح رأي القاضي عياض في هذا الموضوع ، وأن المراد بالأحرف السبعة ، كل الأوجه التي كان يقرأ رسول الله (ﷺ) بها القرآن ، سواء أكانت لهجات ، أم غيرها ، لما قدمناه من أدلة نراها من وجهة نظرنا كافية في ترجيح هذا الرأي على غيره .

هذا هو رأينا فيها ، ولا نملك هنا إلا أن نقول ما قاله مصطفى صادق الرافعي وهو يتحدث عنها : (وما داموا قد اختلفوا فدعنا نختلف معهم ، ونأخذ بالأشبه والأمثل ، مما يوافق القرآن نفسه ، وقد أنزله الله الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، فإن ذهبت مذهبنا ، وإلا فخذ ما أحببت »[١]

أما الأمر الثاني وهو :

اشتمال المصاحف العثمانية على الأحرف السبعة

فقد ذهب إلى ذلك جمهور العلماء سلفاً وخلفاً ، حيث قالوا أن المصاحف العثمانية قد اشتملت في مجموعها عليها كلها .

قال ابن الجزري : «وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف ، وأئمة المسلمين ، إلى أن هذه المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط ،

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي : ٦٨ .

جامعة للعرضة الأخير ، التي عرضها النبي (ﷺ) ، على جبرائيل عليه السلام ، متضمنة لها ، ولم تترك حرفاً منها . » إلى أن قال : « وهذا القول هو الذي يظهر صوابه ، لأن الأحاديث الصحيحة ، والآثار المشهورة المستفيضة تدل عليه وتشهد له »[1]

ومع أن ذلك المذهب الذي قال به الجمهور ، سلفاً وخلفاً ، هو الذي تؤيده البراهين الصحيحة ، إلا أن البعض كالإمام ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ ومن لف لفه من بعهد ، يرى أن عثمان أسقط من هذه المصاحف ستة أحرف ، وأبقى حرفاً واحدًا ، ورفض أن يقرأ أحد بغيره .

يقول ـ رحمه الله ـ بالحرف الواحد : « الأحرف السبعة التي أنزال الله بها القرآن هي لغات سبع في حرف واحد ، وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني ، كقول القائل : هلم ، وأقبل ، وتعال ، وإلى ، وقصدي ، ونحوي ، و قربي ، و نحو ذلك ، مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من المنطق ، وتتفق فيه المعاني »[2]

ثم قال بالحرف الواحد أيضاً : « إن الأمة أمرت بحفظ القرآن وقراءاته ، وخيرت في قراءته بأي حرف الأحرف السبعة شاءت ، فرأت ـ لعلة من العلل أوجبت عليها الثبات على حرف واحد ـ قراءته بحرف واحد ، ورفض القراءة بالأحرف الستة الباقية »[3] .

ونرد على ابن جرير هذا ، في عجالة سريعة ، فنقول : أنه رحمه الله قد أخطأ هنا خطأين ، الخطأ الأول : تفسيره للمعنى المراد من الأحرف السبعة ، والخطأ الثاني : ذهابه إلى ان الأمة أجمعت على حرف واحد ، ورفضت الأحرف الستة الأخرى .

أما خطأه الأول : وهو تفسيره لمعنى الأحرف السبعة ، بقوله أنها لغات سبع في حرف واحد ، وكلمة واحدة ، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني ، فهو خطأ ظاهر جلي . . .

١ - وذلك لأن اللغات الواردة في القرآن لا تنحصر في سبع لغات ، بل أكثر ، وإن كانت كلها ـ كما قلنا سابقاً ـ قرشية ، إما بالتأصيل ، وإما بالتصيير .

---

(٢) النشر في القراءات العشر : ١/ ٣١ .
(٣) جامع البيان ، لابن جرير الطبري : ١/ ٥٧ ، ٥٨ ، ط . دار المعارف .
(٤) المصدر السابق : ١/٥٨ ، ٥٩ .

٢ - ولندرة الكلمة التي يوجد لها سبعة مرادفات في القرآن .

٣ - ولأن في تفسيره بهذا المعنى قصوراً شديداً ، حيث لم يشمل أوجه القراءات الأخرى المتعددة ، والتي لا زال القرآن يقرأ بها إلى اليوم .

أما الخطأ الثاني : وهو ذهابه إلى أن عثمان جمع الناس على حرف واحد ، ورفض القراءة بالأحرف الأخرى الستة ، وحذفها من جميع المصاحف ، فهو قول يحتاج إلى وقفة طويلة ، ولكننا في هذه العجالة الشديدة ، نشير خطئه في هذا بما يأتي :

١ - قوله أن الأمة أجمعت على حرف واحد ، دون الأحرف الستة الباقية ، قول عار عن الصحة ، ولا يعضده أي دليل .

بل يستحيل عليهم أن يفعلوا ذلك ، لأن هذا يؤدي إلى ضياع أحرف ستة ، نزل بها القرآن ، مع عدم نسخها .

٢ - والدليل على بقائها إلى اليوم ثلاثة أمور :

(أ) الأمر الأول : استمرار اختلاف العلماء في تعيينها إلى وقتنا هذا ، ومع أن هذا الاختلاف إلى الآن ما زال قائماً إلا أن الأمة تكاد تجمع على بقائها إلى اليوم ، ولم يشذ عن قول الجمهور إلا النذر اليسير .

(ب) الأمر الثاني : ما نشاهده إلى الآن ، في جميع الأقطار الإسلامية ، ومن أن لكل قطر قراءة خاصة ، ومتواترة ، وتختلف في بعض حروفها عن الأقطار الأخرى .

(جـ) الأمر الثالث : ما جاء في بعض الأحاديث من تعليل الرسول (ﷺ) ، طلب الزيادة من هذه الأحرف ، بأن في أمته المرأة العجوزة ، والشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية والأمي ، وكل هذه الأنواع ما زالت موجودة إلى اليوم ، بل إلى أن تقوم الساعة ، فلا يعقل أن يكون التخفيف عن هذه الأنواع خاصاً بعهده (ﷺ) ، ولا سيما وأن دعوته عامة إلى كل الثقلين وخالدة خلود الزمن .

أخرج الترمذي في سننه ـ قال عنه حسن صحيح ـ عن أبي بن كعب قال : « لقي

رسول الله (ﷺ) جبريل ، فقال : يا جبريل أني بعثت إلى أمة أميين ، منهم العجوز ، الشيخ الكبير ، والغلام ، والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط ، قال يا محمد : إن القرآن أنزل على سبعة وأحرف »[1]

٣ - إذا كان ابن جرير ومن لف لفه ، يرون أن عثمان قد حذف من المصاحف ستة أحرف ، وأبقى حرفاً واحداً ، ليكون ذلك وسيلة للقضاء على ما وقع من تنازع بين المسلمين في قراءة القرآن ، فإنهم في ذلك مخطئون .

فعثمان لم يتخذ هذه الوسيلة ، كما لم يتخذها من قبل رسول الله (ﷺ) حينما تنازع بعض الصحابة في القراءة ، فلم يلغ (ﷺ) أحرفاً وأبقى على حرف ، حتى تتحد قراءات الجميع ، بل أقر قراءة الجميع ، وكذلك فعل عثمان ، فلم يلغ أي حرف ، فضلاً عن ستة أحرف ، بل كتب مصاحف متعددة تشمل في مجموعها ، كل الأحرف وأرسل إلى كل قطر مصحفًا ، يوافق قراءة من نزل بينهم من الصحابة ، حتى يجتمع القطر كله على قراءة واحدة .

٤ - ثم أليس من حقنا أن نتسائل قائلين : إذا كانت هناك أحرف ستة قد منع عثمان النساخ من إثباتها في المصاحف ، ورفض من الأمة القراءة بها ، وأجمع الكل على فعله ، فأين هذه الأحرف الستة من كتب التراث ، هل محيت من الوجود امحاءً كاملاً ، وزالت من الدنيا زوالاً شاملاً ، بحيث أصبحت في خبر كان ، فلم يعد لها ذكر في ذاكرة الزمان ؟ إن هذا لشيء عجاب . .

يقول الشيخ الزرقاني : عليه رحمة الله في هذا الصدد : « ولنفرض جدلاً أن نزاع المسلمين في أقطار الأرض أيام خلافة عثمان ، ﷺ ، قضي عليه أن يجمع المسلمين على حرف واحد ، في القراءة ، فلماذا لم تسمح نفسه الكريمة ، بابقاء الستة أحرف الباقية ، للتاريخ ، لا للقراءة ، مع أن الضرورة تقدر بقدرها ، وهذه الستة أحرف لم تنسخ ، لا تلاوة ولا حكما ، حتى تذهب بجرة قلم كذلك ، ثم يبخل عليها بالبقاء للتاريخ وحده ، في أعظم مرجع ، وأقدس كتاب ، وهو القرآن الكريم على حين أن الصحابة رضوان الله

(١) الترمذي ، كتاب القراءات ، باب (١١) .

عليهم أجمعين ، حفظوا للتاريخ آيات نسخت تلاوتها ، ونسخت أحكامها جميعاً ، وعلى حين انهم حفظوا قراءات شاذة في القرآن ، ثم نقلت إلينا ، وكتب لها الخلود إلى اليوم ، وإلى ما بعد اليوم ، بل نقلوا إلينا أحاديث منسوخة ، وتناقل العلماء أحاديث موضوعة ، ونصوا على حكم كل منها ، وعلى اهمال العمل بها))

وعلى ذلك نستطيع أن نقول بكل ثقة ويقين : أن المصاحف العثمانية في مجموعها قد اشتملت على كل الأحرف السبعة ، ولم يحذف من مجموعها حرف واحد . فضلا عن ستة كاملة ، كما ذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه ، عفا الله عنهم ، وجزاهم عن اجتهادهم خيراً ، وإن كانوا مخطئين .

الفصل السادس

شبهات حول جمع القرآن الكريم والرد عليها

شبهات حول جمع
القرآن الكريم والرد عليها

نظرًا للحقد الظاهر ، الذي لم يستطع أعداء الإسلام إخفاءه تجاه القرآن الكريم ، وتجاه من آمنوا به ، فقد وضعوا عدة شبهات للمسلمين في أقدس المقدسات وهو القرآن الكريم ، الذي يستمدون منه عقيدتهم وعبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم ، وهم يأملون بشبهاتهم هذه أن لا يخلو لهم الأمر من أحد مكسبين :

١- أما أن يقع في شراك هذه الشبهات بعض الجهلة من المسلمين فيكفروا بالقرآن كما كفروا هم به فيكونوا سواء .

٢- وإما أن يشتغل علماؤهم بالرد على هذه المفتريات ، فيضيع وقتهم في هذا الرد ، ولا ينشغلوا بإظهار عظمة الإسلام ، ونشر نوره بين البلاد والعباد ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ .

ولم تقتصر هذه الشبهات -للأسف - على من رفعوا لواء الكفر بالقرآن الكريم ، ولكننا وجدنا بعض الشيعة الذين يدعون الإسلام ويزعمون مشايعة آل البيت وحب الرسول ﷺ يشتركون في اختلاق الافتراءات .

ونستطيع أن نقسم هذه الشبهات إلى خمسة أنواع رئيسية :

١- شبهات تدعي أن القرآن كله أو بعضه غير متواتر .

٢- شبهات تدعي أن النساخ أهملوا في كتابة المصاحف ، مما ترتب على هذا الإهمال أخطاء نحوية ، مازالت موجودة في هذه المصاحف إلى الآن .

٣- شبهات تدعي وقوع زيادة في القرآن الكريم .

٤- شبهات تدعي وقوع نقص في القرآن الكريم .

٥- شبهات تدعي تحريف ألفاظ من القرآن الكريم بإزالة ألفاظ ، و وضع ألفاظ أخرى مكانها .

وسنقوم الآن بعون الله وتوفيقه بالحديث عن هذه الشبهات وردها بشيء من الوسطية ، بين الإيجاز والإطناب ، وحتى لا يمل القارئ ، مراعين في ذلك أن لا تكون هذه الوسطية مخلة بالرد على تلك الشبهات[1] .

النوع الأول من الشبهات

شبهات تدعي أن القرآن كله أو بعضه غير متواتر

فقد وضعوا بعضًا من الشبهات للطعن في تواتر القرآن كله أو بعضه ، وقد تحدثنا عن شبهتين منها ، أثناء الحديث عن جمع الصحابة للقرآن ، حفظًا ، وكتابة ، فأثناء الحديث عن جمعهم حفظًا تعرضنا للشبهة السخيفة ، التي حاولوا تقويتها بحديث أنس (لم يجمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ غير أربعة ، وفندنا تلك الشبهة .

وأثناء الحديث عن جمعهم كتابة تعرضنا لشبهتهم عن عدم تواتر الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة ، وعدم تواتر آية الأحزاب «من المؤمنين رجال»

والآن نتعرض لـ :

الشبهة الثالثة

من هذا النوع ، الذي يطعن في تواتر القرآن ، حيث يقولون :

ورد عن عبد الله بن مسعود أنه قال : «يا معشر المسلمين ، أعزل عن نسخ المصاحف ، ويتولاه رجل -والله- لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر».

واستنتجوا - بحقدهم على القرآن وأهله - من هذا الأثر أن ابن مسعود يطعن بكلامه هذا في جمع القرآن وتواتره ...

---

(١) ملاحظة : جاءت هذه الشبهات منثورة في كتب عدة للمستشرقين ونقلها عنهم بعض المسلمين للرد عليها ، ومن تلك الكتب : كتاب ميزان الحق للمستشرق الإنجليزي سنكلير تسدل ، وكتاب مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسهير ، وكتاب : المستشرقون والقرآن ليوسف لقمان الفلبيني ، وكتاب مناهل العرفان للزرقاني ، وغيرها .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن قصدهم الخبيث قد بدا من اقتطاع هذه العبارة من كلام ابن مسعود دون ذكر ما سبقها ، وما لحقها من عبارات الرواية ، حتى يموهوا بكلام ابن مسعود على الناس ، ليفهموا منه انه قصد الطعن في عملية الجمع ذاتها ، فيكون طعنه هذا طعنًا في سلامة القرآن وتواتره .

ونص الرواية كما أخرجها الترمذي هكذا : «قال الزهري : فأخبرني عبد الله بن عبد الله بن عتبة أنّ عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف ، وقال : يا معشر المسلمين : أعزل عن نسخ كتابة المصحف ، ويتولاها رجل ، والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر ، يريد زيد بن ثابت ، وجاء في نهاية هذه الرواية : «قال الزهري : فبلغني أن ذلك كرهه من مقالة ابن مسعود رجال ، من أفاضل أصحاب النبي ﷺ» قال الترمذي : حديث حسن صحيح[1] .

فمن خلال ألفاظ هذه الرواية نرى بوضوح أن ابن مسعود لا يطعن -ولو بالإشارة من أقصى بعد - في سلامة الجمع القرآني وتواتره ولكنه يرى من وجهة نظره الخاصة أنه أولى من زيد في نسخ المصاحف ، وانظر معي في هذه العبارة التي أسقطها أولئك الماكرون «أن عبد الله بن مسعود كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف» فالذي يفهم منها أنه كره لزيد ذلك ، ولا يفهم منها طعنه في سلامة الجمع ، وتواتر القرآن .

٢- ويدل كلام ابن مسعود نفسه على أن الذي كرهه هو إسناد العمل لزيد ، لا غير ، حيث قال : « أعزل عن نسخ كتابة المصحف »، وحيث قال (ويتولاها رجل) يقصد زيد بن ثابت .

٣- وإذا كان ابن مسعود يرى أنه أحق من زيد في هذا نظرًا لكبر سنه ، ونظرًا لكفر أبي زيد فهو بهذا مخطئ . . . ، لأن الكون ونظامه لو سير بهذا المفهوم لاختل توازنه ، وشاع فيه الاضطراب ، وعمت الفوضى ، فاعتبار السن ليس

(١) الترمذي ، كتاب التفسير ، تفسير سورة التوبة .

هو الشرط الأول في مثل هذه الأمور، ولا في أمور كثيرة أخرى، مثل الإمامة العظمى والقضاء، والإمامة في الصلاة، وقيادة الجيوش، ألا ترى أن الرسول ﷺ قد أمر أسامة بن زيد، وهو فتى في مقتبل العمر لم يجاوز التاسعة عشر عامًا، لقتال الروم، وفي هذا الجيش كبار الصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد وغيرهم!

هذا من ناحية السن، أما من ناحية كفر أبي زيد، فما ذنب زيد في ذلك، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾، من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، فهل يمنع زيد من جمع القرآن لأن أباه كان كافرًا، رغم اتصافه بصفات لم توجد مجتمعة في واحد غيره؟

المسألة إذن مسألة تقدير، وقد قدرتها الأمة كلها، ممثلة في خليفتيها أبي بكر، وعثمان، فوجدت أن كفة زيد في هذا أرجح من كفة ابن مسعود، وقد ذكرنا تلك الصفات في الجمع البكري، فليرجع إليها هناك.

٤- ثم إن كان ابن مسعود كره ذلك لزيد، فإن زيدًا لم ينفرد بالجمع بل شاركته فيه الأمة كلها، كما وضحنا ذلك في موضعه، فلا مجال للطعن في تواتر القرآن الكريم إذًا من عبارة ابن مسعود هذه.

٥- لو افترضنا جدلاً -وهذا لم يحدث على الإطلاق- أن ابن مسعود طعن في القرآن وتواتره، فإن طعنه هذا لم يدم، ولكن سرعان ما رجع عنه، بدليل ما ثبت عنه أنه قدم مصحفه ليحرق مع ما حرق من مصاحف أخرى، وبدليل أن قراءة عاصم مأخوذة عنه، ومتصلة برسول الله ﷺ، وهي تلك التي يقرأ بها المسلمون إلى اليوم، وقام الإجماع على صحتها وتواترها.

٦- ولو ذهبنا مع هؤلاء الأفاكين الكذابين إلى أقصى ما يشتهون من هذا الأثر عن ابن مسعود، وسلمنا لهم جدلاً بأن ابن مسعود أراد بكلامه هذا أن يطعن في القرآن الكريم وتواتره وأن طعنه هذا استمر إلى أن مات، فإن ذلك لا يضير القرآن في شيء ولا يخرق له تواتره الثابت إلى يوم الدين، فليس من شرط

التواتر أن لا يخالف فيه مخالف ، بل لو انتقل في كل طبقة بعدد يحصل بهم التواتر ، ويستحيل عادة اتفاقهم على الكذب لعد ذلك تواترًا مقبولاً ، حتى لو خالف في ذلك المئات والمئات .

النوع الثاني من الشبهات

أما النوع الثاني من الشبهات ، وهو الذي يدعون به أن النساخ قد حدث منهم إهمال في كتابة النص القرآني ، مما يترتب على ذلك أخطاء نحوية ، فذكروا لنا مثلاً على ذلك شبهتين :

الشبهة الأولى

وقد اعتمدوا فيها على أثر مروي عن عثمان بن عفان ﷺ ، من طريقين ، أحدهما من طريقين ، أحدهما من طريق عكرمة عن عثمان ، والثاني من طريق يحيى بن يعمر عن عثمان ، ونص هذا الأثر كما يأتي :

«لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفًا من اللحن ، فقال لا تغيروها ، فإن العرب ستغيرها ، أو قال ستعربها بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف ، والملي من هذيل ، لم توجد هذه الحروف»[1]

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

إن هذا الأثر مردود سندًا ، وباطل شرعًا وعقلاً وعادة .

أما من ناحية السند : فإسناده مختلط ن وزيادة على ذلك فهو أثر مرسل لا تقوم به حجة ، لأن كلاً من عكرمة ، ويحيى بن يعمر لم يريا عثمان ، ولم يسمعا منه ...

أما من ناحية استحالة وقوع ذلك عقلاً وشرعًا وعادة ، فيبينها لنا السيوطي بقوله : «كيف يظن بالصحابة أولاً أنهم يلحنون في الكلام ، فضلاً عن القرآن ، وهم الفصحاء اللد ؟ ثم كيف يظن بهم ثانيًا في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ كما أنزل ، وحفظوه ، وأتقنوه ؟ ثم كيف يظن بهم ثالثًا اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ؟ ثم

(١) ذكره السيوطي في الإتقان : ١ / ١٨٣ نقلاً عن أبي عبيد في فضائل القرآن .

كيف يظن بهم رابعًا عدم تنبيههم ورجوعهم عنه ؟ ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهى عن تغييره ؟ ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ ن وهو مروي بالتواتر ، خلفًا عن سلف ، هذا مما يستحيل عقلاً وشرعًا وعادة »[1]

ويكفينا استدلالاً على أن عثمان لم يقر خطأ لناسخ ما ذكرناه أثناء الجمع العثماني ، من إشرافه التام على كل صغيرة وكبيرة لكونه أحد الحفاظ المتقنين ، ولكونه أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ودللنا على ذلك بأدلة كثيرة منها اختلاف كتبة المصاحف في لغة التابوت هل يكتبونه بتاء مفتوحة أو بهاء فأمرهم أن يكتبوه بتاء مفتوحة لأنه في لغة قريش هكذا ، وقد أنزل القرآن بلسان قريش .

ومما يؤيد عدم إقرار عثمان لأي خطأ من النساخ أيضًا ما أخرجه أبو عبيد حيث قال : «حدثنا عبد الله بن هانئ البربري مولى عثمان ، قال : كنت عند عثمان ،وهم يعرضون المصاحف ، فأرسلني بكتف شاة إلى ابن كعب فيها لم يتسن ، وفيها لا تبديل لخلق ، وفيها فأمهل الكافرين ، قال : فدعا بالدواة ، فمحا أحد اللامين ، فكتب لخلق الله ، ومحا فأمهل ، وكتب فمهل ، وكتب لم يتسنه ألحق فيها الهاء »[2] .

قال ابن الأنباري بعد أن ذكر هذا الأثر ، ليرد به على ما يروى من إقرار عثمان لخطأ النساخ : «فكيف يدعى عليه أنه رأى فسادًا فأمضاه ، وهو يوقف على ما كتب ، ويرفع الخلاف إليه ، الواقع من الناسخين ، ليحكم بالحق ، ويلزمهم إثبات الصواب وتخليده »[3] . إنها لفرية عجيبة حقًا ، على عثمان وعلى لجنة النسخ معًا ، إن عثمان « جعل للناس إمامًا يقتدون به ، فكيف يرى فيه لحنًا ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها ، فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك ، وهم الخيار ، فكيف يقيمه غيرهم »[4] .

---

(١) الإتقان : ١ / ١٨٣

(٢) الإتقان : ١ / ١٨٣

(٣) نفس الموضع السابق

(٤) نفس الموضع السابق

الشبهة الثانية

يقول المستشرق اليهودي جولد تسيهر ، في كتابه الشهير (مذاهب التفسير الإسلامي) ما نصه : «يذكر أن النص المتلقى بالقبول ، يعتمد على إهمال الناسخ ، وأن القراءة المخالفة المقترحة تقصد إلى إقامة النص الأصلي ، الذي أفسده سهو النساخ ، وفي المواضع التي تبدو فيها مفارقات ، نحوية اجترأ بعضهم على دعوى أن ما بقي من ذلك في نص الكتاب المنزل المعترف به ، يجب النظر إليه على أنه خطأ كتابي وقع فيه ناسخ غير يقظ ، وفي وقتٍ متأخر فقط اجتهد الذكاء وحدة الذهن في قواعد العربية بكل وسائل الفطنة لتسويغ صحة المواضع المشار إليها ، من جهة العربية ، ولا يتخلف النحاة البصريون والكوفيون في حدة الذهن والبصر ، بعلاج المشاكل عن بني وطنهم من الفقهاء ، أما المدرسة القديمة فلم تحاول ذلك ، بل آثرت في صدق وأمانة أن تبقي نص الوحي على ما يعتوره من مآخذ»[(١)] .

هكذا يدعي جولد تسيهر اليهودي وقوع أخطاء في القرآن ، من جهة العربية نتيجة إهمال النساخ ، ثم ضرب هو وأتباعه أمثلة تؤيد شبهتهم – من وجهة نظرهم – فذكروا رواية عن عائشة رضي الله عنها في ذلك يرويها لنا الزبير بن العوام ﷺ حيث قال : «سألت عائشة عن لحن القرآن ، عن قوله تعالى : «إن هذان لساحران»[(٢)] ، وعن قوله تعالى : «والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة»[(٣)] وعن قوله تعالى : «إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون»[(٤)] ، فقالت يا ابن أختي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب».

الرد على هذه الشبهة

ونحن أمام هذا الأثر ، الذي اعتمدت عليه تلك الشبهة ، سنفترض صحته ، جريًا

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي : ٤٦

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي : ٤٦

(٣) سورة النساء : آية ١٦٢

(٤) المائدة : ٦٩ ، والأثر ذكره السيوطي في الإتقان : ١ / ١٨٣

على حكم السيوطي عليه ، حيث قال عنه : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، ومع ذلك فإننا نقول لهم لا دليل لكم فيه على وقوع لحن من النساخ في هذه الألفاظ ، وفي غيرها من القرآن على الإطلاق لما يأتي :

أولاً : لأن هذه الألفاظ في هذه الآيات ، قد ثبت تواترها ، من عهد رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا ، وستظل إلى يوم الدين هكذا فلا يجوز رد هذا التواتر ، والذي قام عليه إجماع الأمة ، بخبر آحاد ، يظن قائله أن هناك خطأ نحويًا في القرآن ، أنترك رأي الأمة كلها ، والتي اتخذت هذه الألفاظ عن رسولها ﷺ جيلاً ، بعد جيل من أجل ظن شخص أن هذا خطأ نحوي ، وهو في الحقيقة ليس بخطأ ، كما سيتضح الآن إن شاء الله ؟

ثانيًا : إن كلمة (اللحن) في اللغة تطلق على القراءة ومنه قول عمر بن الخطاب «أبي أقرؤنا ، وإنَّا لندع من لحن أبي» [(١)] أي من قراءته ، وعلى هذا فإن مراد عروة من قوله سألت عائشة عن لحن القرآن ، أي عن قراءة القرآن بهذه الأوجه التي كتبت بها هذه الألفاظ .

ويحمل قول عائشة (هذا عمل الكتاب ، أخطأوا في الكتاب على أن الكتاب اختاروا حرفًا من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن دون غيره ، وترى أنهم في اختيارهم هذا الحرف دون غيره قد خالفوا الأولى ، بل كان عليهم أن يختاروا غيره ، بدليل أن أبا عمرو قرأ (إن هذين لساحران) ، ولم تقصد السيدة عائشة أن ذلك لم يرد عن الرسول ﷺ ، أو أنه خطأ من حيث اللغة ...

ثالثًا : إذا نظرنا إلى هذه الألفاظ التي أتوا بها ليثبتوا وقوع خطأ لغوي في القرآن ، نتيجة إهمال النساخ فسنجد أنها موافقة للغة ، ولا تخالفها في شيء ، وقد خرجها العلماء تخريجًا لا تكلف فيه ، ولا تعسف ، بل جاء موافقًا لاستعمال العرب ، وقواعد اللغة .

أما قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ ، فقد ذكر العلماء أوجهًا عديدة في يإعرابها ، منها : أن اسم الإشارة (هذان) جاء في هذه الآية على لغة من يجعل المثنى

---

(١) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم

بالألف ، رفعًا ونصبًا ، وجرًا ، وهذه لغة كنانة ، وبني الحارث ، ومما يستشهدون به على ذلك قول الشاعر :

إن أباها وأبا أباهـــــا　　　قد بلغا في المجد غايتاها

فالقرآن عربي ، نزل بلسان العرب ، فإذا كان العرب يستعملون هذه الأساليب فلماذا ننكر على القرآن استعمالها ، وهو الذي نزل بلسانهم ؟

قال أبو السعود : «وقيل إن (إن) نافية ، واللام بمعنى إلا ، أي ما هذان إلا ساحران»[1] .

ومن أراد المزيد فليرجع إلى تفسير أبي السعود ، وتفسير الألوسي ، والإتقان للسيوطي : ١ / ١٨٤ .

أما قوله تعالى : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ * وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ فإن (المقيمين) منصوب على القطع عما قبله ، لمدح أولئك المقيمين الصلاة ، والقطع مشهور في لغة العرب ومنثور في كتبهم ، سواء أكان القطع للمدح أم للذم .

أما قوله تعالى (والصابئون) من آية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فإن له أكثر من تخريج شائع في لغة العرب .

منها : أنه مبتدأ ، حذف خبره ، أي والصائبون كذلك ، ومنها أنه معطوف على محل إن مع اسمها ، فإن محلها الرفع بالابتداء ، إلى غير ذلك من الأوجه التي ذكرها علماء التفسير ، وعلوم القرآن في كتبهم .

وعلى هذا فلا لحن في هذه الألفاظ ، ولا مفارقات نحوية فيها كما يزعم جولد تسيهر اليهودي ، كيف يجرؤ أحد من علماء المسلمين فضلاً عن عثمان أن يقر لحنًا في كتاب الله ؟

رابعًا : ولا دليل أدل على نقل هذا القرآن بكل ثقة عن رسول الله ﷺ ، ترد به

---

(١) تفسير أبي السعود

على قول هذا اليهودي ، من قوله هو في هذه الشبهة عن الصحابة الذين تلقوه من رسول الله ﷺ وكتبوه في المصاحف كما سمعوه منه حيث يقول : (أما المدرسة القديمة (يقصد الصحابة) فلم تحاول ذلك «أي التدخل في تغيير هذه الألفاظ التي يزعم أنها مخالفة للغة » بل آثرت في صدق وأمانة أن تبقي نص الوحي على ما يعتوره من مآخذ».

هكذا يعترف صراحة بعدم تدخل السلف ، والخلف في تغيير النص القرآني .

خامسًا : أما قوله أن المدرسة القديمة لم تجتهد لتسويغ تلك الأخطاء ، وإنما الذي اجتهد في تسويغها من جاء بعدهم من البصريين والكوفيين ، فذلك لا يعيب الصحابة ، ولا القرآن في شيء ، ذلك أن الصحابة كانوا أهل عربية بالسليقة ، وليسوا في حاجة إلى بيان أن هذه الألفاظ موافقة للعربية ، فهم أهل لسان عربي فصيح ، نزل القرآن على أساليبهم ، أما بعد ذلك ، فقد انتشر الإسلام ودخل العجم فيه ، ودونت العلوم ، وقعدت القواعد ، حتى يميز الصواب والخطأ ، فتعرض العلماء لمثل ذلك ، وبينوا للناس أن ذلك جار عن قواعد اللغة ، وليس مخالفًا لها ، فهل يعني ذلك طعن النحاة البصريين والكوفيين في عربية هذه الألفاظ ؟ إنه العمى الظاهر ، والقصد الخبيث الماكر لا أكثر .

النوع الثالث من الشبهات

وهذا النوع يندرج تحته تلك الشبهات التي تدعى زيادة شيء في القرآن ، ليست منه ، وقد ذكروا في هذا المقام عدة شبه . .

الشبهة الأولى

يقولون : إن الصحابة زادوا في القرآن ما هو من كلام عمر ، ألا وهو : «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى» [1] .

ونقول لهم : هذا إفك ظالم ظاهر ، على عمر ﷺ وعلى قرآن الله عز وجل ، وليس هناك دليل واحد حتى لو كان واهيًا مثل بيت العنكبوت ، يصدق افتراءهم هذا ، ولكنهم نظروا إلى السبب الذي من أجله أنزل الله هذه الآية ، فاختلقوا شبهتهم تلك ، فسبب نزول هذه الآية كما يرويه البخاري أن عمر قال : «وافقت ربي في ثلاث ، أو

(١) سورة البقرة : آية ١٢٥

وافقني ربي في ثلاث ، قلت يا رسول الله : لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى . . » إلخ الحديث[1] فالحديث ينص صراحة على أن عمر تمنى أن يتخذ الرسول ﷺ من مقام إبراهيم مصلى ، فشاءت الأقدار أن تتفق رغبة عمر ، وتمنيه ، ومع مشيئته عز وجل فأنزل الله الأمر بذلك .

والعجيب أن هناك فرقًا بين أسلوب عمر في رغبته تلك وأسلوب الآية ، فعمر عبر بأسلوب التمني (لو اتخذت) ، أما الآية فقد عبرت بأسلوب الأمر « واتخذوا » ، فأين الاتحاد بين اللفظين ؟

وهل يعني نزول آية على رغبة صادقة لعمر ، أن تكون هذه الآية من كلام عمر ، زادها الصحابة ، أو الرسول ﷺ نفسه في القرآن ؟

الشبهة الثانية

يقولون فيها : إن الصحابة قد زادت في القرآن ما هو من كلام أبي بكر ، وهو « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »[2] الآية .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن هؤلاء المستشرقين يتلمسون –بسوء نية– من الآثار والوقائع ما يخيل لهم أن في استطاعتهم التمويه به على المسلمين ليشككوهم في قرآن ربهم .
لقد نظر هؤلاء الخبيثون إلى حادث وفاة الرسول ﷺ ، وما دار بين الصحابة يومها ، فوجدوا أثرًا ينص على أن الصحابة أصيبوا بذهول شديد ، إلى الدرجة التي جعلت بعضهم يظن –ساعتها– استبعاد موته ﷺ إلى أن جاء أبو بكر الصديق ، فتلا عليهم هذه الآية ، فصدق الجميع بموته ﷺ .

٢- وألفاظ الأثر نفسه تدل بكل وضوح على أن الآية نزلت قبل ذلك ، أخرج البخاري بإسناده عن عبد الله بن عباس : أن أبا بكر أمر عمراً أن يجلس ، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر ، فقال أبو بكر : أما بعد ، من كان منكم يعبد

---

(١) البخاري : كتاب التفسير ، تفسير سورة البقرة
(٢) سورة آل عمران : آية ١٤٤ .

محمدًا ﷺ فإن محمدًا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ ... » إلى قوله تعالى ﴿ الشَّاكِرِينَ ﴾ ، وقال : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية ، حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها »[1] .

فهل في هذا الأثر أدنى إشارة إلى أن الآية هذه من تأليف أبي بكر ؟ إن السياق كله يدل على أنها من كلام الله ، بل إن هذا الأثر ينص على أن أبا بكر قبل أن ينطق بها قال : قال الله « وما محمد إلا رسول ... » ولكنه التزوير الملفق ، والكفر الصراح في تحريف الكلم عن مواضعه من هؤلاء المستشرقين ، ليطعنوا في سلامة القرآن .

٣- والذي يرجع إلى سبب نزول هذه الآية يعلم أنها نزلت في غزوة أحد ، حينما شاعت شائعة بقتله ﷺ ، ومن أراد تفصيل هذا السبب فليرجع إلى تفسير هذه الآية في كتب التفاسير ، في سورة آل عمران .

الشبهة الثالثة

يقولون فيها : إن المسلمين زادوا في كتاب الله سور : الفاتحة والمعوذتين ، ويستدلون على ذلك بأن ابن مسعود رضي الله عنه أنكر قرانية هذه السور ، بل قام بمحو المعوذتين من مصحفه ، وقال إنهما ليستا من كتاب الله تعالى .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

إن هذا الأثر المروي عن ابن مسعود قد يكون صحيحًا ، وقد يكون غير صحيح ، وقد ذهب إلى عدم صحته كثير من العلماء ، كالإمام النووي ، وابن حزم ، وقالوا إنه مكذوب ، مدسوس على ابن مسعود .

وقد ذهب إلى صحته الحافظ بن حجر ، في فتح الباري ، ولذا فإننا سنناقش هذا الأثر مفترضين صحة نسبته إلى ابن مسعود ، فنقول :

---

(١) البخاري ن كتاب المغازي ، باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم .

أولا : أجمعت الأمة كلها سلفًا وخلفًا على قرآنية هذه السور ، وإجماع الأمة كلها من أقوى الأدلة ، إذ لا تجتمع على باطل .

ثانيًا : وقامت الأدلة التي لا حصر لها على قرآنيتها ، بل حثت المسلمين على قراءتها بالذات ، ومن هذه الأدلة ما يأتي :

أخرج البخاري في صحيحه ، عن أبي سعيد المعلى ، أن رسول الله ﷺ قال له : « لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن ، قبل أن تخرج من المسجد » قال أبو سعيد : « ثم أخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال : « الحمد لله رب العالمين » هي السبع المثاني و القرآن العظيم الذي أوتيته »[1] .

أخرج مسلم وغيره عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله ﷺ قال : « ألم تر آيات أنزلت الليلة ، لم ير مثلهن قط ، قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس »[2] . إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قرآنية هذه السور ، وهي أكثر من أن تحصى ، وأشهر من أن تنسى .

ثالثًا : على افتراض صحة نسبة هذا الإنكار لابن مسعود ، فإن ذلك يحمل منه على أول أمره ، قبل أن تتواتر عنده قرآنية هذه السور ، نظرًا لما كان يرى من تعوذ النبي ﷺ بالمعوذتين ، فربما ظن أنهما ليستا بقرآن ، فلما عرف بالقرآنية ، أقر بها ، وهذا لا مؤاخذة عليه في ذلك ، ما دام بصدد البحث والنظر ، وما دام لم يدعم عليه وأقر بما هو حق أجمعت الأمة عليه .

ومما يدل على أن آخر الأمرين من ابن مسعود – إن كان له أمران ، أو لهما إنكار ، أن قراءة عاصم عن ابن مسعود صحيحة لا مرية فيها .

رابعًا : لو ذهبنا مع هؤلاء المستشرقين إلى أقصى حد ، من استدلالهم بإنكار ابن

---

(١) البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الفاتحة

(٢) مسلم ، كتاب المسافرين ، باب فضل قراءة المعوذتين .

مسعود لقرآنية هذه السور ، وسلمنا لهم بأن ابن مسعود كان ينكرها ، بل ينكر كل القرآن الكريم فإن ذلك لا يدل لهم على أن في القرآن زيادة ليست منه ، وأن هذا يعد طعنًا في سلامة القرآن ، لأن الأمة كلها سلفًا ، وخلفًا أجمعت على قرآنية هذه السور ، فما قيمة رأي يخالف ما أجمعتْ الأمة ، خاصة في عصر أتقى وأعدل العصور على الإطلاق ، لقد تحقق التواتر لهذه السور فلا يضر أن ينكرها منكر . لأننا لو سرنا على قاعدة أن يرد الشيء المتواتر لو فيه مخالف ، ويكذب ، ما تحقق أي تواتر ، لأي شيء ، بل لاختلت الحياة كلها ، وسادتها الفوضى وعمها الاضطراب .

النوع الرابع من الشبهات

وهو النوع الذي ينص على وقوع نقص في القرآن ولهم في ذلك شبه متعددة ...

الشبهة الأولى

قالوا فيها : إن القرآن – وفي حياة النبي ﷺ نفسه – قد ضاعت منه أشياء ويستدلون على ذلك بما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : «سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ في المسجد فقال : رحمه الله لقد أذكرني كذا وكذا آية ، أسقطتهن من سورة كذا وكذا » هذا لفظ البخاري ، ولفظ مسلم « لقد أذكرني آية كنت أنسيتها »[1] .

ونرد على هذه الشبهة فنقول

١- عن المراد بالسقوط في قوله ﷺ : (أسقطتهن) النسيان ، بدليل رواية مسلم (كنت أنسيتها) .

٢- من البديهي أن هذا السقوط منه ﷺ ، كان على غير عمد ، وإلا لكان هذا خيانة ، وحاشاه ﷺ ، فالأمانة صفة لازمة من صفات النبوة ، وإلا ما صلح أن يكون نبيًا ، قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[2] ، وعلى هذا فيستحيل عليه ﷺ أن يتصرف

(١) البخاري : كتاب الشهادات ، باب (١١) ، ومسلم : كتاب المسافرين ، باب (٢٣٤) .
(٢) سورة يونس : آية ١٥ .

في النص القرآني ، بأية صورة من صور التصرف إلا بأمر منه عز وجل ، قال تعالى :﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (١) .

٣- هذا النسيان الذي حدث له ﷺ ، لم يكن بالمعنى الشامل أي بالمحو الكامل من ذهنه الشريف ، بل بمجرد أن ذكر تذكر ، وهذا لا غبار عليه ، فذلك من طبيعة البشرية التي لا تتحقق بشرية البشر إلا بها ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (٢) .

٤- ومما يهون من أمر مثل هذا النسيان ، وأنه لا ضرر فيه ولا ضرار ، أنه كان بعد التبليغ ، والنسيان إذا كان بعد التبليغ لا يضر في شيء ، بدليل أن الرسول ﷺ لما بلغ القرآن كله ، انتقل بكليته من بين صحابته ، ومن الدنيا كلها إلى الرفيق الأعلى ، وما ضر ذلك القرآن في شيء ؟

الشبهة الثانية

ويصلون بالشبهة السابقة شبهة لاحقة ، فيقولون : إذا كان (محمد ﷺ) قد اتفق له من يذكره في بعض المواقف ما نسيه من آيات ، فإن هناك مواقف لم يتفق له فيها من يذكره بآيات أخرى قد نسيها ويستدلون على صحة دعواهم هذه ، بقوله عز وجل : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ ﴾ (٣) ، ويقولون إن الاستثناء هنا دليل على حدوث النسيان من النبي ﷺ ، مما يعني سقوط آيات من القرآن .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

إن المراد من النسيان في هذه الآية هو ما عناه الله عز وجل في قوله :﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ (٤) وهو منسوخ التلاوة ، فتكون هذه الآية آية

---

(١) الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦

(٢) الكهف : ١١٠ ، وفصلت : ٦

(٣) سورة الأعلى : آية ٦ ، ٧ .

(٤) سورة البقرة : آية ١٠٦ .

الأعلى قد حملت البشرى لرسول الله ﷺ ، والذي كان يتعجل الأخذ عن جبريل أثناء الوحي ، فنهي عن ذلك – حملت له البشرى بعدم النسيان إلا ما شاء الله نسخه لحكمة تعود على مصلحة المسلمين .

ولا يعجبني في هذا المقام ما يرد به البعض كالإمام محمد عبده والشيخ الزرقاني عليهما رحمة الله على أولئك الأفاكين ، من توجيه الإستثناء هنا بأنه استثناء صوري ، قصد به النفي المؤبد لهذا النسيان من رسول الله ﷺ جريًا على غرار قوله الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (١) .

لأن هذا التوجيه إذا كان يليق بمقام آية هود ، فإنه لا يليق هنا لأن آية سورة الأعلى مكية ، فلو قلنا بأن الاستثناء فيها يعني النفي المؤبد للنسيان لاقتضى أن لا يحدث بعد نزولها نسيان ، في حين أن الواقع يدل على أنه قد حدث نسيان بالمدينة ، كما ذكرنا في الشبهة السابقة ، وإن كان هذا النسيان لا يضر ، لأنه قد حدث بعد التبليغ .

الشبهة الثالثة :

قالوا : إن كثيرًا من الحفاظ قتلوا أثناء الغزوات والحروب في العهد النبوي ، وبعده ، وقبل أن يجمع القرآن في العهد البكري ، وبالتالي فإن أبا بكر لما جمع القرآن الكريم لم يجمع إلا ما كان لدى الأحياء ، أما ما كان يحفظه القتلى والأموات ، فقد ضاع بقتل من قتل وبموت من مات .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- دعوى أن بعض الشهداء قتل ومعه شيء من القرآن ، ليس مع غيره دعوى باطلة ، تفتقد أدنى دليل .

٢- بل إن ما كان مع الشهداء كان مع أعداد غفيرة من الأحياء بدليل أن عمر في العهد البكري لما اقترح على أبي بكر جمع القرآن لم يقل له إن بعض القرآن

---

(١) سورة هود : آية ١٠٨

قد ضاع ، وإني أرى أن تأمر بجمع ما بقي منه ، لكنه قال له : «إني أخشى إن استحر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن »[1] .

فالموضوع إلى هذه اللحظة التي اقترح فيها عمر جمع القرآن موضوع خوف ، وتوجس أن يضيع منه شيء مستقبلاً ، لا أن بعضه قد فقد فيما مضى .

٣- ومما يدل على أن القرآن لم يضع منه شيء بقتل الشهداء ، إنه كان للقرآن مصدران لجمعه ، مصدر مكتوب في السطور ، ومصدر محفوظ في الصدور ، ولذلك لما أرادوا جمعه في العهد البكري كانوا يعتمدون على المصدرين معًا ، ولا يكتفون بأحدهما ، بدليل أنهم لما انتهوا من الجمع افتقدوا الآيتين من آخر التوبة ، وآية من سورة الأحزاب ، ومع أنهم كانوا يحفظونها إلا أنهم لم يشاءوا كتابتها إلا بعد العثور على مصدرها المكتوب بين يدي النبي ﷺ فالتمسوها حتى وجدوها عند من كانت عنده .

الشبهة الرابعة :

وتدور هذه الشبهة حول ضياع آيات كثيرة من سورة الأحزاب ومنها آية الرجم ، ويستدلون على هذه الشبهة بأثرين ، ينسب أحدهما لعائشة ، وثانيهما لأبي بن كعب .

أما الأثر الأول فقد ذكره أبو عبيد القاسم بن سلام ، وذكره بعض المفسرين كالقرطبي وغيره ، حيث يقول أبو عبيد : «حدثنا ابن أبي مريم ، عن ابن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عروة عن عائشة قالت : «كانت سورة الأحزاب تعدل على عهد رسول الله ﷺ مائتي آية ، فلما كتب المصحف لم يقدر منها إلا على ما هي عليه الآن»»[2] .

وأما الأثر الثاني فقد ذكره بعض المفسرين كالإمام القرطبي أيضًا ، حيث يقول : «وروى زر ، قال : قال لي أبي بن كعب كم تعدون سورة الأحزاب ؟ قلت ثلاثًا وسبعين

(١) البخاري : كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن .
(٢) انظر تفسير القرطبي : ١٤/١١٣ .

آية ، قال : فو الذي يحلف به أبي بن كعب إن كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ، ولقد قرأنا منها آية الرجم ، الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم »[1] .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن كان يقصد هؤلاء المستشرقون من هذين الأثرين ضياع آيات من سورة الأحزات ، أمر المسلمون بقراءتها ، وتوفي رسول الله ﷺ وهي معدودات من القرآن الخالد ، فهو قول كاسد ، ومبدأ فاسد ، فالعلم بصحة نقل القرآن وسلامته من كل زيادة أو نقصان كالعلم بالوقائع العظام ، والحوادث الكبار لأن الدواعي تكاتفت على صيانته وحراسته فاشتدت عناية المسلمين به إلى مبلغ لم يصل إليه أي اعتناء بأي شيء على الإطلاق ، ولا زال الواقع يشهد بذلك وسيظل .

وعلى ذلك فإن أي أثر يفيد ضياع شيء من القرآن الكريم فهو أثر مكذوب ، ولو صح سنده ، فإنه يؤول تأويلاً يتفق مع تنزيه القرآن الكريم عن كل نقصان ، وإلا فلا يؤخذ به مهما كان وضع قائله ، قال الألوسي وهو يعلق على هذه الآثار التي تزعم ضياع شيء من سورة الأحزاب « والحق أن كل شيء ظاهره ضياع شيء من القرآن الكريم إما موضوع وإما مؤول . . »[2] ولقد أول العلماء هذه الآثار –على افتراض صحتها – تأويلاً حسنًا فذهبوا إلى أن سورة الأحزاب كانت آياتها أكثر مما عليه الآن ولكنه نسخ بعض منها ، واستقر آخر الأمر على هذا العدد من الآيات ، وتوفي رسول الله ﷺ ، وهي على هذا العدد ، الموجود في المصحف الآن .

قال أبو بكر الأنباري معلقًا على الأثر الأول : « فمعنى هذا من قول أم المؤمنين عائشة أن الله تعالى رفع إليه من سورة الأحزاب ما يزيد على ما عندنا »[3] وعلق

(١) نفس الموضع السابق

(٢) تفسير الألوسي : ٢١/ ١٤٢ ، ط المنيرية

(٣) تفسير القرطبي : ١٤/ ١١٣

القرطبي على هذا الأثر بقوله : «هذا وجه من وجوه النسخ »[1] وعلى الأثر الثاني يقول ابن كثير : «وهو يقتضي أنه كان فيها قرآن ، ثم نسخ لفظه وحكمه أيضًا »[2] ومما يدل على افتراض صحة ما نسب إلى أبي – أنه قد حدث نسخ لآيات في سورة الأحزاب ، أن أبي بن كعب كان مشتركًا في الجمع البكري ، والعثماني ولم يطلب إثبات مزيد على ما هو موجود الآن في سورة الأحزاب ، أضف إلى ذلك أن أكثر من قراءة من القراءات العشر المتصلة إلى الرسول ﷺ قد أخذها أصحابها عن طريق أبي بن كعب ، وليس فيها آية «الشيخ والشيخة» ولا شيء غير ما هو موجود في السورة الآن ، فلو كان يرى قرآنيتها إلى الآن ، لكان قرأها ، وأخذها القراء عنه .

الشبهة الخامسة

قالوا فيها : إن كتابة القرآن الكريم على الأشياء الغير متجانسة من عظام ، وجلود وغيرها كانت غير منضبطة مما ترتب على ذلك ضياع بعض آيات من القرآن والتي لم يجد المسلمون تعليلاً لضيعها إلا الادعاء بأنها نسخت كتابة لا حكما .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- كتابة القرآن في أول الأمر على أشياء غير متجانسة لا يعني عدم انضباطها عدم واختلاط بعضها ببعض ، لأن الرسول ﷺ كان يعلمهم ترتيب الآيات ، فالآيات وإن كانت مكتوبة مفرقة ، إلا أنهم كانوا يعلمون ترتيبها .

٢- لو سلمنا جدلاً لأولئك الأفاكين بأن كتابة الآيات كانت غير منظمة ، وغير مرتبة ، فإن ذلك لا يطعن في سلامة القرآن ، بل لو لم تكن هناك كتابة بالمرة ، لأن المعول عليه هو الحفظ في الصدور ، لا الكتابة في السطور ، وإنما كانوا يكتبون الآيات مبالغة في التوثيق .

٣- أما ادعاؤهم بأن بعضها قد ضاع ، وعلل المسلمون ضياعها بنسخها ، فهذا

---

(١) نفس الموضع السابق

(٢) تفسير ابن كثير : ٦/ ٣٧٦ .

ادعاء باطل ، وتلبيس واضح ، أرادوا به الطعن على النسخ لدى المسلمين ، رغم ثبوته في الشرائع السابقة .

والدليل على كذب ادعائهم هذا ، أن هناك بعض ما قيل عنه أنه منسوخ التلاوة . لا الحكم ، موجود إلى الآن في كتب المسلمين ، ولم يكتبوه في القرآن مثل «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة» فلو كان الأمر بيد البشر لأثبتوا هذه الآية في القرآن الكريم ، ولكن ما كان لأحد حتى لو كان رسول الله ﷺ أن يتدخل في النص القرآني بزيادة أو نقصان ، وهذا دليل واضح على كذبهم البين ، وعلى قداسة القرآن الكريم الواضحة .

الشبهة السادسة :

ومما يتصل بالشبهة السابقة شبهة أخرى ، وهي كالدليل لها حيث قالوا :

إن طريقة الكتابة هذه ترتب عليها ضياع شيء من القرآن الكريم ، واستدلوا على ذلك بما نسب إلى ابن عمر رضي الله عنهما : « لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله ، قد ذهب منه كثير ، ولكن ليقل قد أخذت ما ظهر منه» .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- هذا الأثر لا تصح نسبته إلى ابن عمر ، بحال من الأحوال ، وإنما هو مدسوس عليه ، فلا يؤخذ به ، ولا يؤاخذ عليه .

٢- ولو سلمنا لأولئك الدجالين بصحة هذا الأثر عن ابن عمر (رضي الله) عنه فإننا نقول لهم هذا من كلام ابن عمر وظنه ، وليس مأخوذًا عن الرسول ﷺ ، وظنه هذا ظن خاص ، مردود بإجماع الأمة على عدم ضياع شيء من القرآن ، فلا يترك إجماع الأمة كلها القائم على اليقين ، من أجل ظن خاطئ قائم على الوهم والخيال .

٣- لو افترضنا ضياع شيء مكتوب جدلاً ، فذلك لا يضير القرآن في شيء ، لما أكدنا مرارًا من أن المعول عليه هو الحفظ لا الكتابة .

الشبهة السابعة

وتدور هذه الشبهة حول ادعائهم إسقاط آيات من سورة « لم يكن » واستندوا في ذلك على آثار حكم العلماء عليها بالوضع ، ولكني وجدت بعض العلماء حكم على أثر من هذه الآثار بالصحة ، ولذلك فهو الذي سنقف معه لمناقشته .

أخرج الحاكم في مستدركه عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ؛ « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب » فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل واديًا من مال فأعطيه ، لسأل ثانيًا ، ولو سأل ثانيًا فأعطيه لسأل ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ، ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل ذلك فلن يكفره » . قال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه »(١)

استند هؤلاء المستشرقون على هذا الأثر ، وزعموا أن سورة « لم يكن » قد ضاعت منها هذه الآيات .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- هذا الذي ادعوه قرآنًا ، ليس بقرآن ، وإنما هو حديث نبوي .

٢- والدليل على أنه حديث نبوي ما ورد في الصحيحين وغيرهما أن الذي قاله هو رسول الله ﷺ .

٣- والمسحة القرآنية ، والأسلوب القرآني غير ظاهر في هذا الكلام .

٤- ومما يدل على أن هذا الأثر حديث وليس قرآنًا أن أبي بن كعب صرح بتردده في هذا الكلام ، أهو حديث نبوي ، أم هو قرآن منزل .

فقد أخرج الضرير عن ابن عباس قال : قلت يا أمير المؤمنين إن أبيًا يزعم أنك تركت من آيات الله آية لم تكتبها ، قال : والله لأسألن أبيًا ، فإن أنكر لتكذبن ، فلما

---

(١) مستدرك الحاكم : ٢ / ٥٣١ ، ط / دار المعرفة ببيروت .

صلى صلاة الغداة غدا على أبي ، فإذن له ، وطرح له وسادة ، وقال : يزعم هذا أنك تزعم أني تركت آية من كتاب الله ، لم أكتبها ، فقال : إني سمعت رسول الله يقول : لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى إليهما واديًا ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب ، فقال عمر : أفأكتبها ؟ قال : لا أنهاك ، قال : فكأن أبيًا شك أقول من رسول الله ﷺ ، أو قرآن منزل »[1]

٥- يدل الأثر السابق على تشكك أبي في هذا الكلام ، أهو حديث نبوي ، أم هو قرآن منزل ، وقد زال هذا التشكك بإجماع الأمة كلها على أنه ليس بقرآن ، ودلت مصادر السنة على أنه حديث نبوي ، فلا حجة لأولئك الضالين المضلين ، بما يروى عن أبي في هذا .

٦- ومما يدل على أن أبا بن كعب كان لا يعتقد قرآنية هذا الكلام أن أكثر من قراءة متواترة متصلة برسول الله ﷺ من القراءات العشر أخذت عن أبي ، وليس فيها هذا الكلام ، فقد ذكر صاحب النشر في القراءات العشر ١ / ١١٢ قراءة نافع عنه ، وفي ١ / ١٢٠ قراءة ابن كثير عنه ، وفي ١١ / ١٣٣ قراءة أبي عمرو عنه ، وفي ١ / ١٥٥ قراءة عاصم عنه ، وفي ١ / ١٧٨ قراءة أبي جعفر عنه ، وليس في كل هذه القراءات ما يدعيه أولئك الكذابون على أبي بن كعب .

قال أبو بكر الأنباري معلقًا على ما يدعيه البعض من إسقاط قرآن في سورة « لم يكن » معتمدًا على ما يروى عن أبي : « هذا باطل عند أهل العلم ، لأن قراءتي ابن كثير وأبي عمرو متصلتان بأبي بن كعب ، لا يقرأ فيهما هذا المذكور ، في « لم يكن » ، مما هو معروف في حديث رسول الله ﷺ على أنه من كلام الرسول عليه السلام ، لا يحكيه عن رب العالمين في القرآن ، وما رواه الاثنان معهما الإجماع أثبت مما يحكيه واحد مخالف مذهب الجماعة »[2] .

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور : ٦ / ٣٧٨ ، ط دار المعرفة ببيروت .
(٢) تفسير القرطبي : ٢٠ / ١٣٩ .

الشبهة الثامنة

وكان للمستشرق الإنجليزي الدكتور («سنكلير تسدل» دور كبير في ترويجه ومحاولة إقناع المسلمين بضياع شيء من القرآن، مستدلاً بآثار صحيحة السند، حيث يقول في كتابه «ميزان الحق» ص ٣٤٨: (وكان إذا أملى محمد آية على الكاتب سارع إلى حفظها المتدينون من قومه، ولكن ذلك لا يمنع من أن بعض الآيات لم يحفظها أحد، أو مات الذين حفظوها، جاء في صحيح مسلم أن عائشة قالت: ما معناه («مما أنزل في القرآن عشر آيات في الرضاعة، نهي عنها ونسخت بخمس آيات أخر، ومما لا شك فيه أن عائشة سمعت هذه الآيات في زمانها، من بعض القراء، ولا نجدها اليوم في القرآن» إلى أن يقول: (وروى ابن ماجه «قالت عائشة: إن آية الرجم والرضاعة نزلت. وكان القرطاس المكتوبتان فيه تحت فراشي، ومات رسول الله حينئذ، وفيما أنا منشغلة بموته دخلت بهيمة، وأكلت القرطاس»[1]

ونرد على هذه الشبهة من ناحيتين، من ناحية مضمونها، ومن ناحية أدلتها. أما من ناحية مضمونها، فنقول:

١- قوله إن بعض الآيات لم يحفظها أحد، أو مات الذين حفظوها قول لا نسلم له به، فلو رجعنا إلى العوامل التي ساعدت الصحابة على حفظ القرآن. علمنا أنه يستحيل أن ينزل قرآن من السماء ولا يحفظه أي أحد على الإطلاق.

٢- معلوم أن جبريل عليه السلام كان يعارض الرسول ﷺ القرآن كل عام مرة. وعارضه في العام الذي انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى (مات فيه) مرتين. فلو افترضنا جدلاً أن بعض الصحابة لم يحفظ بعض الآيات وقت نزولها، فلا ضير في ذلك، لأن الرسول ﷺ حي بينهم، يتلو عليهم هذه الآيات ليل نهار.

٣- إن عدد الحفاظ الذين حفظوا القرآن لم يحصوا عددًا، واشتهر من بينهم كثيرون، منهم الخلفاء الأربعة، وغيرهم ممن ذكرناهم في مبحث كثرة الحفاظ

---

(١) القرآن والمستشرقون ليوسف لقمان: ٣٦٣.

من الصحابة ، وهؤلاء لم يموتوا إلا بعد أن دون القرآن كله في عهد أبي بكر ، فقولهم إن بعض الآيات لم يحفظها أحد ، أو مات الذين حفظوها ، قول بلا دليل ، بل قامت الأدلة المتعددة على بطلانه .

أما من ناحية الأثرين المذكورين ، في صحيح مسلم ، وسنن ابن ماجة ، فإننا نرد عليهم في استشهادهم بهما ، بما يأتي :

١- أن الرواية التي قالوا عنها أنها في صحيح مسلم ، نصها ليس كذلك ، وإنما هو : (كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ، ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن »[1] . فهم قد حرفوا قول عائشة (عشر رضعات معلومات » بقولهم « (عشر آيات في الرضاعة » ، وقولها : « ثم نسخن بخمس معلومات » بقولهم : ونسخت بخمس آيات أخر » ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على طعن متعمد ظالم ، في أقدس مقدسات المسلمين ، ولو كان الطريق إلى ذلك تلفيق التهم وتحريف الكلم عن مواضعه .

٢- وبالنسبة لرواية مسلم فإن للعلماء مذهبين في توجيه ما جاء فيها ، وكلاهما من القوة بمكان في الرد على أولئك الذين يريدون منها أن يصلوا إلى هناك نصًا من القرآن قد ضاع .

المذهب الأول : يقول أتباعه ، قد كان نص في القرآن يحرم بعشر رضعات ، ثم نسخ هذا النص بنص آخر يحرم بخمس ، وقبيل وفاة الرسول ﷺ نسخ هذا النص أيضًا لحكمة إلهية ، ولكن بقي حكمه معمولاً به ، وجاءت نصوص السنة تدل على بقاء هذا الحكم ، وعلى ذلك فلم يحدث ضياع لهذا النص ، ولكن حدث نسخ له .

يقول الإمام النووي : شارح صحيح مسلم ، وهو يذكر أنواع النسخ : « والثاني ما

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الرضاع ، باب (٦) .

نسخ تلاوته دون حكمه ، كخمس رضعات ، والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة »[1] .

وبين النووي معنى : (فتوفي رسول الله ﷺ ، وهن فيما يقرأ من القرآن) ، فيقول : « ومعناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جدًا ، حتى أنه ﷺ توفي وبعض الناس يقرأ خمس رضعات ، ويجعلها قرآنًا متلوًا ، لكونه لم يبلغه النسخ ، لقرب عهده ، فلما بلغهم النسخ بعد ذلك ، رجعوا عن ذلك ، وأجمعوا على أن هذا لا يتلى »[2] .

أما المذهب الثاني : في توجيه ما جاء في رواية مسلم عن عائشة فيقول أصحابه : أن القرآن يشترط فيه التواتر ، وهذا حديث آحاد لا يعتد به في قرآنية شيء على الإطلاق .

يقول الإمام النووي أيضًا : « واعترض أصحاب مالك على الشافعية بأن حديث عائشة هذا لا يحتج به عندكم ، وعند محققي الأصوليين ، لأن القرآن لا يثبت بخبر الواحد ، وإذا لم يثبت قرآنًا لم يثبت بخبر الواحد عن النبي ﷺ ، لأن خبر الواحد إذا توجه إليه قادح يوقف عن العمل به ، وهذا إذا لم يجئ إلا بآحاد ، مع أن العادة مجيئه متواترًا توجب ريبة »[3] .

ويقول ابن حجر : عن حديث مسلم هذا : « لا ينهض للاحتجاج على الأصح من قولي الأصوليين ، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ، والراوي روى هذا على أنه قرآن لا خبر ، فلم يثبت كونه قرآنًا ولا ذكر الراوي أنه خبر ليقبل قوله فيه »[4] .

وعلى أي مذهب من مذهبي العلماء في توجيه ما جاء في صحيح مسلم ، فإنه لا يفهم من هذه الرواية ضياع آيات في الرضاع ، لأنها إما نسخت تلاوة ، وهذا لا

---

(١) المنهاج : ١٠/٢٩ ، ط المطبعة المصرية .

(٢) نفس الموضع السابق .

(٣) المنهاج : ١٠/٣٠

(٤) فتح الباري : ٩/٥١

يعني ضياعها ، وإما لم يثبت قرآنيتها ، لأنها رواية آحاد ، والقرآن يشترط فيه التواتر ، فلا صحة إطلاقًا لما يدعيه أو لما يفهمه أولئك الخراصون من رواية مسلم ، ويقولون بضياع آيات من القرآن الكريم .

٣- ومن أكبر الأدلة على أن ما جاء في رواية مسلم عن عائشة ليس بقرآن ، اختلاف الروايات عنها في القدر المحرم من الرضاعة ، ولذلك يقول ابن حجر : « ثم اختلفوا ، فجاء عن عائشة عشر رضعات ، أخرجه مالك في الموطأ ، وعن حفصة كذلك ، وجاء عن عائشة أيضًا سبع رضعات أخرجه ابن أبي خيثمة بإسناد صحيح ، عن عبد الله بن الزبير عنها ، وعبد الرازق من طريق عروة : « كانت عائشة تقول : لا يحرم دون سبع رضعات ، أو خمس رضعات ، وجاء عن عائشة أيضًا خمس رضعات »(١) . فهذا الاختلاف عنها في القدر المحرم ، يدل على أن ما جاء في صحيح مسلم لو كان قرآنًا ما حدث هذا الاختلاف .

٤- أما رواية ابن ماجه ، والتي تفيد أن بهيمة أكلت القرطاس الذي كتبت فيه آيات الرجم والرضاعة ، أثناء انشغال أم المؤمنين السيدة / عائشة رضي الله عنها بموته ﷺ ، فعلى افتراض صحتها ، فإنها لا تعني ضياع شيء من القرآن ، لما أكدناه مرارًا أن المعول عليه في القرآن الكريم هو الحفظ في الصدور ، لا الكتابة في السطور ، فلو لم يكتب القرآن كله من الأساس فلا ضير في ذلك ، ما دام يتناقله في ظل طبقة ، عدد يحصل به التواتر ، وإنما كتب مبالغة في الاعتناء به ، وزيادة للتوثيق له ، حتى يكون له مصدران وعلى ذلك فلو صح ما يقال إن بهيمة أكلت قرطاسًا فيه آية أو آيات ، بل فلو صح أن البهائم أكلت كل ما كتب من الآيات ، فلا ضير في ذلك ، ما دام القرآن محفوظًا في صدور عدد يحصل به التواتر طبقة بعد طبقة .

---

(١) فتح الباري : ٩/ ٥٠

الشبهة التاسعة

يقولون إن الصحابة أزالوا من المصحف سورة تسمى سورة الخلع والحفد –بفتح أولهما ، وسكون ثانيهما – ، وقالوا ودليلنا على ذلك أن أبي بن كعب كان يكتبها في مصحفه ، وصيغتها كالتالي :

«اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك و ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثني عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخاف عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق».

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن هذه السورة التي يدعون على الصحابة إسقاطها ، ليست قرآنا ، ولكنه دعاء ، أطلق عليه دعاء القنوت ، وهو الذي أخذ به الأحناف ، للدعاء به في الصلاة .

٢- وكما ذكرنا مرارًا أن القرآن يشترط فيه التواتر ، وهذه الصيغة لم تتواتر قرآنيتها ، بل ليس هناك دليل آحاد قوي ينص على قرآنيتها .

٣- من عنده أدنى ذوق قرآني ، يستطيع أن يحكم على هذه الصيغة بأنها ليست قرآنًا ، بل لا تبدو عليها المسحة القرآنية ، فالقرآن له مسحة خاصة وأنوار مميزة .

٤- وإن صح عن أبي أنه كان يكتب هذا الكلام في مصحفه الخاص به ، فإنما يكتبه على أنه دعاء ، لا على أنه قرآن كما هو المعروف عن عادتهم ، حيث كانوا يكتبون في الهامش أشياء تفسيرية ، ونحو ذلك .

٥- من المعلوم أن أبي بن كعب قد اشترك في جمع القرآن الكريم في العهد البكري ، وفي نسخ المصاحف في العهد العثماني ، فلماذا لم يطلب كتابة هذا الكلام في القرآن ، لو كان يرى قرآنيته ؟

٦- والدليل على أن أبي بن كعب كان لا يعتقد قرآنية هذا الكلام أن أكثر من

قراءة من القراءات العشر المتواترة المأخوذة عن الرسول ﷺ قد أخذها أصحابها عن أبي بن كعب ، وقد وضحنا ذلك قريبًا في الشبهة السابقة ، حيث أخذ عنه كل من نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو ، وعاصم ، وأبي جعفر ، وليس في قراءة هؤلاء ذل الكلام الذي يزعم أولئك الكذابون أنه قرآن قد سقط وأن أبيًا كان يكتبه في مصحفه على أنه قرآن .

٧- ومما يدل على أن ما يسمونه سورة الخلع والحفد ليس قرآنًا وإنما هو دعاء ، ما رواه البيهقي من طريق سفيان الثوري أن عمر بن الخطاب ﷺ قنت بعد الركوع فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إنا نستعينك ونستهديك ... إلخ »[١] ، فقوله : قنت بعد الركوع دليل على أنه دعاء قنوت ، لا قرآن منزل ، وأما ذكر عمر للبسملة فلا يقتضي قرآنية هذا الدعاء لأن البسملة مطلوبة في كل أمر ذي بال كما هو معلوم .

٨- وعلى أقصى افتراض يفترضه أولئك الكذابون ، بأننا لو سلمنا جدلاً بأن أبيًا كان يرى هذا الكلام قرآنًا فرأيه هذا مردود عليه ، لأنه خالف التواتر والإجماع وكل ما خالف التواتر والإجماع فهو مردود ، إذ ليس من شرط التواتر أن لا يخالف فيه مخالف ، وإلا ما تواتر شيء على الإطلاق ، ولو بالكذب والافتراء .

الشبهة العاشرة :

يقولون : إن الصحابة أسقطوا آية من القرآن تسمى آية المتعة وأن الذي تولى كبر إسقاطها هو علي بن أبي طالب ﷺ ، بل لم يكن يكتفي بإسقاطها ، بل كان يجلد من يقرا بها .

ونرد على هذه الشبهة فنقول :

١- إن هذا كلام مكذوب ، لأن القرآن يثبت بالتواتر ، فأين هذه الآية ؟ وأين تواترها ؟

---

(١) الإتقان : ١/ ٦٥

٢- ثم كيف يعقل من علي أن يسقط آية من القرآن الكريم ، وهو يعلم علم اليقين أن الذي ينكر بقلبه آية من القرآن يكون كافرًا ، فضلاً عن إسقاطها من المصحف ، وإلزام الآخرين بإنكارها .

٣- ثم كيف تسكت الأمة كلها لعلي ، وهو يفعل _بزعمهم - هذا المنكر ، وتجمع كلها على باطل ، أليس فيهم رجل رشيد يقول له : قف مكانك وهم الغيورون على قرآن الله ، الذين يدافعون عنه بأرواحهم وأموالهم وأولادهم ؟ والله إن هذا لافتراء ، بل سفه وجنون . .

الشبهة الحادية عشرة

يزعمون أن الحجاج بن يوسف الثقفي أراد أن يتزلف إلى بني أمية بمناصرتهم ، فوجد أن أفضل وسيلة إلى ذلك أن يقوم بإسقاط كثير من آياته ، والتي تحتوي على كثير يسوءهم وكتب ستة مصاحف أرسلها إلى كل من مكة والمدينة ومصر والشام ، والكوفة والبصرة وهي القرآن الذي يقرؤه المسلمون اليوم ، أما المصاحف الأخرى فقد جمعها وجهز لها خلاً مغليًا ، قذف بها فيه ، حتى تمزقت .

ونرد على هذه الشبهة :

هذه دعوى كاذبة ، تحمل في طياتها أسباب نسفها ، وحيثيات هدمها لما يأتي :

١- أن هذا الذي نسبوه إلى الحجاج ليس عملاً عاديًا ، ينسى بمرور الزمان ، إنما هو عمل -لو حدث- لطار ذكره في الأفاق وانتشر في القرى والأمصار ، إلى يوم الدين ، كما حدث لجمع أبي بكر وعثمان فكان جديرًا بالتاريخ أن ينقل هذا العمل الجلل بطريق التواتر ، ولكن ذلك لم يحدث لأنه لم يقع .

٢- معلوم أن الحجاج لم تكن له ولاية عامة ، على كل الأقطار الإسلامية ، ولكن كان واليًا خاصًا بقطر منها ، فكيف فعل ذلك في كل العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه .

٣- ثم كيف يقف العالم الإسلامي كله ، بما فيه من كبار التابعين الأجلاء ،

وعلمائهم الذين لا يخشون في الله لومة لائم ، كيف يقف هذا الموقف السلبي الجبان الخذول تجاه أقدس المقدسات لديهم ؟ هل كان الحجاج يملك من القوة والوسائل التي يقضي على حفاظ القرآن الكريم ، علماؤهم ، ولم يكن من بين هذه الملايين أحد يحب الشهادة دفاعًا عن قرآن الله عز وجل ؟ إن هذا لشيء عجاب .

٤- وإذا كان في مقدور الحجاج أن يجمع كل المصاحف ويقوم بالتلاعب فيها ، فكيف استطاع أن يؤثر في قلوب وأذهان الملايين من الحفاظ .

٥- وإذا كان له من القدرة ما صار به طاغية زمانه ، وديكتاتور عصره بحيث لم يجرؤ مخلوق من أقصى العالم إلى أقصاه أن يرده عن تلاعبه في النص القرآني ، فكيف استطاع أن يدير طغيانه هذا ويستمر في ديكتاتوريته تلك من غرفة العمليات في قبره ، الذي رقد فيه رقدته ، وأصبح لا حول له ولا قوة ، كيف استطاع الحجاج إلى الآن أن يؤثر في قلوب وأذهان الناس ، فلم يجرؤ أحد بعد موته أن يعيد إلى القرآن ما محاه خل الحجاج المزعوم ؟

٦- إن هذا الزعم إن دل على شيء فإنما يدل على سفه في عقل من ينطق به ، قبل أن يدل على بلاهة من يصدق به .

الشبهة الثانية عشرة

زعم بعض الشيعة أن الصحابة في العهدين ، البكري والعثماني أسقطوا كثيرًا من سوره وآياته ، وبعض ألفاظ من آياته ، ومن هذه الأشياء التي يزعمون إسقاطها .

١- سورة كانت تسمى سورة الولاية ، حيث كان الأمر فيها للمسلمين بطاعة علي بعد النبي ﷺ .

٢- إسقاط آيات كثيرة من سورة الأحزاب كانت تتحدث عن فضائل أهل البيت .

٣- قالوا : إن القرآن الذي نزل من السماء كان عدد آياته سبعة عشر ألف آية ، ولكن الصحابة أنقصوه إلى ستة آلاف وكسور .

ومن الألفاظ التي يزعمون سقوطها :

١- لفظ « ويلك » من قبل قوله تعالى : ﴿ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ [١] .

٢- لفظ «عن علي» من بعد قوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ ﴾ [٢] .

٣- لفظ « بعلي بن أبي طالب» من بعد قوله : ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [٣] .

٤- لفظ «آل محمد » من بعد قوله : ﴿ وَسَيَعْلَمْ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [٤] .

ونرد على سخافة هذه الشبهة فنقول :

١- إن هذا الحقد الظاهر لهؤلاء الغلاة المارقين ، للإسلام ، هو الذي جعلهم يفترون ذلك على الصحابة ، أطهر البشر على الإطلاق وأتقاهم ، فهم الذين ألزمهم الله كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، كما قال تعالى في سورة الفتح ، وإن دل بغض هؤلاء الغلاة للصحابة ، فإنما يدل على بغضهم لله الذين يزعمون الإيمان به ، ولرسوله ﷺ الذين يدعون محبته .

قال ﷺ «الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضًا ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه» [٥] .

وعن الصحابة يقول الإمام الشافعي : (هم فوقنا في كل علم ، واجتهاد وورع ، وعقل ، وأمر استدرك به علم ، واستنبط به ، وآراؤهم لنا أحمد ، وأولى بنا من آرائنا ، عندنا لأنفسنا» [٦] . وقال أبو زرعة الرازي : «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فاعلم أنه زنديق ، وذلك أن الرسول ﷺ عندنا حق . والقرآن

---

(١) سورة التوبة : آية ٤٠

(٢) سورة الصافات : آية ٢٤

(٣) سورة الأحزاب : آية ٢٥

(٤) سورة الشعراء : آية ٢٢٧

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب ، باب (٥٨) .

(٦) التقييد والإيضاح ، شرح مقدمة ابن الصلاح ن للحافظ العراقي ص ٣٠٥ .

حق ، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ، ليبطلوا الكتاب والسنة ، والجرح بهم أولى ، وهم زنادقة»[1] .

٢- أجمعت الأمة ، سلفها وخلفها على أن القرآن الذي جمعه الصحابة في الصحف في عهد أبي بكر ثم استنسخوا منها مصاحف إلى كل الأقطار ، هو كل كتاب الله الذي أنزل على رسول الله ﷺ من غير زيادة أو نقصان ، فهل يرد هذا الإجماع من أجل افتراءات ظالمة صدرت عن قلوب خبيثة ونوايا سيئة ؟

٣- قلنا أثناء الجمع البكري والعثماني أن عليًا بن أبي طالب حمد لكل منهما فعله ، حيث قال عن أبي بكر : «رحمة الله على أبي بكر ، كان أعظم الناس أجرًا في المصاحف ، وهو أول من جمع بين اللوحين»[2] ، وقال عن جمع عثمان «لو لو يصنعه عثمان لصنعته»[3] .

فإذا كان علي نفسه يمدح فعل الخليفتين في المصحف ، فكيف يزعمون مناصرتهم له ، رغم إقراره جمعهما ، ومدحه لهما ، وكيف يقولون إنهم أسقطوا أشياء أقرهم علي عليها ؟ بل ومدحهم بإسقاطهم إياها .

٤- ومما يدل على كذبهم أيضًا أن علي بن أبي طالب دالت إليه الدولة بعد ذلك ، وتولى قيادة الأمة وزمام المسلمين ، وترك المصحف على ما هو عليه ، فلو كانت الصحابة أسقطت منه ما يزعمه أولئك الضالون ، فما الذي منع عليًا من إثبات ما أسقطوه ؟

٥- ومما يدل على اختلاقهم تلك الضلالات ، ما صرح به علماؤهم المنصفون ، من أن القرآن الذي بين أيدينا هو الذي نزل من السماء ، من غير زيادة أو نقصان . يقول الطبرسي أحد علماء الشيعة في مقدمة تفسيره (مجمع البيان) ما نصه : «فأما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه ، وأما النقصان منه فقد روي

---

(١) الكفاية في علم الرواية ، للخطيب البغدادي : ٩٧

(٢) المصاحف : ٥

(٣) المصاحف : ١٢

جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييرًا ونقصانًا ، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه ، وهو الذي نصره المرتضى ، قدس الله روحه واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات ، وذكر في مواضع أن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان ، والحوادث الكبار ، والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة ، فإن العناية اشتدت ، والدواعي توافرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم يبلغه فيما ذكرناه لأن القرآن معجزة النبوة ، ومأخذ العلوم الشرعية ، والأحكام الدينية وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية » إلى أن قال : « ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء ... » إلى أن قال الطبرسي عن المرتضى : « وذكر أيضًا أن القرآن كان على عهد رسول الله ﷺ مجموعًا مؤلفًا على ما هو عليه الآن »[1] . هاهم علماء الشيعة المنصفون يردون على بني مذهبهم الضالين المضلين ، فما أقبح ما نطقوا به ، وما أسخف من صدقه .

النوع الخامس من الشبهات :

وهذا النوع يدعي أصحابه أنه قد حدث حذف بعض ألفاظ من القرآن الكريم وأحل محلها ألفاظ أخرى . . والذين قالوا بهذا النوع - للأسف - قوم يدعون انتسابهم للإسلام ، ويزعمون المحبة الصادقة لآل البيت ، وما في قلوبهم مثقال ذرة منها . ومن الأمثلة على ما يزعمون : قولهم إن الصحابة كتبوا في سورة النحل : « أمة هي أربى من أمة »[2] بدلاً من (أئمة هي أزكى من أئمتكم) .

ويكفي في رد هذا النوع :

ما رددنا به عليهم في الشبهة السابقة .

---

(١) مجمع البيان للطبرسي : ١/ ٣٠ ، ٣١ ، ط مكتبة الحياة .

(٢) سورة النحل آية : ٩٢

١٢

١- حيث لا دليل لهم على ذلك .

٢- وحيث أجمعت الأمة كلها سلفها وخلفها على أن ألفاظ هذه الآية ، وألفاظ كل آية من القرآن هي هي ، كما أنزلت من السماء .

٣- وحيث إن عليًا بن أبي طالب الذي يزعمون مناصرته ، والذي يزعمون أن الصحابة قد أسقطوا من القرآن ما يدل على طاعته قد أقر جمع الصحابة في العهدين البكري والعثماني ، بل ومدحه ، وتمنى -إن لم يكن قاموا به - أن يقوم به .

٤- وأن الأمر دال إليه بعد ذلك ، فما غير شيئًا مما كتبوه .

٥- وحيث تبرأ علماء الشيعة المنصفون ، من كل ما يقال ممن ينتسبون لمذهبهم ، عن زيادة القرآن ، أو نقصانه . .

(**وبعد**)

فإنه لا يسعنا في نهاية هذا البحث الخاص عن جمع القرآن الكريم إلا أن نردد وكلنا فخر واعتزاز ، قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

وها هو القرآن يطل من عليائه ، ويتحدى كل كذاب اشر أن يأتي بمثل أقصر سورة منه ، أو أن يمحو آية واحدة منه ، ولقد صدق المستشرق الإنجليزي سير وليم ميور حينما قال :

« والأرجح أن العالم كله ليس فيه كتاب غير القرآن ، ظل اثني عشر قرنًا كاملاً ، بنص هذا مبلغ صفائه ودقته » (٢) .

---

(١) سورة الحجر : آية ٩

(٢) الصديق أبو بكر : لمحمد حسين هيكل ص ٣٢٣

القـــــراءات

القراءات جمع قراءة، وهى لغة مصدر سماعى للفعل قرأ.

أمـا فى اصطلاح العلمـاء فـهى: مـذهب من مذاهـب نطق اللفظة القرآنية يختلف فيه الإمام من أئمة القراء عن سائر الأئمة الآخرين.

والهـدف من هذا العلم هو الوقـوف على كـيـفيـة النطق بالألفـاظ القرآنية كما نطقها رسول الله ﷺ.

قـال ابن الجـزرى: «القـراءات علم بكيـفـيـة أداء كلمـات القـرآن واختلافها، معزو لناقله»[(١)].

نشأة علم القراءات

يرجع اخـتلاف القـراءات إلى عهـد رسول الله ﷺ، حـيث نزل القرآن الـكريم على أكثـر من حرف، كـما ذكرنـاه فى موضوع «جـمع القرآن» من أن رسول الله ﷺ قال:

«أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه».

ولأن الرسول ﷺ مأمـور بتبليغ ما أنزل إليه من ربـه، فقد جلس ﷺ بين أصحابه يبلغهم القرآن بكل حرف نزل عليه، وكان من حضره من الصـحابة رضـوان الله عليـهم يأخـذون عنه ما تيسـر لهم من تلك الحروف.

وبناء عليه: فقد تيسر لبعضـهم ما لم يتيسر لآخرين، فمنهم من أخذ القرآن بحـرف واحد، ومنهم من أخـذه بحرفـين أو أكثر وهـكذا، حتى حصل التفاوت بينهم.

ثم لما تفـرق الصحـابة في القرى والأمـصار وأخـذ عنهم التابـعون اختلفت قـراءات التابعـين وفق اختلاف قـراءات الصحـابة، وهكذا كان

(١) منجد المقـرئين لابن الجزرى: ٦١، ط دار المطبوعـات الدولية تحقيق أ.د. عـبدالحى الفرماوى.

اختلاف تابعي التابعين الذين أخذوا عن التابعين.

ولازال الناس يختلفون فى القراءات حتى وصل الأمر إلى أئمة القراءات، الذين انقطعوا للقراءة، ضبطا ونشرا.

وبناء على ما سبق فإننا نقرر هنا أمرين:

١ ـ أن القرآن غير القراءات، فالقرآن هو اللفظ المنزل على النبى ﷺ للهدى والإعجاز، أما القراءات فهى كيفية النطق بهذا اللفظ.

يقول الزركشى ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحى المنزل على النبى ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات هى اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى كتابة الحروف أو كيفيتها»[١].

٢ ـ أن تلك القراءات ليست اجتهادية من اختراع العلماء، فهكذا نزلت على رسول الله ﷺ من ربه عز وجل، دون تدخل منه ولا من أى أحد من الخلق.

شروط قبول القراءة

للقراءة المقبولة ثلاثة شروط:

١ ـ أن تكون موافقة للغة العربية، ولو بوجه.

٢ ـ أن تكون موافقة للرسم العثمانى فى المصاحف، ولو تقديرا.

٣ ـ أن يصح إسنادها.

فإن فقد شرط من هذه الشروط كانت القراءة شاذة غير مقبولة.

قال صاحب الطيبة:

وكل ما وافق وجه النحو ... وكان للرسم احتمالا يحوى
وصح إسنادا هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان
وحيثما يختل ركن أثبت ... شذوذه لو أنه فى السبعة

(١) البرهان: ١/٣١٨.

ومعنى قول العلماء أن تكون القراءة موافقة للعربية ولو بوجه: أن يكون اللفظ موافقا لقواعد اللغة، سواء أكان الاستعمال أفصح أم كان فصيحا، مجمعا عليه، أم مختلفا فيه، إذا كانت القراءة شائعة ذائعة، صحيحة الإسناد، تلقاها الأئمة بالقبول.

ومعنى كلامهم أن تكون موافقة، لأحد المصاحف العثمانية: أن بعض الألفاظ كتبت برسم فى بعض المصاحف وفى بعضها برسم آخر فى إطار السبعة أحرف، كقوله تعالى فى سورة التوبة: {تجرى تحتها الأنهار} الآية: ١٠٠، فقد ثبتت (مِنْ) فى بعض المصاحف ولم تكتب فى بعضها الآخر، فأيما قارىء قرأ بإحدى القراءتين فقراءته صحيحة مقبولة.

وقولهم «ولو تقديرا» أى أن تكون القراءة موافقة للرسم العثمانى.

ولو كانت تلك الموافقة تقديرية غير صريحة، مثل {مالك يوم الدين} فإن (مالك) رسم فىَ جميع المصاحف بدون ألف (ملك) فقراءة الحذف توافقة تحقيقا، كما فى (ملك الناس) من سورة الناس، وقراءة الإثبات توافقه تقديرا، كما فى {مالك الملك} من قوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك} آل عمران، فتكون الألف حذفت اختصارا، كما حذفت فى حالات كثيرة.

تنبيه

اكتفى العلماء فى ضابط القراءة المقبولة بصحة الإسناد دون تواتره، بالإضافة إلى الشرطين الآخرين، وقد يسأل سائل لم لمْ ينصوا على التواتر واكتفوا بالصحة؟

ونجيب على ذلك ونقول: إن ذلك لأسباب، منها:

١ ـ أن هذا ضابط لا تعريف، والضابط يغتفر فيه مالا يغتفر فى التعريف.

٢ ـ أن هذه الشروط الثلاثة تكاد تكون مساوية لشرط التواتر، فى إفادة العلم القاطع، الذى يوجب القبول.

قال الزرقانى فى توضيح ذلك: «بيان هذه المساواة أن ما بين دفتى المصحف متواتر ومجمع عليه من الأمة فى أفضل عهودها، وهو عهد الصحابة، فإذا صح سند القراءة، ووافقت قواعد اللغة، ثم جاءت موافقة لخط هذا المصحف المتواتر، كانت هذه الموافقة قرينة على إفادة هذه الرواية للعلم القاطع، وإن كانت آحادا.

ولا تنس ما هو مقرر فى علم الأثر من أن خبر الآحاد يفيد العلم إذا احتفت به قرينة توجب ذلك»(١).

أنواع القراءات

تنقسم القراءات من حيث صحة السند إلى ستة أنواع:

النوع الأول: المتواتر، وهو ما رواه جمع لا يمكن اتفاقه على الكذب عن جمع مثله، من أول السند إلى منتهاه.

وأغلب القراءات من هذا النوع.

النوع الثانى: المشهور، وهو ما توافرت فيه شروط القراءة المقبولة الثلاثة، ولكن لم يبلغ درجة التواتر.

وهذان النوعان يقرأ بهما مع وجوب اعتقادهما، ولا يحل لأحد إنكار شىء منهما.

النوع الثالث: الآحاد، وهو ما صح سنده، وخالف الرسم العثمانى، أو العربية، أو لم يشتهر اشتهار النوع الثانى.

ومثاله: قراءة فتح الفاء فى ﴿أنفسكم﴾ من قوله تعالى: ﴿لقد جاءكم

---

(١) مناهل العرفان: ١/ ٤٢٧.

رسول من أنفسكم﴾ آل عمران: ١٢٨.

النوع الرابع: الشاذ، وهو ما لم يصح سنده، كقراءة ﴿مَلَكَ يوم الدين﴾ بصيغة الماضى، ونصب كلمة يوم.

وكقراءة (فاليوم ننحيك ببدنك) بالحاء المهملة (لتكون لمن خلفك آية) بفتح اللام، على أن اللفظة فعل ماض.

النوع الخامس: الموضوع، وهو المكذوب المختلق الذى لا أصل له، ونسب كذبا وزورا إلى أحد الأئمة.

كتلك القراءة المنسوبة إلى أبى حنيفة زورا فى قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[1]، حيث نسبوا إليه أنه رفع لفظ الجلالة، ونصب لفظ العلماء.

وقد راج ذلك الكذب على بعض العلماء، فلم ينتبه له، وراح يتكلف فى توجيه تلك القراءة المكذوبة على أبى حنيفة وهو منها براء.

النوع السادس: المدرج، أو ما يشبه المدرج من أنواع الحديث، وهو ما جاء على وجه التفسير وليس بقراءة فى حقيقة الأمر.

مثاله: رواية ابن عباس ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم - فى مواسم الحج - فإذا أفضتم من عرفات﴾ البقرة: ١٩٨.

فقوله (فى مواسم الحج) تفسير وليس قراءة فى حقيقة الأمر.

وبذلك يتبين لنا أن ما يقرأ به من تلك الأنواع هما النوعان الأولان فقط، المتواتر والمشهور.

وأما الأربعة الأخيرة، وهى الآحاد والشاذ والموضوع والمدرج فليست قرآنا، فلا يقرأ بها، لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، والنوع الثانى وهو

---

(١) فاطر: آية ٢٨.

المشهور وإن لم يبلغ درجة التواتر، فإنه فى حقيقة الأمر فى حكم المتواتر لأن تلك الشروط الثلاثة المذكورة فى ضابط القراءة المقبولة فى قوة التواتر، كما أوضحناه قريبًا.

أعداد القراءات

لم يعرف للقراءات عدد لفترة طويلة منذ نزول القرآن على عهد رسول الله ﷺ، إلى أن جاء عهد التدوين، وحتى فى بداية عهد تدوينها من أمثال أبى عبيد القاسم بن سلام وأبى حاتم السجستانى وابن جرير الطبرى لم يعرف لها عدد معين.

إلى أن وصلت الأمة الإسلامية إلى رأس المائتين فاشتهرت القراءات السبع، ولكنها لم تأخذ مكانتها من التدوين المستقل، إلى أن جاء الإمام ابن مجاهد فى خاتمة القرن الثالث فجمع قراءات هؤلاء الأئمة السبعة، وأفردها بالتصنيف.

وهذا لا يعنى أن ما عدا هذه القراءات السبع غير مقبولة، فالقراءة المقبولة لها شروطها، فمتى تحققت تلك الشروط فى قراءة قبلت.

ولكن هذا هو الذى تيسر لابن مجاهد مصادفة واتفاقا حسب ما وضع لنفسه من شروط خاصة.

ولذلك وجدنا ثلاث قراءات أخرى متواترة ومقبولة وأضافها العلماء إلى هذه السبعة.

والذى ينبغى لفت النظر إليه هنا أن القراءات السبع غير الأحرف السبعة، ولذلك يقول الإمام أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم الهروى فى كتاب الكافى له[(١)]:

«ولا يتوهم أن قوله ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» انصرافه

---

(١) كما ينقل عنه الزركشى فى البرهان: ١/ ٣٣٠.

إلى سبعة من القـراء يولدون من بعد عصر الصحابة بسـنين كثيرة، لأنه يؤدى إلى أن يكون الخبر متعريا عن فائدة إلى أن يحدثوا، ويؤدى إلى أنه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرؤوا إلا بمـا علموا أن السبعة من القراء يختارونه، قال: «وإنما ذكرناه لأن قوما من العامة يتعلقون به».

فوائد اختلاف القراءات الصحيحة

اختلاف القراءات الصحيحة على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: اخـتلاف فى صـفـة النطق باللفظ، مع الاتفـاق فى اللفظ والمعنى، كـالإظهـار والإدغام، وترقـيق الراءات واللامـات وتفخيمهما، ونحو ذلك.

النوع الثانى: الاخـتـلاف فى اللفظ فـقط مع الاتفـاق فى المعنى، مـثل (خطوات) بضم الطاء وإسكانها.

النوع الثالث:اختلاف فى اللفظ والمعنى، مـثل (لامستم) بالألف و(لمستم) بدونها، ومثل (يطهرن) بتسكين الطاء فى قراءة، وتشديدهما مع فتحهما فى قراءة أخرى.

وهذا النوع الثالث هو الذى لنا معه وقفة فى بيان فوائده.

ولكن قبل أن نبين تلك الفوائد نحب أن نقول:

إن الاختلاف ضربان، اختلاف تضاد، واختلاف تنوع.

أما الأول فيستحيل وجوده فى القرآن، لأنه يستحيل على الله تعالى أن يضمن كـتابه لفظا له قراءتان بيـنهما تضـاد فى المعنى، لأن كل قراءة مع الأخرى بمـنـزلة الآية مع الأخرى، وكـما يستـحيل أن تكون هنـاك آيتان متعارضتان فكذلك يستحيل أن تكون هناك قراءتان متعارضتان.

وأما الثـانى وهو اختـلاف التنوع فهو مـوجود فى القـرآن، ولوجوده حكم وفوائد، نقتصر منها على ما يأتى:

١ ـ التيسير على المسلمين فى قراءة القرآن، لأن القراءات لا تخرج عن الأحرف السبعة التى نزل عليها القرآن، وعنها قال ﷺ: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»(١).

٢ ـ بيان ما يحتمل أن يكون مجملا فى قراءة أخرى، كما فى قوله تعالى: ﴿فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ البقرة: ٢٢٢.

فقد قرئت بإسكان الطاء وضم الهاء، كما قرئت بفتحهما معا وتشديدهما، فالقراءة الثانية بينت لنا الحكم الشرعى المجمل فى القراءة الأولى، وهو أنه يحرم الجماع قبل حصول الأمرين معا، وهما انقطاع الدم والاغتسال.

٣ ـ الدلالة على حكمين متغايرين، لكل حكم حالة خاصة.

كما فى قوله تعالى فى آية الوضوء من سورة المائدة ﴿وأرجلكم﴾، فقد قرئت بكسر اللام وفتحها، فقراءة الكسر تقتضى وجوب المسح عطفا على الرأس فى ﴿وامسحوا برؤوسكم﴾، وقراءة النصب تقتضى وجوب الغسل عطفا على الوجوه والأيدى فى ﴿فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق﴾.

ولا تناقض فى ذلك، فالمسح للابس الخف، والغسل لغير لابسه، كما ثبت عن رسول الله ﷺ.

هذا وقد ذكر بعض من كتبوا فى القراءات حكما متعددة غير هذه الحكم، ولكن يلاحظ عليها أنها لا تنطبق إلا على القراءات الشاذة بينما مقصودنا هنا الحكم المنطبقة على القراءات الصحيحة لا القراءات الشاذة.

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه، فى كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف.

تواتر القرآن

التواتر - كما أشرنا إلى ذلك سابقا - هو أن يروى الشيءَ جمعٌ لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن جمع مثلهم وهكذا من أول السند إلى منتهاه.

والقرآن الكريم بهذا المعنى منقول فى كل عصر، بأعلى درجات التواتر وأقواها، لم يشاركه فى هذا أى كتاب سماوى أو أرضى على الإطلاق.

وقد ساعد على تواتر القرآن عدة عوامل، منها:

١ - تكفل الله تعالى بحفظه، قال تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ الحجر: ٩.

بعكس الكتب السماوية الأخرى، فقد استحفظ الله أتباعها فلم يحفظوها، وإنما حرفوا وبدلوا.

قال تعالى: ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ المائدة: ٤٤.

وقال: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ النساء: ٤٦.

٢ - توافر الدواعى على نقله نقلا متواترا فى كل عصر، ومن هذه الدواعى:

(أ) التحدى به، حيث تحدى الله به الخلق كافة فى كل زمان ومكان.

قال تعالى: ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾[١].

(ب) كونه مصدر الأحكام الشرعية، التى يتوقف عليها سعادة الناس فى دنياهم، وفوزهم فى أخراهم.

---

(١) سورة البقرة: ٢٣.

(جـ) التعبد بقراءته، والتبرك بها.

ويترتب على تواتر القرآن كفر من أنكره، أو أنكر شيئًا منه.

قال القرطبى: «والقرآن الذى جمعه عثمان بموافقة الصحابة له لو أنكر بعضه منكر كان كافرا، حكمه حكم المرتد، يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه»(١).

أما ما نقل أحادا فلا يكفر منكره، لعدم قرآنيته.

قال ابن عبدالشكور - صاحب مسلم الثبوت - فى شرح فواتح الرحموت:

«قالوا - اتفاقا - ما نقل آحادا فليس بقرآن قطعا، ولم يعرف فيه خلاف لواحد من أهل المذاهب، واستدل بأن القرآن مما تتوافر الدواعى على نقله، لتضمنه التحدى ولأنه أصل الأحكام، باعتبار المعنى والنظم جميعا، حتى تعلق بنظمه أحكام كثيرة، ولأنه يتبرك به فى كل عصر بالقراءة والكتابة، ولذا علم جهد الصحابة فى حفظه بالتواتر القاطع، وكل ما تتوفر دواعى نقله ينقل متواترا عادة، فوجوده ملزوم للتواتر عند الكل عادة، فإذا انتفى اللازم وهو التواتر انتفى الملزوم قطعًا، والمنقول آحادا ليس متواترا، فليس قرآنا»(٢).

تواتر القراءت السبع والعشر

هناك أئمة مشهورون عرفوا بالقراءة والإقراء أكثر من غيرهم، ولذلك نسبت إليهم القراءات، فقيل القراء السبعة، والقراء العشرة.

والسبعة هم: ابن عامر، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، ونافع، والكسائى.

---

(١) تفسير القرطبى: ١/ ٨٤.

(٢) مسلم الثبوت على هامش المستصفى للغزالى: ٢/ ٩.

فإذا أضيف إليهم أبو جعفر، ويعقوب، وخلف، قيل القراء العشرة، وسنفرد بعد قليل لكل واحد منهم كلمة إن شاء الله تعالى.

وقراءة هؤلاء يطلق عليها القراءات السبع، والقراءات العشر.

والقراءات السبع، وكذلك الثلاث المتممة للعشر متواترة.

يقول ابن السبكى فى جمع الجوامع وكذلك شارحه ومحشيه(١):

«القراءات السبع متواترة تواترا تاما، أى نقلها عن النبى ﷺ جمع يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب لمثلهم وهلم جرا.

ولا يضر كون أسانيد القراء آحادا، إذ تخصيصها بجماعة لا يمنع مجيء القراءات عن غيرها، بل هو الواقع، فقد تلقاها عن أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجم الغفير عن مثلهم، وهلم جرا.

وإنما أسندت إلى الأئمة المذكورين ورواتهم المذكورين فى أسانيدهم لتصديهم لضبط حروفها، وحفظ شيوخهم الكمل فيها».

ويعقب الزرقانى على الكلام السابق مؤيدا فيقول:

«وقد يناقش هذا بأنها لو تواترت جميعا ما اختلف القراء فى شئ منها، لكنهم اختلفوا فى أشياء منها، فإذا لا يسلم أن تكون كلها متواترة.

ويجاب عن هذا بأن الخلاف لا ينفى التواتر، بل الكل متواتر، وهم فيه مختلفون.

فإن كل حرف من الحروف السبعة التى نزل بها القرآن بَلَّغَهُ الرسول ﷺ إلى جماعة لا يمكن تواطؤهم على الكذب، حفظا لهذا الكتاب، وهم بلغوه إلى أمثالهم؛ وهكذا.

ولا شك أن الحروف يخالف بعضها بعضا، فلا جرم تواتر كل حرف

---

(١) كما ذكره الزرقانى فى مناهل العرفان: ١/٤٣٦.

ـ من أخذ به، وإن كان الآخر لم يعرفه ولم يأخذ به.

وهنا يجتمع التخالف والتواتر، وهنا يستقيم القول بتواتر القراءات السبع، بل القراءات العشر»[1].

وعن العشرة يقول ابن تيمية رحمه الله: «ولم ينكر أحد من العلماء قراءة العشرة»[2].

ويقول عنها ابن الجزرى: «وأما العشرة فأجمع الناس على تلقيها بالقبول، ولا ينازع فى ذلك إلا جاهل»[3].

ما وراء العشر

أما القراءات التى وراء العشر، كقراءة الحسن البصرى، وابن محيصن، ويحيى اليزيدى والشنبوذى، وهى التى تضاف إلى القراءات لعشر فيقال الأربعة عشر فهى قراءات شاذة، لفقدانها أركان القراءة لمقبولة.

طبقات القراء الأوائل

تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ «الحجر: ٩» وجدنا فى كل طبقة من طبقات هذه الأمة لإسلامية من يحفظ كتاب الله عز وجل، ويقرأه عن ظهر قلب، كما يرىء غيره أيضا من طلاب العلم، وأهل القرآن.

وقد اشتهر فى كل طبقة جماعة من القراء أكثر من غيرهم.

ففى عصر الصحابة اشتهر سبعة بإقراء القرآن وهم:

عثمان وعلى وأبى وزيد بن ثابت، وابن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعرى، كما نص على ذلك الذهبى فى طبقات القراء.

(١) مناهل العرفان: ١/ ٤٣٧.

(٢) عن منجد المقرئين: ١٢٩.

(٣) منجد المقرئين: ١٢٠.

وقد أقرأ هؤلاء كثيرا من إخوانهم الصحابة وإخوانهم التابعين.

وممن اشتهـر من التابعين بالمدينة: سعيد بن المسـيب، وعروة وسالم وعمر بن عبدالعزيز وسليمان وعطاء ابنا يسار، ومعاذ بن جندب وزيد بن أسلم.

وممن اشتهر من التابعين بمكة: عبيد بن عمير، وعطاء بن أبى رباح، وطاوس ومجاهد وعكرمة، وابن أبى مليكة.

وممن اشتهر منهم بالكوفـة: علقمة والأسود ومسروق وعبـيدة وعمرو ابن شرحبيل والحارث بن قيس والربيع بن خيثم وعمرو بن ميمون، وأبو عبـدالرحمن السلمى، وزر بن حـبيش، وعـبيد بن نضـيلة، وسعـيد بن جبير، والنخعى، والشعبى.

وبالبـصرة: أبو عاليـة، وأبو رجاء، ونصـر بن عاصم، ويحـيى بن يعمر، والحسن وابن سيرين وقتادة.

وبالشام: المغيرة بن أبى شهاب المخزومـى صاحب عثمان وخليفة بن سعد صاحب أبى الدرداء.

التجرد لإقراء القرآن بالقراءات

ثم تجردت مجموعة من القراء للقراءات، يعتنون بضبطها على أحسن ما يكون الضبط، وسمع الناس بهم، فأتوهم من كل حدب ينسلون فكان بالمدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاع ثم نافع بن نعيم.

وبمكة: عبدالله بن كثـير، وحميد بن قيس الأعـرج، ومحمد بن أبى محيصن.

وبالكوفـة: يحـيى بن وثاب، وعاصـم بن أبى النجـود، وسليمـان الأعمش ثم حمزة ثم الكسائى.

وبالبصرة: عبدالله بن أبى إسحاق، وعيسى بن عمرو، وأبو عمرو بن

العلاء، وعاصم الجحدرى، ثم يعقوب الحضرمى.

وبالشام: عبدالله بن عامر، وعطيـة بن قيس الكلابى، وإسماعيل بن عبدالله بن المهـاجر، ثم يحيى بن الحارث الذمـارى، ثم شريح بن يزيد الحضرمى.

ثم اشتهر من هؤلاء فى آفاق الأمة الإسلامية الأئمة السبعة، وهم:

١ ـ ابن عامر

٢ ـ ابن كثير

٣ ـ عاصم

٤ ـ أبو عمرو

٥ ـ حمزة

٦ ـ نافع

٧ ـ الكسائى

ومعهم ثلاثة آخرون يطلق عليهم بهم القراء العشرة وهم:

٨ ـ أبو جعفر ٩ ـ ويعقوب ١٠ ـ وخلف

واشتهـر مع هؤلاء العشرة أربعة آخرون، ولكن قـراءتهم قراءة شاذة ويطلق على الجميع القراء الأربعة عشر، والأربعة هم:

١١ ـ الحسن البصرى ١٢ ـ وابن محيصن

١٣ ـ ويحيى اليزيدى ١٤ ـ والشنبوذى

وسنفرد لكل إمام منهم كلمة على النحو التالى:

القراء السبعة

١ ـ ابن عامر

ـ هو عبدالله بن عامر بن يزيد بن تميم بن ربيعة بن عامر اليحصبى أبو

عمران إمام أهل الشام فى القراءة، والذى انتهت إليه مشيخة الإقراء بها.

قال عن نفسه: ولدت سنة ثمان من الهجرة، فى البلقا، بضيعة يقال لها رحاب، وقبض رسول الله ﷺ ولى سنتان، وذلك قبل فتح دمشق، وانقطعت إلى دمشق بعد فتحها ولى تسع سنين.

وقد ثبت سماعه من جماعة من الصحابة، منهم معاوية بن أبى سفيان، والنعمان بن بشير، وواثلة بن الأسقع وفضالة بن عبيد.

قال الحافظ أبو عمرو: أخذ القراءة عرضا عن أبى الدرداء وعن المغيرة بن أبى شهاب صاحب عثمان بن عفان، وقيل عرض على عثمان نفسه.

وروى القراءة عنه عرضا يحيى بن الحارث الذمارى، وهو الذى خلفه فى القيام بها، وأخوه عبدالرحمن بن عامر، وربيعة بن يزيد وآخرون.

ولازال أهل الشام قاطبة على قراءة ابن عامر، تلاوة وصلاة وتلقينا إلى قريب الخمسمائة.

قال أبو على الأهوازى: «كان عبدالله بن عامر إماما عالما ثقة فيما أتاه، حافظا لما رواه، متقنا لما وعاه، عارفا فهما قيما فيما جاء به، صادقا فيما نقل، من أفاضل المسلمين، وخيار التابعين وأجلة الراوين، لا يتهم فى دينه، ولا يشك فى يقينه، ولا يرتاب فى أمانته، ولا يطعن عليه فى روايته، صحيح نقله، فصيح قوله، عاليا فى قدره، مصيبا فى أمره، مشهورا فى علمه، مرجوعا إلى فهمه، لم يتعد فيما ذهب إليه الأثر، ولم يقل قولا يخالف فيه الخبر».

توفى رحمه الله بدمشق يوم عاشوراء سنة ثمانى عشرة ومائة[1].

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٤٢٣.

وقد اشتهر برواية قراءته هشام وابن ذكوان ولكن بواسطة.

فأما هشام: فهو هشام بن عمار بن نصير وكنيته أبو الوليد إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم، ولد سنة ثلاث وخمسين ومائة، وتوفى سنة خمس وأربعين ومائتين(١).

وأما ابن ذكوان: فهو عبدالله بن أحمد بن بشر بن ذكوان الدمشقى، شيخ الإقراء بالشام وإمام جامع دمشق ولد سنة ثلاث وسبعين ومائة، وتوفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين(٢).

يقول صاحب الشاطبية عن ابن عامر وراوييه(٣):

٣٢ ـ وأما دمشق الشام دار ابن عامر فتلك بعبد الله طابت مُحَلَّلا

٣٣ ـ هشام وعبدالله وهو انتسابه لذكوان بالإسناد عنه تنقلا

٢ ـ ابن كثير

هو عبدالله بن كثير بن المطلب القرشى أبو معبد المكى الدارى إمام أهل مكة فى القراءة.

ولد بمكة سنة خمس وأربعين، ولقى بها عبدالله بن الزبير وأبا أيوب الأنصارى وأنس بن مالك ومجاهد بن جبر ودرباس مولى ابن عباس وروى عنهم، وأخذ القراءة عرضا عن عبدالله بن السائب، كما عرض أيضا على مجاهد بن جبر، ودرباس مولى ابن عباس.

وروى القراءة عنه إسماعيل بن عبدالله القسط، وإسماعيل بن مسلم وجرير بن حازم، وكثير غيرهم.

قال الأصمعى: قلت لأبى عمرو: قرأت على ابن كثير؟ قال: نعم، ختمت على ابن كثير بعدما ختمت على مجاهد، وكان ابن كثير أعلم

(١) المصدر السابق: ٢/ ٣٥٤. (٢) المصدر السابق: ١/ ٤٠٤

(٣) انظر الوافى فى شرح الشاطبية لعبدالفتاح القاضى: ١٥.

قال ابن مجاهد: ولم يزل عبدالله هو الإمام المجتمع عليه فى القراءة بمكة حتى مات سنة عشرين ومائة[1].

راوياه: وقد اشتهر برواية قراءته ولكن بالواسطة، البَزِّى وقنبل.

أما البزى: فهو أحمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم بن نافع بن أبى بزة، أبو الحسن، الإمام المكى، مقرىء مكة ومؤذن المسجد الحرام، ولد سنة سبعين ومائة، وتوفى سنة خمسين ومائتين[2].

وأما قنبل: فهو محمد بن عبدالرحمن بن خالد المكى الملقب بقنبل، انتهت إليه مشيخة الإقراء بالحجاز، ولد سنة خمس وتسعين ومائة، ومات سنة إحدى وتسعين ومائتين[3].

وعن ابن كثير وراوييه يقول صاحب الشاطبية[4]:

٢٧ ـ ومكة عبدالله فيها مُقامه   هو ابن كثير كاثر القوم مُعْتَلَى

٢٨ ـ روى أحمد البزى له ومحمد   على سند وهو الملقب قنبلا

٣ ـ عاصم

هو عاصم بن بهدلة، أبو النجود ـ بفتح النون وضم الجيم ـ الأسدى مولاهم الكوفى، شيخ الإقراء بالكوفة.

ويقال إن أبا النجود اسم أبيه لا يعرف له اسم غير ذلك، وبهدلة اسم أمه، وقيل اسم أبى النجود عبدالله.

وهو الإمام الذى انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة بعد أبى عبدالرحمن السلمى فى موضعه.

جمع بين الفصاحة والإتقان، والتحرير والتجويد، وكان أحسن الناس صوتا بالقرآن، أخذ القراءة عرضا عن زر بن حبيش وأبى

(١) غاية النهاية: ١/ ٤٤٣.
(٢) غاية النهاية: ١/ ١٢٠
(٣) الوافى فى شرح الشاطبية: ١٥.
(٤) المصدر السابق: ١٤.

عبدالرحمن السلمى، وأبى عمرو الشيبانى.

وثقة أبو زرعة وجماعة، وقال أبو حاتم محله الصدق، وحديثه مخرج فى الكتب الستة. توفى آخر سنة سبع وعشرين ومائة[1].

راوياه: روى القراءة عنه كثيرون، أشهرهم شعبة وحفص، كلاهما بدون واسطة.

أما شعبة: فهو شعبة بن عياش بن سالم أبو بكر الحناط الأسدى الكوفى الإمام توفى فى جمادى الأولى سنة ١٩٣هـ[2].

أما حفص: فهو حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدى الكوفى البزاز، أخذ القراءة عرضا وتلقينا عن عاصم، وكان ربيبه ابن زوجته.

قال الذهبى: أما القراءة فثقة ثبت ضابط لها، بخلاف حاله فى الحديث، يشير إلى أنه تكلم فيه من جهة الحديث، توفى سنة ثمانين ومائة على الصحيح[3].

٤ ـ أبو عمرو

هو زَبَّان بن العلاء بن عمار بن مازن أو عمرو التميمى المازنى البصرى ولد سنة ٦٨، وقيل غير ذلك.

توجه مع أبيه لما هرب من الحجاج، فقرأ بمكة والمدينة، والكوفة والبصرة، على جماعة كثيرة، فليس فى القراء السبعة أكثر شيوخا منه.

سمع أنس بن مالك وغيره.

وقرأ على الحسن البصرى، وحميد بن قيس الأعرج وأبى العالية الرياحى وسعيد بن جبير، وعاصم بن أبى النجود، وعبدالله بن كثير المكى وعطاء بن أبى رباح، وعكرمة مولى ابن عباس.

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٣٤٦.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٢٥.
(٣) غاية النهاية: ١/ ٢٥٤.

وكان أعلم الناس بالقرآن والعربية مع الصدق والثقة والزهد.

قال الأصمعي: قال لي أبو عمرو: لو تهيأ لي أن أفرغ ما في صدري في صدرك لفعلت، لقد حفظت في علم القرآن أشياء لو كتبت ما قدر الأعمش على حملها.

وقال عنه شعبة: إنه سيصير للناس إسنادا.

وقال ابن الجزري: «وقد صح ما قاله شعبة رحمه الله، فالقراءة التي عليها الناس اليوم بالشام والحجاز واليمن ومصر هي قراءة أبي عمرو، فلا تكاد تجد أحدا يلقن القراءة إلا على حرفه، خاصة في الفرش، وقد يخطئون في الأصول، ولقد كانت الشام تقرأ بحرف ابن عامر إلى حدود الخمسمائة فتركوا ذلك، لأن شخصا قدم من أهل العراق وكان يلقن الناس بالجامع الأموي على قراءة أبي عمرو فاجتمع عليه خلق، واشتهرت هذه القراءة عنه وأقام سنين، وأنا أعد ذلك من كرامات شعبة.

قال عبدالوارث: ولد أبو عمرو بمكة ونشأ بالبصرة ومات بالكوفة.

توفي سنة أربع وخمسين ومائة وقيل غير ذلك[(١)].

راوياه: أما راوياه فهما أبو عمر الدوري، وأبو شعيب السوسي.

فأما الدوري فهو: حفص بن عمر بن عبدالعزيز، والدور موضع قرب بغداد توفي سنة ست وأربعين ومائتين[(٢)].

وأما السوسي: فهو صالح بن زياد بن عبدالله بن إسماعيل بن إبراهيم أبو شعيب السوسي، مقرىء ضابط محرر ثقة، مات أول سنة إحدى وستين ومائتين.

وأخذ كل من الدوري والسوسي القراءة عن أبي عمرو البصري بواسطة يحيى اليزيدي[(٣)].

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٢٨٨. (٢) المصدر السابق: ١/ ٢٥٥. (٣) غاية النهاية: ١/ ٣٣٢.

وعن أبى عمرو البصرى وراوييه، والواسطة بينه وبينهما يقول صاحب الشاطبية رحمه الله:

٢٩ - وأما الإمام المازنى صريحهم ... أبو عمرو البصرى فوالده العلا

٣٠ - أفاض على يحيى اليزيدى سيبه ... فأصبح بالعذب الفرات معللا

٣١ - أبو عُمَر الدورى وصالحهم أبو ... شعيب هو السوسى عنه تقبلا[1]

٥ - حمزة

هو حمزة بن حبيب بن إسماعيل، الإمام الحبر، أبو عمارة الكوفى مولاهم، وقيل من صميمهم.

لقب بالزيات لأنه كان يجلب الزيت من العراق إلى حلوان، ويجلب الجوز والجبن إلى الكوفة.

ولد سنة ثمانين، وأدرك الصحابة بالسن، فيحتمل أن يكون رأى بعضهم، أخذ القراءة عرضا عن كثيرين، منهم سليمان الأعمش، وحمران بن أعين، ومحمد بن عبدالرحمن بن أبى ليلى، وجعفر بن محمد الصادق، وغيرهم.

وإليه صارت الإمامة فى القراءة بعد عاصم والأعمش، وكان إماما حجة ثقة ثبتا، قيما بكتاب الله، بصيرا بالفرائض، عارفا بالعربية، حافظا للحديث، عابدا خاشعا زاهدا ورعا، قانتا لله عديم النظر.

قال أبو حنيفة لحمزة: شيئان غلبتنا عليهما، لسنا ننازعك فيهما، القرآن والفرائض.

وكان شيخه الأعمش إذا رآه قد أقبل يقول: هذا حبر القرآن.

توفى سنة ست وخمسين ومائة، وقيل غير ذلك .. وقبره بحلوان

---

(١) الوافى فى شرح الشاطبية: ١٥.

مشهور.

راوياه: وقد روى القراءة عنه كثيرون، اشتهر منهم خلف وخلاد.

أما خلف: فهو خلف بن هشام بن ثعلب، أبو محمد الأسدى البزار، البغدادى، أحد الرواة عن سليم عن حمزة.

ولد سنة خمسين ومائة، وتوفى سنة تسع وعشرين ومائتين ببغداد، وهو مختف من الجهمية.

أما خلاد: فهو خلاد بن خالد أبو عيسى، الشيبانى مولاهم الصيرفى الكوفى، إمام فى القراءة ثقة عارف محقق أستاذ، أخذ القراءة عرضا عن سليم - وهو من أضبط أصحابه وأجلهم - عن حمزة، توفى سنة عشرين ومائتين.

وعن حمزة وراوييه، والواسطة بينه وبينهما يقول صاحب الشاطبية رحمه الله:

٣٧ - وحمزة ما أزكاه من متورع ... إماما صبورا للقرآن مرتلا

٣٨ - روى خلف عنه وخلاد الذى ... رواه سليم متقنا ومحصلا

٦ - نافع

هو نافع بن عبدالرحمن بن أبى نعيم أبو رويم المدنى، أحد القراء السبعة والأعلام، ثقة صالح، أصله من أصبهان، وكان أسود اللون حالكا، صبيح الوجه، حسن الخلق، فيه دعابة.

أخذ القراءة عرضا على سبعين من التابعين، على رأسهم عبدالرحمن بن هرمز الأعرج، وأبو جعفر القارئ، وشيبة بن نصاح، ويزيد بن رومان ومسلم بن جندب.

وروى القراءة عنه عرضا وسماعا كثيرون، منهم إسماعيل بن جعفر، وعيسى بن وردان، وسليمان بن مسلم بن جماز، ومالك بن أنس، وهم

من أقرانه، وغيرهم، خاصة قالون وورش، راوياه.

أقرأ نافع الناس دهرا طويلا، نيفا عن سبعين سنة، وانتهت إليه اسة القراءة بالمدينة، وصار الناس إليها.

قال الشيبانى: قال رجل ممن قرأ على نافع: إن نافعا كان إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك، فقلت له ياأبا رويم: تتطيب كلما قعدت تقرىء الناس؟ قال: ما أمس طيبا، ولا أقرب طيبا، ولكنى رأيت فيما يرى النائم النبى ﷺ وهو يقرأ فى فىَّ، فمن ذلك الوقت أشم من فيه هذه الرائحة.

وقال المسيبى: قيل لنافع: ما أصبح وجهك وأحسن خلقك!!

قال: فكيف لا أكون كذلك وقد صافحنى رسول الله ﷺ، وعليه قرأت القرآن، يعنى فى النوم.

وقال قالون: كان نافع من أطهر الناس خلقا، ومن أحسن الناس قراءة، وكان زاهدا جوادا، صلى فى مسجد النبى ﷺ ستين سنة.

لما حضرته الوفاة قال له أبناؤه أوصنا، قال: اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين.

مات سنة تسع وتسعين ومائة(١).

راوياه: وممن أذاع روايته بين الناس قالون وورش.

أما قالون: فهو عيسى بن مينا بن وردان الملقب قالون، قارىء المدينة ونحويها، يقال إنه ربيب نافع، وقد اختص به كثيرا، وهو الذى سماه قالون لجودة قراءته، فإن قالون بلغة الرومية جيد، غير أنهم ينطقون القاف كافا.

قال أبو محمد البغدادى: كان قالون أصم لا يسمع البوق، وكان إذا

---

(١)غاية النهاية: ٢/ ٣٣٠ وما بعدها.

قرأ عليه قارىء فإنه يسمعه.

وقال ابن أبى حاتم: كان أصم يقرىء القرآن، ويفهم خطأهم ولحنهم بالشفة.

توفى سنة عشرين ومائتين[1].

أما ورش: فهو عثمان بن سعيد، قيل سعيد بن عبدالله بن عمرو بن سليمان بن إبراهيم، وقيل سعيد بن عدى بن غزوان، القرشى، مولاهم القبطى المصرى، الملقب بورش، شيخ القراء المحققين، وإمام أهل الأداء المرتلين، انتهت إليه رئاسة الإقراء بالديار المصرية فى زمانه، ولد سنة عشر ومائة بمصر، ورحل إلى نافع بن أبى نعيم فعرض عليه القرآن عدة ختمات،

وكان أشقر أزرق أبيض اللون قصيرا، قيل إن نافعا لقبه بالورشان لأنه كان على قصره يلبس ثيابا قصارا، وكان إذا مشى بدت رجلاه، مع اختلاف ألوانه، فكان نافع يقول: هات ياورشان واقرأ ياورشان، وأين الورشان؟، ثم خفف فقيل ورش، والورشان طائر معروف، وقيل إن الورش شىء يصنع من اللبن، لقب به لبياضه، ولزمه ذلك حتى صار لا يعرف إلا به، ولم يكن فيما قيل أحب إليه منه، فيقول: أستاذى سمانى به.

توفى بمصر سنة سبع وتسعين ومائة عن سبع وثمانين سنة[2].

وعن نافع وراوييه يقول صاحب الشاطبية:

٢٥ ـ فأما الكريم السرفى الطيب نافع ... فذاك الذى اختار المدينة منزلا
٢٦ ـ وقالون عيسى ثم عثمان ورشهم ... بصحبته المجدَ الرفيع تأثلا[3]

---

(١) غاية النهاية: ١/٦١٥،٦١٦. (٢) المصدر السابق: ١/٥٠٢.

(٣) الوافى فى شرح الشاطبية: ١٤.

٧ ـ الكسائى

هو على بن حمزة بن عبدالله بن بهمن بن فيروز الأسدى مولاهم، وهو من أولاد الفرس، من سواد العراق، أبو الحسن الكسائى، الإمام الذى انتهت إليه رئاسة الإقراء بالكوفة، بعد حمزة الزيات.

أخذ القراءة عرضا عن حمزة أربع مرات، وعليه اعتماده، وعن محمد بن أبى ليلى، وعيسى بن عمر الهمذانى، وغيرهم.

وأخذ القراءة عنه عرضا وسماعا إبراهيم بن زاذان، وأحمد بن جبير وأحمد بن واصل، والإمام أحمد بن حنبل ويحيى بن معين.

قال فى مرض موته: إنى كنت أقرئ الناس فى مسجد دمشق فأغفيت فى المحراب، فرأيت النبى ﷺ فيما يرى النائم داخلا من باب المسجد، فقام إليه رجل فقال: بحرف من تقرأ؟ فأومأ إلىّ.

قال يحيى بن معين: ما رأيت بعينى هاتين أصدق لهجة من الكسائى.

وقال الشافعى رحمه الله: من أراد أن يتبحر فى النحو فهو عيل على الكسائى.

وقال أبو بكر الأنبارى: اجتمعت فى الكسائى أمور، كان أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم فى الغريب، وكان أوحد الناس فى القرآن، فكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الأخذ عليهم، فيجمعهم ويجلس على كرسى، ويتلو القرآن من أولة إلى آخره، وهم يسمعون ويضبطون عنه حتى المقاطع والمبادئ.

قال خلف بن هشام البزار: عملت وليمة فدعوت الكسائى واليزيدى، فقال اليزيدى للكسائى: ياأبا الحسن، أمور بلغتنا عنك، فتنكر بعضها، فقال الكسائى: أو مثلك يخاطب بهذا؟ وهل مع العالم من

العربية إلا فضل بصاقى هذا؟ ثم بصق، فسكت اليزيدى.

واجتمع الكسائى واليزيدى عند الرشيد، فحضرت صلاة فقدموا الكسائى يصلى، فارتج عليه قراءة ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ فقال اليزيدى: ﴿قل ياأيها الكافرون﴾ ترتج على قارىء الكوفة؟

فحضرت صلاة فقدموا اليزيدى، فارتج عليه فى الحمد فلما سلم قال:

احفظ لسانك لا تقول فتبتلى . · . إن البلاء موكل بالمنطق

وعن تسميته بالكسائى قال: لأنى أحرمت فى كساء.

توفى سنة تسع وثمانين ومائة، صحبة هارون الرشيد بقرية رنبويه، من عمل الرى، متوجهين إلى خراسان، ومات معه بالمكان المذكور محمد بن الحسن القاضى، صاحب أبى حنيفة.

فقال الرشيد: «دفنا الفقه والنحو بالرى»[1].

راوياه: أما راوياه اللذان كان لهما أكبر الأثر فى نشر روايته فهما أبو الحارث والدورى.

أما أبو الحارث فهو: الليث بن خالد البغدادى المروزى، ثقة معروف، حاذق ضابط، من أجلة أصحاب الكسائى، توفى سنة أربعين ومائتين[2].

أما الدورى فهو: حفص بن عمر بن عبدالعزيز، الذى سبق ذكره، وكان أحد الراويين عن أبى عمرو.

٣٩ ـ وأما على فالكسائى نعته   لما كان فى الإحرام فيه تسربلا

٤٠ ـ روى ليثهم عنه أبو الحارث الرضا   وحفص هو الدورى وفى الذكر قد خلا[3]

---

(١) غاية النهاية: ١/٥٣٥ وما بعدها   (٢) المصدر السابق: ٢/٣٤.

(٣) الوافى فى شرح الشاطبية: ١٧.

بقية القراء العشرة

من سبق ذكرهم هم المعروفون بالقراء السبعة، فإذا أضيف إليهم أبو جعفر، ويعقوب، وخلف قيل عنهم القراء العشرة، وهذه كلمة عن هؤلاء الثلاثة.

٨ ـ أبو جعفر

هو يزيد بن القعقاع المخزومى المدنى القارى، تابعى مشهور كبير القدر.

عرض القرآن على مولاه عبدالله بن عياش بن أبى ربيعة، وعبدالله ابن عباس، وأبى هريرة، وروى عنهم.

أتى به إلى أم سلمة ﵂ وهو صغير، فمسحت على رأسه، ودعت له بالبركة، وصلى بابن عمر.

روى القراءة عنه نافع بن أبى نعيم، وسليمان بن مسلم بن جماز، وعيسى بن وردان، وأبو عمرو، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم.

قال يحيى بن معين: كان إمام أهل المدينة فى القراءة، فسمى القارئ بذلك، وكان ثقة قليل الحديث.

روى ابن جماز أنه كان يصوم يوما ويفطر يوما، وهو صوم داود عليه السلام، واستمر على ذلك مدة من الزمان، فقال له بعض أصحابه فى ذلك فقال: إنما فعلت ذلك أروض به نفسى لعبادة الله تعالى.

لما غسل أبو جعفر بعد وفاته نظروا ما بين نحره إلى فؤاده بياضا مثل ورقة المصحف، فما شك أحد ممن حضر أنه نور القرآن.

توفى سنة ثلاثين ومائة.

قال سليمان بن أبى سليمان العمرى: رأيت أبا جعفر على الكعبة، يعنى فى المنام، فقلت: أبا جعفر؟ فقال: نعم، أقرئ إخوانى السلام

وأخبرهم أن الله جعلني من الشهداء الأحياء المرزوقين، وأقرىء أبا حازم، وقل له: يقول لك أبو جعفر: الكيس الكيس، فإن الله وملائكته يتراءون مجلسك بالعشيات[1].

راوياه: وقد اشتهر بالرواية عنه راويان، أذاعوا قراءته بين الناس، وهما: ابن وردان، وابن جَمّاز.

أما ابن وردان فهو: عيسى بن وردان أبو الحارث المدنى الحذاء إمام مقرىء حاذق، وراو محقق ضابط، عرض على أبى جعفر ونافع، توفى سنة ستين ومائة[2].

وأما ابن جَمّاز: فهو سليمان بن مسلم بن جَمّاز، أبو الربيع الزهرى مولاهم المدنى، مقرىء جليل ضابط.

عرض على أبى جعفر وشيبة ونافع، مات بعد السبعين ومائة[3].

٩ - يعقوب

هو: يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبدالله الحضرمى، مولاهم البصرى إمام أهل البصرة ومقرئيها.

أخذ القراءة عرضا عن سلام الطويل ومهدى بن ميمون، وشهاب بن شرنقة، ومسلمة بن محارب، وعلى أبى عمرو، وقرأ مسلمة على أبى الأسود الدؤلى، وأبو الأسود على علىّ رضي الله عنه.

وروى القراءة عنه عرضا كثيرون، منهم زيد بن أخيه أحمد، وكعب ابن إبراهيم، وعمر السراج، وحميد بن الوزير، وروح، ورويس، وهو صدوق، وكان من أعلم أهل زمانه بالقرآن والنحو وغيره، وكذلك أبوه وجده.

---

(١) غاية النهاية: ٢/٣٨٢.

(٢) المصدر السابق: ١/٦١٦.

(٣) غاية النهاية: ١/٣١٥.

قال أبو القاسم الهزلى: لم يُرَفى زمن يعقوب مثله، كان عالما بالعربيةووجوهها، والقرآن واختلافه، فاضلا تقيا، ورعا زاهدا، بلغ من زهده أنه سرق رداؤه عن كتفه وهو فى الصلاة ولم يشعر ورد إليه ولم يشعر، لشغله بالصلاة، وبلغ من جاهه بالبصرة أنه كان يحبس ويطلق.

وقال أبو حاتم: «يعقوب بن إسحاق من أهل بيت العلم بالقرآن والعربية، وكلام العرب، والرواية الكثيرة والحروف والفقه، وكان أقرأ القراء، وكان أعلم من أدركنا ورأينا بالحروف والاختلاف فى القرآن وبقليله، ومذاهب أهل النحو فى القرآن، وأروى الناس لحروف القرآن وحديث الفقهاء».

قال البخارى وغيره: «مات فى ذى الحجة سنة خمس ومائتين، وله ثمان وثمانون سنة، ومات أبوه عن ثمان وثمانين سنة، وكذلك جده وجد أبيه رحمهم الله تعالى»(١).

راوياه: ومن أشهر رواته روح بن عبدالمؤمن، ومحمد بن المتوكل الملقب برُوَيْس، أما روح: فهو روح بن عبدالمؤمن، أبو الحسن الهذلى، مولاهم البصرى النحو، مقرىء جليل، ثقة ضابط مشهور، أخذ القراءة عرضا عن يعقوب، توفى سنة أربع أو خمس وثلاثين ومائتين(٢).

أما رويس فهو: محمد بن المتوكل، أبو عبدالله اللؤلؤى البصرى، المعروف برويس، مقرىء حاذق ضابط مشهور، أخذ القراءة عرضا عن يعقوب، وهو من أحذق أصحابه.

توفى بالبصرة سنة ثمان وثلاثين ومائتين(٣).

---

(١) غاية النهاية: ٢/٣٨٦ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق: ١/٢٨٥.

(٣) غاية النهاية: ٢/٢٣٤.

١٠ ـ خلف

تقدم ذكره أثناء حديثنا عن الإمام حمزة، أحد القراء السبعة، فقد كان أحد راوييه اللذين أذاعا قراءته، ولكن بالواسطة، فقد أخذها عن سليم عن حمزة.

حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وابتدأ فى الطلب وهو ابن ثلاث عشرة وكان ثقة كبيرا، زاهدا عابدا، عالما.

قال: أشكل عَلىّ باب من النحو فأنفقت ثمانين ألف درهم حتى حفظته أوْ قال: عرفته.

قال ابن أشتة: كان خلف يأخذ بمذهب حمزة إلا أنه خالفه فى مائة وعشرين حرفا، أى فى اختياره.

توفى سنة تسع وعشرين ومائتين ببغداد، وهو مختف من الجهمية(١).

راوياه: وممن أذاع قراءته ونشرها بين الناس:

١ ـ إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبدالله أبو يعقوب المروزى ثم البغدادى، أطلق عليه أنه وراق خلف وراوى اختياره عنه، كان رحمه الله ثقة، توفى سنة ست وثمانين ومائتين(٢).

٢ ـ إدريس بن عبدالكريم الحداد، أبو الحسن البغدادى، إمام ضابط متقن ثقة، قرأ على خلف روايته.

توفى يوم الأضحى سنة اثنتين وتسعين، ومائتين عن ثلاث وتسعين سنة(٣).

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٥٥.

(٣) غاية النهاية: ١/ ١٥٤.

١٤

وإذا أضيف أربعة آخرون إلى أصحاب القـراءات العشر المتواترة قيل عن الجميع القراء الأربعة عشر.

وهؤلاء الأربعـة هم: الحـسن البصـرى، وابن مـحيـصن، ويحـيى اليزيدى، والشنبوذى، ولكن قراءتهم غير مـتواترة، بل شاذة، كما سبق بيانه.

١١ ـ الحسن البصرى

أما الحسن البصرى فهو: الحـسن بن أبى الحسن يسار، السيد الإمام أبو سعيد البصرى، إمام زمانه علما وعملا.

قال الشافـعى رحمه الله: «لو أشاء أقول إن القـرآن نزل بلغة الحسن لقلت، لفصاحته».

ومناقبه جليلة وأخباره طويلة.

ولد لستين بقيتا من خلافه عمر ﷺ، وذلك سنة إحدى وعشرين؛ توفى سنة عشر ومائة[1].

١٢ ـ ابن محيصن

أما ابن محيصن فـهو: محمد بن عبدالرحمن بن مـحيصن السهمى مولاهم المكى، مـقرىء أهل مكة مع ابن كـثير، ثقـة، روى له مسلم، وكان أعلمـهم بالعربية وأقواهم عليـها، مات سنة ثلاث وعشـرين ومائة بمكة، وقيل سنة اثنتين وعشرين[2].

---

(١) غاية النهاية: ١/ ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٦٧.

١٣ - يحيى اليزيدى

أما يحيى اليزيدى: فهو يحيى بن المبارك بن المغيرة، الإمام أبو محمد، العدوى البصرى، المعروف باليزيدى.

نحوى، مقرىء ثقة، علامة كبير، نزل بغداد، وعرف باليزيدى لصحبته يزيد بن منصور الحميرى، خال المهدى، فكان يؤدب ولده.

أخذ القراءة عن أبى عمرو، وهو الذى خلفه بالقيام بها، وعن حمزة أيضا.

كان ثقة علامة فصيحا مفوها، بارعا فى اللغات والآداب، توفى سنة اثنتين ومائتين بمرو[١].

١٤ - الشنبوذى

أما الشنبوذى فهو: محمد بن أحمد بن إبراهيم بن يوسف أبو الفرج الشنبوذى البغدادى.

أستاذ من أئمة هذا الشأن، رحل ولقى الشيوخ، وأكثر وتبحر فى التفسير، ولد سنة ثلاثمائة وتوفى فى صفر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة[٢].

وبعد..

فهؤلاء الأئمة وغيرهم من أعلام الأمة قد قيضهم الله عز وجل لحفظ قرآنه، فقرؤوه وأقرؤوه، وجمعوا القراءات وميزوا صحيحها من شاذها، ووضعوا لذلك أصولا، وأسسوا لذلك أركانا، ولازال التاريخ يذكرهم لنا بخير، ولازالت الأئمة تدون لنا أسماءهم التى نقشوها فى ذاكرة ذلك التاريخ.

---

(١) غاية النهاية: ٢/ ٣٧٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٥٠.

يقول السيوطى رحمه الله: بعد أن ذكر عددا من القراء من الصحابة والتابعين في مكة والمدينة والبصرة والشام والكوفة وغيرها، وبعد أن تكلم عن القراء السبعة، وعن راويى كل قارىء منهم:

«ثم لما اتسع الخرق وكاد الباطل يلتبس بالحق قام جهابذة الأمة وبالغوا فى الاجتهاد، وجمعوا الحروف والقراءات، وعزوا الوجوه والروايات، وميزوا الصحيح والمشهور والشاذ، بأصول أصلوها، وأركان فصلوها.

فأول من صنف فى القراءات أبو عبيد القاسم بن سلام، ثم أحمد ابن جبير الكوفى، ثم إسماعيل بن إسحق المالكى، صاحب قالون ثم أبو جعفر بن جرير الطبرى، ثم أبو بكر محمد بن أحمد بن عمر الدجونى، ثم أبو بكر مجاهد.

ثم قام الناس فى عصره وبعده بالتأليف فى أنواعها، جامعا ومفردا، وموجزا ومسهبا..

وأئمة القراءات لا تحصى، وقد صنف طبقاتهم حافظ الإسلام أبو عبدالله الذهبى، ثم حافظ القراء أبو الخير، بن الجزرى»[1].

---

(١) الإتقان: ١/ ٧٣.

الوقف والابتداء

الوقف والابتداء

هذا الموضوع من أهم الموضوعات القرآنية التى ينبغى على قارىء القرآن معرفته والأصل فى ذلك ما يلى:

١ ـ ما رواه الترمذى وأبو داود وأحمد عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يَقْطع قراءته، يقول: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ثم يقف ﴿الرحمن الرحيم﴾ ثم يقف(١).

والترمذى وإن ضعفه من طريق، فإنه قد ذكر طريقا آخر أصح منه، حيث قال: «وليس إسناده بمتصل، لأن الليث بن سعد روى هذا الحديث عن ابن أبى مليكة عن يعلي بن مملك، عن أم سلمة، وحديث الليث أصح».

٢ ـ واستأنس له أبو جعفر النحاس بقول النبى ﷺ للخطيب: «بئس الخطيب أنت» حينما قال: «ومن يعصهما» ووقف، فقد كان ينبغى أن يصل كلامه فيقول: «ومن يعصهما فقد غوى»، أو يقف على «ورسوله فقد رشد» حينما قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى»(٢).

وأهل القراءات يحملون الحديث على الوقف القبيح، ويشهد لذلك رواية الإمام أحمد حيث جاء فيها: «جاء رجلان إلى النبى ﷺ فتشهد أحدهما فقال من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما، فقال رسول الله ﷺ «بئس الخطيب أنت، قم».

---

(١) الترمذى: كتاب القراءات، باب (١)، وسنن أبى داود، كتاب الحروف والقراءات ومسند أحمد: ٣٠٢/٦.

(٢) مسلم: كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة، ومسند أحمد: ٣٧٩/٤.

قال الزركشي: «فإذا كان مكروها في الخطب، ففي كلام الله أشد»[1].

٣ - كما أخرج البيهقي في سننه[2]، أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وما ينبغي أن يوقف عنده منها، كما تتعلمون أنتم القرآن اليوم، ولقد رأينا اليوم رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدرى ما أمره ولا زجره، ولا ما ينبغي أن يوقف عنده منه».

٤ - وعن علي رضي الله عنه في قوله تعالى من سورة المزمل: ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ قال: «الترتيل تجويد الحروف ومعرفة الوقوف»[3].

أهميته

لمعرفة الوقف والابتداء أهمية جليلة، لما يترتب عليها من فوائد عديدة، على رأسها ما يلي:

١ - معرفة المعنى الصحيح لكلام الله تعالى، إذ لو لم يعلم القارىء أو السامع نهاية الكلام من عدمه، لما وصل إلى المعنى الصحيح.

كما إذا قرأ مثلا: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ آل عمران: ٧، ولم يعلم أن نهاية المعنى عند الوقف على لفظ الجلالة، وهو مذهب السلف، وهو المختار عندنا.

٢ - الاستنباط الصحيح للأدلة الشرعية، فهناك أحكام شرعية تترتب

---

(١) البرهان: ١/ ٤٩٩.

(٢) كما ذكر السيوطي في الاتقان: ١/ ٨٣.

(٣) الاتقان: ١/ ٨٣.

على الوقف، كما إذا وقف على قوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبدًا﴾ النور: ٤، فإن شهادة القاذف لا تقبل مطلقا وإن تاب، بخلاف ما لم يقف، ووصل بما بعده.

قال النكزاوى - فيما ينقل عنه السيوطى فى الإتقان[1]:

«باب الوقف عظيم القدر، جليل الخطر، لأنه لا يتأتى معرفة معانى القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل».

حكم تعلمه

اعتنى السلف والخلف بالحض على تعلم الوقف والابتداء، بل إن بعض العلماء أخذ من كلام على ﷺ دليلا على الوجوب، ومن كلام ابن عمر دليلا على إجماع الصحابة عليه.

يقول ابن الجزرى رحمه الله فى كتابه «النشر»:

«ففى كلام على ﷺ دليل على وجوب تعلمه ومعرفته، وفى كلام ابن عمر برهان على أن تعلمه إجماع من الصحابة ﷺ، وصح بل تواتر عندنا تعلمه والاعتناء به من السلف، كأبى جعفر يزيد بن القعقاع إمام أهل المدينة، الذى هو من أعيان التابعين، وصاحبه الإمام نافع بن أبى نعيم، وأبى عمرو بن العلاء، ويعقوب الحضرمى، وعاصم بن أبى النجود، وغيرهم من الأئمة، وكلامهم فى ذلك معروف، ونصوصهم عليه مشهورة فى الكتب.

ومن ثم اشترط كثير من أئمة الخلف على المجيز أن لا يجيز أحدا إلا بعد معرفته الوقف والابتداء، وكان أئمتنا يوقفوننا عند كل حرف، ويشيرون إلينا فيه بالأصابع، سنة أخذوها كذلك عن شيوخهم الأولين، رحمة الله عليهم أجمعين»[2].

---

(١) الجزء الأول: ٨٣.

(٢) النشر فى القراءات العشر: ١/ ٢٢٥.

تعريفات

وهنا عدة تعريفات يجب علينا أن نقف على معرفتها[1]، وهي:

١ ـ الوقف. ٢ ـ والسكت. ٣ ـ والقطع. ٤ ـ والابتداء.

فالوقف: هو قطع الكلمة عما بعدها بمقدار من الزمن، يتنفس فيه القارىء بنية العودة إلى القراءة.

ويكون ذلك آخر الآية، أو أثناءها، أو فى آخر السور، ولا يكون فى وسط الكلمة، ولا فيما اتصل رسما.

أما السكت: فهو عبارة عن قطع الصوت زمنا هو دون زمن الوقف عادة من غير تنفس.

أماالقطع: فهو قطع الكلمة عما بعدها مقدارا من الزمن مع التنفس بعدم نية العودة إلى القراءة.

يقول ابن الجزرى: «القطع عندهم ـ أى عند المتأخرين ـ عبارة عن قطع القراءة رأسا، فهو كالانتهاء، فالقارىء به كالمعرض عن القراءة، والمنتقل منها إلى حالة أخرى سوى القراءة، كالذى يقطع على حزب أو ورد أو عشر، أو فى ركعة ثم يركع أو نحو ذلك مما يؤذن بانقضاء القراءة والانتقال منها إلى حالة أخرى، وهو الذى يستعاذ بعده للقراءة المستأنفة، ولا يكون إلا على رأس آية، لأن رؤوس الآى فى نفسها مقاطع»[2].

أما الابتداء: فهو استئناف القراءة بعد الوقف، أو بعد السكوت فى أثناء القراءة.

شروط الوقف[3]

علم الوقف والابتداء علم جليل وخطير، يتوقف عليه فهم المعنى،

---

(١) انظر في ذلك: النشر: ١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٩، والاتقان: ١/ ٨٨، وبغية الطالبين، للشيخ حسن عراقى: ١٢٢ ـ ١٢٨.

(٢) النشر: ١/ ٢٣٩.

(٣) انظر البرهان: ١/ ٥٠٠ ـ ٥٠٥.

واستنباط الأحكام الشرعية، لذلك فإنه يحتاج معه إلى عدة علوم، ويأتى على رأس هذه العلوم ما يأتى:

١ ـ علم النحو، كالوقف على قوله: ﴿ولم يجعل له عوجا﴾ الآية الأولى من سورة الكهف، والابتداء بـ﴿قيما﴾ لئلا يتوهم كونه صفة لـ﴿عوجا﴾ إذ العوج لا يكون قيما.

٢ ـ علم التفسير، لأنه إذا وقف على ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة﴾ المائدة: ٢٦، كان المعنى أنها محرمة عليهم هذه المدة، وإذا وقف على ﴿فإنها محرمة عليهم﴾ كان المعنى محرمة عليهم أبدا وأن التيه أربعون سنة، فرجع فى هذا إلى التفسير، فيكون التفسير بحسب ذلك.

٣ ـ علم المعانى: فإنه يجب الوقف على قوله: ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ يونس: ٦٥، ثم يبتدىء ﴿إن العزة لله جميعا﴾.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ آل عمران: ٧، فالوقف عند جمهور العلماء هنا تام، بناء على أن الله تعالى استأثر بعلم المتشابه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولدا﴾ البقرة: ١١٦، والابتداء بقوله: ﴿سبحانه﴾ حتى لا يتوهم أنه من كلامهم.

٤ ـ علم القراءات، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والجروح قصاص﴾ المائدة: ٤٥.

فمن نصب ﴿والعين بالعين﴾ كان الوقف على ﴿قصاص﴾ وقفا تاما، أما من رفع فالوقف على ﴿أن النفس بالنفس﴾ وتكون ﴿والعينُ بالعين﴾ ابتداء حكم فى المسلمين، وما قبله فى التوراة.

رؤوس الآى والوقف عليها

ذهب فريق من القراء إلى تتبع معنى الكلام، والوقوف عليه وإن لم

يكن رأس آية.

بينما ذهب فريق آخر إلى أن رأس الآية يوقف عليه، حتى لو لم يتم المعنى، لأن هذا هو السنة، الواردة عن رسول الله ﷺ في حديث أم سلمة رضي الله عنها، وقد ذكرناه قريبا.

وهذا هو الذى أميل إليه، وقد رجحه كثير من العلماء، كالزركشى فى البرهان، والبيهقى فى شعب الإيمان، وغيرهما.

قال الزركشى: «وأكثر أواخر الآى فى القرآن تام أو كاف، وأكثر ذلك فى السور القصار الآى نحو الواقعة.

قال - أى بعض المتأخرين - وهذا هو الأفضل، أعنى الوقف على رؤوس الآي، وإن تعلقت بما بعدها، وذهب بعض القراء إلى تتبع الأغراض والمقاصد، والوقف عند رؤوس انتهائها.

ثم قال الزركشى: «واتباع السنة أولى، وممن ذكر ذلك الحافظ أبو بكر البيهقى فى شعب الإيمان وغيره، ورجح الوقف على رؤوس الآى وإن تعلقت بما بعدها»(1).

أقسام الوقف

ينقسم الوقف إلى قسمين:

١ - اضطرارى. ٢ - واختيارى.

أما الاضطرارى: فهو الذى يعرض للقارىء أثناء القراءة بسبب انقطاع نفسه، أو السعال، أو عطاس، ونحو ذلك، فسببه الاضطرار، وحكمه: أنه يجوز للقارىء الوقف على أى كلمة مادام مضطرا للوقوف عليها، وبعد أن تزول الضرورة يبتدىء بالكلمة التى وقف عليها إن صح الابتداء، وإلا فالابتداء بما قبلها.

---

(١) البرهان: ١/ ٥٠٥، ٥٠٦.

أقسام الوقف الاختيارى

بنقسم الوقف الاختيارى إلى أربعة أقسام:

١ ـ وقف تام. ٢ ـ وقف كاف.

٣ ـ وقف حسن. ٤ ـ وقف قبيح.

أما الوقف التام: فهو الوقف على كلام تم معناه، ولا تعلق بما بعده لفظا ومعنى.

وسمى تاما: لأن المعنى قد تم به، واستغنى عما بعده.

ومراد العلماء من عدم تعلق الكلام بما بعده لفظا ومعنى أى أن الكلام قد أفاد معنى كاملا يحسن السكوت عليه، كما يقول العلماء عن الكلام المفيد، وليس مرادهم انفصاله عما بعده انفصالا تاما، بحيث لا توجد مناسبة بينهما، كلا، فالمناسبة موجودة بين جميع الآيات، بل بين كل سورتين متجاورتين رغم استقلال كل منهما عن الأخرى استقلالا تاما، كما سيأتى بيانه فى موضوع المناسبات بين الآيات والسور، إن شاء الله تعالى.

والوقف التام يكون فى: أواخر السور، وأواخر القصص، وأواخر الآيات، وأوسطها.

قال ابن الجزرى: «وقد يكون بعد انقضاء الآية بكلمة، نحو ﴿وإنكم لتمرون عليهم مصبحين﴾ هو آخر الآية، التمام ﴿وبالليل﴾[1]، أى مصبحين ومليلين، ونحوه ﴿وسررا عليها يتكئون﴾ آخر الآية، والتمام ﴿وزخرفا﴾[2].

وقد يكون الوقف تاما على تفسير أو إعراب، ويكون غير تام على آخر، نحو ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ فهو تام عند جمهور العلماء من

---

(١) الصافات: ١٣٧, ١٣٨. (٢) الزخرف: ٣٤, ٣٥.

المحدثين وأئمة العربية وغيرهم، وغير تام عند آخرين، والتمام عندهم على ﴿والراسخون فى العلم﴾ فهو عندهم معطوف عليه.

وقد يكون الوقف تاما على قراءة، وغير تام على أخرى، نحو ﴿مثابه للناس وأمنا﴾ البقرة: ١٢٥، تام على قراءة من كسر خاء ﴿واتخذوا﴾ وكاف على قراءة من فتحها»[1].

والوقف التام، يوقف عليه ثم يبتدأ بما بعده، نحو ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ والابتداء بـ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ وهكذا على رأس كل آية، والابتداء بما بعدها، من سورة الفاتحة.

(الوقف الكافى): هو الذى له تعلق بما بعده معنى، لكنه منقطع لفظا ويكون فى أواخر الآيات، نحو ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فى أول البقرة، كما يكون فى أثناء الآيات، نحو ﴿قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى﴾ المائدة: ٢٥.

ورمز له فى المصحف بـ﴿قلى﴾ ومعناها أنه يجوز الوقف والوصل ولكن الوقف أولى، بعكس الرمز ﴿صلى﴾ فى الوقف الحسن، فالوصل أولى، وسمى كافيا للاكتفاء به، واستغنائه عما بعده.

قال ابن الجزرى: «وقد يكون الوقف كافيا على تفسير أو إعراب، ويكون غير كاف على آخر، نحو ﴿يعلمون الناس السحر﴾ البقرة: ١٠٢، كاف إذا جعلت (ما) بعده نافية، فإن جعلت موصولة كان حسنا، فلا يبتدأ بها.

وقد يكون كافيا على قراءة غير كاف على أخرى، نحو ﴿يحاسبكم به الله﴾ البقرة: ٢٨٤، كاف على قراءة من رفع ﴿فيغفر﴾ و﴿يعذب﴾ وحسن على قراءة من جزم».

(١) النشر: ١/٢٢٧, ٢٢٨.

(الوقف الحسن): هو الوقف على كلام تام، متعلق بما بعده لفظا ومعنى، وسمى حسنا لأنه أفاد فائدة يحسن السكوت عليها.

وحكمه أنه يحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده إذا كان رأس آية، كالوقف على العالمين، من قوله: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ والابتداء بما بعده سنة يثاب عليها القارىء.

أما إذا لم يكن رأس آية كالوقف على ﴿الحمد لله﴾ حسن الوقف عليه دون الابتداء بما بعده، فإن وقف وصله بما بعده، والوقف الحسن يكون فى أواخر الآيات وأثناءها.

قال ابن الجزرى - رحمه الله:

«وقد يكون الوقف حسنا على تقدير، وكافيا على آخر، وتاما على غيرهما، نحو قوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ يجوز أن يكون حسنا إذا جعل ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ نعتا ﴿للمتقين﴾، وأن يكون كافيا إذا جعل ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ رفعا، بمعنى: هم الذين يؤمنون بالغيب، أو نصبا بتقدير: أعنى الذين، وأن يكون تاما إذا جعل ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ مبتدأ، وخبره ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾[1].

(الوقف القبيح): هو الوقف على مالا يتم الكلام به، وله تعلق بما بعده لفظا ومعنى، كالوقف على الفعل دون فاعله، أو على المبتدأ دون خبره، أو على الناصب دون منصوبه، ونحو ذلك.

وإنما سمى قبيحا لقبح الوقف عليه دون ضرورة تستدعى ذلك.

والوقف القبيح متفاوت، فبعضه أقبح من بعض، لأن منه ما يحيل المعنى نحو ﴿وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه﴾ النساء: ١١، لأن المعنى حيئذ أن البنت مشتركة فى النصف مع أبويه، وإنما المعنى أن

---

(١) النشر: ١/ ٢٢٩.

النصف للبنت دون الأبوين، ثم استأنف حكم الأبوين عن الواجب لهما مع الولد.

وكذا الوقف على قوله: ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى﴾ الأنعام: ٣٦.

لأن هذا الوقف يقتضى أن يكون الموتى يستجيبون مع الذين يسمعون، بينما الأمر على غير ذلك، فالموتى لا يستجيبون.

وأقبح القبح الوقف والابتداء الموهمان خلاف المعنى، خاصة إذا كان ذلك متعلقا بالله تعالى.

ومثال ذلك: الوقف على ﴿فويل للمصلين﴾ الماعون: ٤، والابتداء بما بعده، والوقف على ﴿لا تقربوا الصلاة﴾ النساء: ٤٣، والابتداء بما بعده ﴿وأنتم سكارى﴾.

والوقف على ﴿إن الله لا يستحيى﴾ البقرة: ٢٦، وعلى ﴿فبهت الذى كفر والله﴾ البقرة: ٢٥٨، وعلى ﴿إن الله لا يهدى﴾ من قوله ﴿إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار﴾ الزمر: ٣.

فلا يجوز الوقف على مثل هذا إلا اضطرارا، لانقطاع النفس ونحوه، فإن وقف عليه ابتدأ بالكلمة التى وقف عليها إن صح الابتداء بها، وإلا فبما قبلها إن صح الابتداء بها.

المناسبات بين السور والآيات

المناسبات بين السور والآيات

الترابط بين أجزاء الكلام سمة من سمات بلاغته، وإذا وجدنا من العلماء من وضع كتابا فى فن من الفنون، فإن الترابط بين أجزائه وعباراته لا تقارن بهذا الترابط الموجود بين آيات القرآن بعضها ببعض، وكذلك سوره، إلا إذا قارنا بين ما يصدر عن المخلوق وبين ما يصدر عن خالقه، وهذا الترابط هو ما يعتنى به العلماء فى مجال التفسير وعلوم القرآن حينما يتحدثون عما يعرف بعلم المناسبات.

تعريف المناسبة

والمناسبة فى اللغة - كما يقول صاحب القاموس المحيط -: المشاكلة[1].

وعنها يقول الزركشى: «والمناسبة فى اللغة المقاربة، وفلان يناسب فلانا أى يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب الذى هو القريب المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه»[2].

وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نقول إن المقصود بالمناسبة فى اصطلاح العلماء: المقاربة بين الآيات، أو السور لرابط يجمع بين تلك الآيات أو السور.

فائدة هذا العلم

وفائدة هذا العلم إظهار الترابط والتناسق بين أجزاء الكلام، حتى تبدو السورة كلها كأنها آية واحدة، أو موضوع واحد ذو أجزاء متماسكة، وحتى يبدو القرآن كله كأنه سلسلة مكونة من عدة حلقات، كل حلقة

---

(١) القاموس المحيط: نسب.

(٢) البرهان: ١/ ٣٥.

آخذة بحجز أختها، على أشد ما يكون الأخذ.

قلة الاهتمام بهذا العلم

وهذا العلم لم يعتن به العلماء إلا بعد فترة ليست بالقصيرة من تدوين العلوم، إما لدقته التى لا تلوح لأى أحد، وإما لعدم اشتراط بعض العلماء وجود تلك المناسبة بين كل الآيات، أو بين كل السور.

يقول الزركشى رحمه الله: «وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم، وفوائده غزيرة، قال القاضى أبو بكر بن العربى فى سراج المريدين: «ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعانى، منتظمة المبانى علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله، ورددناه إليه».

وقال الشيخ أبو الحسن الشهرابانى: «أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابورى، وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسى إذا قرئ عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزرى على علماء بغداد، لعدم علمهم بالمناسبة»[1].

أبرز المهتمين بهذا العلم

ومن أبرز من اهتم بهذا العلم الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره «مفاتيح الغيب»، وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير المتوفى سنة ٨٩٧ هـ فى كتابه «البرهان فى ترتيب سور القرآن» والإمام برهان الدين

(١) البرهان: ١/٣٦.

إبراهيم بن عمر البقاعى، فى تفسيره المسمى «نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور» وهو أوسع كتاب فى هذا العلم، توفى صاحبه عام ٨٨٥هـ.

وللحافظ جلال الدين السيوطى كتاب خاص فى المناسبات بين السور أسماه «تناسق الدرر فى تناسب السور».

كذلك وجدنا الإمام الآلوسى رحمه الله يهتم فى تفسيره فى أثناء أول كل سورة ببيان المناسبة بين السورتين.

ومن الذين أفردوا كتابا خاصا عن المناسبة بين السور الشيخ عبدالله محمد الصديق الغمارى أسماه «جواهر البيان فى تناسب سور القرآن» ألفه سنة ١٣٨٥ هجرية، وهو مطبوع متداول(١).

ومن أمتع وأدق ما كتب فى المناسبات ما جاء فى ظلال القرآن، السيد قطب أكرمه الله وطيب ثراه، حينما يربط بين الآيات، أو بين أجزاء السورة، أو بين السورتين، بعبارات سلسلة جذابة، دونما تكلف أو تعسف، يعز على الأكثرين مجاراته فى هذه الناحية.

فجزى الله الجميع خير الجزاء.

عدم اشتراط بعض العلماء المناسبة

ومع اهتمام المدققين والمحققين فى إبراز ذلك الترابط بين الآيات والسور فإننا وجدنا بعض العلماء ـ كما أشرنا سابقا ـ لا يرى ذلك الارتباط مطردا، بين كل الآيات أو السور، بل يراه موجودا بينها فى أحوال، ومنعدما فى أحوال أخرى.

يقول العز بن عبدالسلام فيما ينقل عنه الإمام الزركشى رحمه الله:

«المناسبة علم حسن، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع

---

(١) يطلب من مكتبة القاهرة بشارع الصنادقية بميدان الأزهر، كما قال زميلنا د. محمد عبدالرحمن فى كتابه «مباحث فى علوم القرآن»: ٤٢.

فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر.

ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يُصان عنه حَسَن الحديث، فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل فى نَيِّف وعشرين سنة، فى أحكام مختلفة، ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض، إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله فى خلقه وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب، كتصرف الملوك والحكام والمفتين، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة، ومتخالفة ومتضادة.

وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض مع اختلافها فى نفسها، واختلاف أوقاتها»[١].

الرد على العز بن عبدالسلام

وقد أحسن ولى الدين الملوى أحد أساتذة الزركشى فى الرد على العز بن عبدالسلام فى هذا الشأن.

حيث يقول الزركشى: «قال بعض مشايخنا المحققين[٢]: قدوهم من قال لا يطلب للآى الكريمة مناسبة، لأنها على حسن الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما فى الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف.

وحافظ القرآن العظيم لو استفتى فى أحكام متعددة أو ناظر فيها، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يَتْلُ

---

(١) البرهان: ١/ ٣٧.

(٢) هو كما قلنا ولى الدين الملوى، كما نص على ذلك البقاعى فى مقدمة تفسيره والسيوطى فى الاتقان ٢/١١٨.

كما أفتى، ولا كما نزل مفرقا، بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة.

ومن المعجز البين أسلوبه، ونظمه الباهر، فإنه ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾[1].

تنبيـــــه

وجود المناسبة بين السور مؤسس على اعتبار أن ترتيب السور توقيفى وليس اجتهاديا، وهو الرأى الراجح من أقوال العلماء.

أولا: المناسبة بين الآيات

كيف تعرف المناسبة بين الآيات؟

قال ولى الدين الملوى المنفلوطى الشافعى: «والذى ينبغى فى كل آية أن يبحث أول كل شىء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ففى ذلك علم جم، وهكذا فى السور، يطلب وجه اتصالها بما قبلها، وما سيقت له»[2].

وقال أبو القاسم محمد المشدالى المغربى، شيخ البقاعى: «الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو:

١ ـ أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة.

٢ ـ وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات.

٣ ـ وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات، فى القرب والبعد من المطلوب.

٤ ـ وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف تقتضى البلاغة شفاء الغليل، بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها.

---

(١) البرهان: ٣٧/١، والآية من سورة هود رقم (١).

(٢) البرهان: ٣٧/١.

فهـذا هو الأمر الكلى المهـيمن على حكـم الربط بين جمـيع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبـين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية، فى كل سورة»[1].

تنبيـــــه

مرجع المناسبة - سواء أكانت بين أجزاء الآية، أم بين الآيات، أم بين السور - إلى رابط ما، سـواء أكان هذا الرابط عاما أم خاصـا، عقليا أم حسيا أم خياليا، ويجوز أن ترجع المناسبة إلى التلازم بين أجزاء الآية، أو الآيات، أو السور، سـواء أكان هذا التلازم ذهنـيا، كالسـبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحـو ذلك، أم كان هذا التلازم خارجيا، كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع فى باب الخبر[2].

أوجه المناسبة بين الآيات

لا تخلو الآية من كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة.

فإن كانت مكمـلة لما قبلها فالأمر هين حـينئذ، فلا تحتـاج إلى إمعان فكر أو كد ذهن، لوضوح المناسبة.

ويتضح ذلك بجلاء فى الأحوال الآتية:

١ - عدم تمام معنى الآية الأولى، واحـتياجه إلى الآية الثـانية، مثل: صدر سورة الصافات والمرسلات وغيرهما.

٢ - إذا كانت الآية الثـانية صفة لكلمـة فى الآية الأولى، مثل ﴿ذلك الكتـاب لا ريب فيـه هدى للمتـقين، الذين يؤمنون بالغيـب...﴾ من سورة البقرة.

٣ - إذا كانت الثانية تفسـيرا للأولى، مثل ﴿إن الإنسان خلق هلوعا،

(١) نظم الدرر: ١/١١.

(٢) انظر البرهان: ١/٣٥، والاتقان: ٢/١٠٨.

إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا﴾ من سورة المعارج، وقوله تعالى: ﴿وبشر المخبتين، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم...﴾ الآية من سورة الحج.

٤ ـ الاعتراض، وهو كما قال السيوطى[١] ـ الإتيان بجملة أو أكثر، لا محل لها من الإعراب، فى أثناء كلام أو كلامين اتصلا معنى، لنكتة غير دفع الإيهام.

وقد يحدث أن تتداخل الاعتراضات فى بعضها كقوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم﴾ سورة الواقعة.

يقول السيوطى: «اعترض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿وإنه لقسم﴾، وبين القسم وصفته بقوله: ﴿لو تعلمون﴾، تعظيما للمقسم به، وتحقيقا لإجلاله، وإعلامًا لهم بأن له عظمة لا يعلمونها.

قال الطيبى فى التبيان: «ووجه حسن الاعتراض حسن الإفادة، مع أن مجيئه مجىء مالا يترقب، فيكون كالحسنة تأتيك من حيث لا تحتسب»[٢].

٥ ـ البدل، كقوله تعالى: ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ الشورى.

وقوله تعالى: ﴿لنسفعا بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة﴾ العلق الآيتان: ١٥, ١٦.

٦ ـ أن تكون الثانية تأكيدا لمضمون الأولى، كقوله تعالى: ﴿قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾ الجمعة.

---

(١) فى الاتقان: ٢/ ٧٥.

(٢) الاتقان: ٢/ ٧٥.

٧ ـ أن تكون الثانية تعليلا للحكم الوارد فى الأولى، مثل قوله تعالى: ﴿يأأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى﴾ إلي قوله تعالى: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ البقرة.

٨ ـ أن تكون الثانية سببا للأولى، كقوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس﴾[1].

فبين إبراهيم سبب طلبه من الله عز وجل أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، ألا وهو أنها أضلت كثيرا من الناس.

٩ ـ أن يكون مضمون الثانية تأكيدا لمضمون الأولى، كما فى قوله تعالى: ﴿يأأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون﴾ الصف.

هذا إذا كانت الثانية ظاهرة الارتباط بالأولى.

أما إذا كانت غير ظاهرة الارتباط، وأنها مستقلة عن الأولى:

فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشركة فى الحكم.

وإما أن تكون غير معطوفة.

(أ) فإذا كانت الثانية معطوفة على الأولى: فلابد من رابط يربط بينهما، كعلاقة المضادة مثلا.

مثال ذلك: آيات الرحمة بعد آيات العذاب، أو آيات الترغيب بعد آيات الترهيب، أو ذكر النار بعد ذكر الجنة أو العكس.

وهى فى القرآن كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفى نعيم، وإن الفجار لفى نعيم﴾ الانفطار.

وكقوله تعالى: ﴿فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه﴾

(١) إبراهيم: ٣٦.

إلى قوله: ﴿وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه﴾ الآيات من سورة الحاقة.

(ب) أما إذا كانت الثانية غير معطوفة على الأولى: فلابد من دعامة تؤذن باتصال الكلام، وهى كما يقول الزركشى: قرائن معنوية مؤذنة بالربط.

والأول - أى المعطوف - مزج لفظى، وهذا - أى غير المعطوف - مزج معنوى، تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثانى.

ولذلك أسباب[1]

أحدهما: التنظير، وهو إلحاق النظير بالنظير، وهو أسلوب من أساليب العقلاء، ومثاله قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون﴾ عقب قوله تعالى: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾ من سورة الأنفال.

يقول السيوطى فى بيان تلك المناسبة: «فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضى لأمره فى الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره فى خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال وهم له كارهون.

والقصد أن كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج، وقد تبين فى الخروج الخير من الظفر والنصر والغنيمة، وعز الإسلام، فكذا يكون فيما فعله فى القسمة، فليطيعوا ما أمروا به، ويتركوا هوى أنفسهم»[2].

الثانى: المضادة، كالحديث عن أى شيئين بينهما تضاد كالجنة والنار، والرحمة والعذاب، والمؤمنين والكافرين.

---

(١) انظر البرهان: ١/٤٦ وما بعدها.

(٢) الإتقان: ٢/١٠٩.

مثال ذلك: الآيات الثلاث الأخيرة من سورة البينة، والتى تبدأ بقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾.

الثالث: الاستطراد: ويعرفه أبو هلال العسكرى مع ذكر مثال له فيقول: «هو أن يأخذ المتكلم فى معنى، فبينما يمر فيه يأخذ فى معنى آخر، وقد جعل الأول سببا إليه.

كقول الله عز وجل: ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ فبينا يدل الله سبحانه على نفسه بإنزال الغيث واهتزاز الأرض بعد خشوعها قال: ﴿إن الذى أحياها لمحيى الموتى﴾ من سورة فصلت.

فأخبر عن قدرته على إعادة الموتى بعد إفنائها وإحيائها بعد إرجائها، وقد جعل ما تقدم من ذكر الغيث والنبات دليلا عليه.

ولم يكن فى تقدير السامع لأول الكلام إلا أنه يريد الدلالة على نفسه بذكر المطر، دون الدلالة على الإعادة، فاستوفى المعنيين جميعا»[1].

أما مثال ذلك بين الآيتين اللتين لا عطف فيهما، فقوله تعالى: ﴿يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾[2]، بعد الحديث عن أكل آدم وزوجه من الشجرة، وبدو سوءاتهما.

فالله تعالى قد استطرد من موضوع إلى موضوع آخر، بما لا يكاد أحد يحس بهذا الانتقال.

قال الزمخشرى: «هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوءات، وخصف الورق عليها، إظهارا للمنة فيما خلق من

---

(١) كتاب الصناعتين: ٤١٤ ـ دار الفكر العربى.

(٢) الأعراف: ٢٦.

اللباس، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى»[1].

الرابع: حسن التخلص، وهو - كما يقول السيوطى -: أن ينتقل مما ابتدىء به الكلام إلى المقصود، على وجه سهل، يختلسه اختلاسا، دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثانى، لشدة الالتئام بينهما.

والفرق بين الاستطراد وحسن التخلص - كما نقل السيوطى عن بعضهم - أنك فى التخلص تركت ما كنت فيه بالكلية، وأقبلت على ما تخصلت إليه، وفى الاستطراد تمر بذكر الأمر الذى استطردت إليه مرورا كالبرق الخاطف، ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه كأنك لم تقصده، وإنما عرض عروضا»[2].

ومثال التخلص: قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ إلى قوله: ﴿ولا تخزنى يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[3].

فانظر كيف تخلص من نبأ إبراهيم مع قومه إلى الحديث عن الآخرة بما لم يحس معه القارىء والمستمع بأدنى هوة فى الانتقال.

الخامس: حسن المطلب: وهو قريب من حسن التخلص، وقد عرفه الزنجانى والطيبى - فيما ينقله عنهما السيوطى بقولهما: «هو أن يخرج إلى الغرض بعد تقدم الوسيلة» كقوله: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

ولكن هذا - كما هو ظاهر - فى الآية الواحدة، ولذلك مثل له الطيبى بمثال آخر، اجتمع فيه حسن التخلص وحسن المطلب معا، وهو

---

(١) الكشاف: ٢/ ٩٧، ط دار الريان. (٢) الإتقان: ٢/ ١١٠.
(٣) الشعراء: ٦٩ - ٨٩.

قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذى خلقنى فهو يهدين﴾ إلى قوله: ﴿رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين﴾[1].

السادس: وهو قريب أيضا من حسن التخلص، ألا وهو الانتقال من حديث إلى آخر، مفصولا بينهما باسم الإشارة (هذا) كقوله تعالى فى سورة (ص)، بعد ذكر الأنبياء: ﴿هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾.

ثم بعد الفراغ عن المتقين ونعيمهم قال: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب﴾.

---

(١) الشعراء: ٧٧ ـ ٨٣.

ثانيا: المناسبة بين السور

وإذا كنا نتحدث هنا عن المناسبة بين السور، فإننا نُذَكّر بما ذكرناه سابقا من أن ذلك مبنى على اعتبار أن ترتيب السور كما هو موجود فى المصحف الآن ترتيب توقيفى، موافق لما هو فى اللوح المحفوظ، وهو الرأى الراجح من أقوال العلماء.

أوجه المناسبة

ونستطيع أن نلاحظ المناسبة بين السورة وسابقتها من خلال عدة أمور على رأسها ما يلى:

أولا: المناسبة المعنوية، بين أول السورة وخاتمة سابقتها .. وهو كثير جدا فى القرآن.

يقول الزركشى رحمه الله: «وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته فى غاية المناسبة، لما ختم به السورة قبلها».

ثم هو يخفى تارة، ويظهر أخرى، كافتتاح سورة الأنعام بالحمد، فإنه مناسب لختام سورة المائدة من فصل القضاء، كما قال سبحانه: ﴿وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾[1].

وكافتتاح سورة فاطر بالحمد أيضا، فإنه مناسب لختام ما قبلها من قوله: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل﴾، وكما قال تعالى: ﴿فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾[2].

وكافتتاح سورة البقرة بقوله: ﴿الم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ إشارة

---

(١) الزمر: ٧٥.

(٢) الأنعام: ٤٥.

إلى الصراط فى قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: ذلك الصراط الذى سألتم الهداية إليه﴾(١).

ثانيا: المناسبة اللفظية لأول السورة وخاتمة ما قبلها.

كآخر الإسراء وأول الكهف، حيث ختمت الإسراء بالأمر بالحمد، وافتتحت الكهف بالحمد، وإن كانت المناسبة المعنوية أيضا بينهما واضحة.

قال تعالى فى آخر الإسراء: ﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا﴾.

وقال تعالى فى أول الكهف: ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا، ماكثين فيه أبدا، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا﴾.

وكآخر الطور وأول النجم، حيث ختمت الأولى بقوله تعالى: ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾ وافتتحت الثانية بقوله: ﴿والنجم إذا هوى﴾.

وكآخر الواقعة وأول الحديد، حيث ختمت الأولى بالأمر بالتسبيح: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ وافتتحت الثانية بالتسبيح: ﴿سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

ثالثا: مناسبة افتتاح السورة لفاتحة ما قبلها.

كالطواسين، والحواميم، والمسبحات.

وفواتح تلك السور معلومة، فلا نطيل بذكر كتابتها هنا.

رابعا: مشابهة جملة السورة لجملة الأخرى.

---

(١) البرهان: ١/ ٣٨.

أى أن الغرض الرئيسى لكل منهما واحد، أو يكاد يكون واحدا، كما فى سورتى الضحى والشرح، فكل منهمـا تتحدثان عن امتنان الله تعالى عليه، ﷺ بنعم جليلة، واختصاصه عليـه السلام بفضائل كريمة، انفرد بها عن غيره من البشر.

ومن الممكن أن نعتـبر من هذا القبيل سـورتى الفلق والناس، حيث الغرض منهمـا واحد، وهو التعوذ بالله، والالتجاء إلى حـماه، من شر خلقه، سواء أكانوا من الإنس أم من الجان.

خامسا: أن تكون معانى السورة كـالمقابلة لمعانى التى قبلها، كما بين سورتى الماعون والكوثر.

يقول الزركشى رحمه الله: «ومن لطائف سـورة الكوثر أنها كالمقابلة للتى قبلها.

لأن السابقـة قد وصف الله فيـها المنافق بأمور أربعـة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة.

فذكر هنا فى مقابلة البخل: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ أى الكثير.

وفى مقابلة ترك الصلاة: ﴿فَصَلِّ﴾ أى دم عليها.

وفى مقابلة الرياء: ﴿لربك﴾ أى لرضاه، لا للناس.

وفى مـقـابلة منع المـاعون: ﴿وانـحـر﴾، وأراد به التـصـدق بلحم الأضاحى، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة»[1].

سادسا: أن تكون خاتمة السورة كالعلـة، أو السبب لفاتحة ما بعدها، كما بين سورتى الفيل وقريش.

قال الزركشى: «وتأمل ارتباط سورة ﴿لإيلاف قريش﴾ بسورة الفيل، حتى قـال الأخفش: «اتصالهـا بها من باب قـوله: ﴿فالتقطه آل فـرعون ليكون لهم عدوا وحزنا﴾[2].

(١) البرهان: ١/ ٣٩.

(٢) البرهان: ١/ ٣٨، والآية من سورة القصص رقم ٨.

الفاصلة القرآنية

الفصل الأول

معنى الفاصلة

الفصل الأول

المبحث الأول : معنى الفاصلة

الفاصلة فى اللغة :

تطلق الفاصلة فى اللغة على ما كان حاجزاً بين شيئين .

جاء فى القاموس المحيط فى مادة (فصل) :

« الفَصْل : الحاجز بين الشيئين، وكل ملتقى عظمين من الجسد كالمَفْصِل، والحق من القول، ومن الجسد: موضع المَفْصِل، وبين كل مَفْصلين وصل .

والقضاء بين الحق والباطل .

والفاصلة : الخرزة تفصل بين الخرزتين فى النظام .

ويتعرض الفيروزآبادى للمراد بها عند علماء النحو أيضاً فيقول :

« وعند البصريين كالعماد عند الكوفيين » .

ومثال ذلك : قوله تعالى ﴿ إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ (الأنفال: ٣٢) . فالضمير (هو) هنا يسميه البصريون فصلا، أما الكوفيون فيسمونه عماداً .

ثم يعرف الفيروز أبادى الفاصلة عند علماء العروض فيقول :

« والفاصلة الصغرى فى العروض: ثلاث متحركات قبل ساكن، نحو ضَرَبَتْ، والكبرى أربع، نحو : ضَرَبَتَا .

والفصل فى القوافى: كل تغيير اختص بالعروض، ولم يجز مثله فى حشو البيت، وهذا إنما يكون بإسقاط حرف متحرك فصاعداً فإذا كان كذلك سمى فصلاً »[1] .

---

(١) انظر القاموس المحيط مادة فصل .

كما يجدر الإشارة هنا أيضاً إلى ما اصطلح عليه واضعو قواعد الإملاء والكتابة فى علامات الترقيم من إطلاق لفظ الفاصلة على الشَّوْلة ويرسمونها هكذا « ، » للفصل بين عدة أشياء، كالمفردات المعطوفة والجمل القصيرة المعطوفة، وغير ذلك، على نحو ما قرروه هناك .

الفاصلة فى الاصطلاح

أما المراد بالفاصلة فى اصطلاح علماء التفسير وعلوم القرآن، فإنه يراد منها : الكلمة الأخيرة من الآية القرآنية .

وها هى بعض أقوال العلماء فى معناها :

عرفها الرمانى (١) بقوله: الفواصل: حروف متشاكلة فى المقاطع، توجب حسن إفهام المعانى (٢) .

وعرفها أبو بكر الباقلانى (٣) بقوله :

« وأما الفواصل فهى حروف متشاكلة فى المقاطع، يقع بها إفهام المعانى» (٤) .

وعرفها الراغب الأصفهانى (٥) بقوله :

« والفواصل : أواخر الآى » (٦) .

---

(١) الرمانى هو على بن عيسى بن على بن عبدالله أبو الحسن الرمانى، معتزلى مفسر من كبار النحاة، أصله من سامراء، ومولده ووفاته ببغداد، له نحو مائة مصنف توفى سنة ٣٨٤هـ. (الأعلام: ٥/ ١٣٤ ط كوستاتوماس) .

(٢) النكت، ضمن ثلاث رسائل فى الإعجاز: ٨٩ .

(٣) الباقلانى هو: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر البصرى ثم البغدادى، متكلم على مذهب الأشاعرة ولد بالبصرة، وسكن بغداد، وسمع بها الحديث، ورد على المعتزلة والشيعة والخوارج والجهمية وغيرهم ت ٤٠٣ هـ (تاريخ بغداد: ٥/ ٣٧٩ للخطيب البغدادى، تذكرة الحفاظ للذهبى: ٣/ ٢٦٣) .

(٤) إعجاز القرآن للباقلانى : ٢٤٤ .

(٥) الراغب الأصفهانى هو: الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم، أديب لغوى، حكيم مفسر، له تصانيف كثيرة منها: مفردات ألفاظ القرآن، وتحقيق البيان فى تأويل القرآن توفى سنة ٥٠٢هـ (كشف الظنون: ٣٦، ١١٣١، تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى: ١١٢، ١١٣) .

(٦) المفردات: (فصل) .

وعرفها ابن منظور [1] بقوله :

« وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل، بمنزلة قوافي الشعر - جل كتاب الله عز وجل - واحدتها فاصلة » [2] .

وعرفها الزركشي [3] بقوله :

« كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع » [4]

وعرفها الفيروزآبادي [5] بقوله :

« وأواخر آيات التنزيل فواصل، بمنزلة قوافي الشعر، الواحدة فاصلة» [6] .

وعرفها السيوطي [7] بقوله :

« الفاصلة كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع » [8] .

---

(١) ابن منظور هو: محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين، صاحب لسان العرب، من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري ولد بمصر وخدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة، ثم ولي القضاء في طرابلس ثم عاد إلى مصر فتوفي فيها سنة ٧١١هـ، ترد بخطه نحو خمسمائة مجلد (الأعلام: ٧/٣٢٩) .

(٢) لسان العرب (فصل) .

(٣) الزركشي هو: محمد بن بهادر بن عبدالله المصري الزركشي الشافعي، فقيه أصولي محدث تركي الأصل، مصري المولد والوفاة، رحل إلى حلب وسمع الحديث بدمشق وغيرها، من تصانيفه : البحر في أصول الفقه، وشرح التنبيه للشيرازي، والبرهان في علوم القرآن (الدرر الكامنة ٣/ ٣٩٧) .

(٤) البرهان: ١/ ١٤٩ .

(٥) الفيروزآبادي هو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي من أئمة اللغة والأدب جال في مصر والشام وبلاد الروم والهند، كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير أشهر كتبه القاموس المحيط، وبصائر ذوي التمييز، توفي عام ٨١٧هـ (الأعلام: ٨/ ١٩) .

(٦) القاموس المحيط: مادة (فصل) .

(٧) السيوطي هو: عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين أبو الفضل المصري الشافعي، لما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، له مئات المصنفات، في سائر العلوم، منها الدر المنثور في التفسير بالمأثور، والجامع الصغير في الحديث، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، توفي عام ٩١١ (الضوء اللامع للسخاوي: ٤/ ٦٥) .

(٨) الإتقان: ٢/ ٩٦ .

وبهذا يتبين أن هناك إجماعاً من العلماء أو ما يشبه الإجماع على أن الفاصلة هي الكلمة الأخيرة من الآية .

ولكن ورد عن أبى عمرو الدانى[1] ، وسيبويه ما يعكر على هذا الإجماع .

حيث ورد عنهما ما يفيد توسيع دائرة الفاصلة، ليشمل إضافة إلى آخر الآية الكلمة التى تكون فى أثناء الآية، التى يتم بها معنى جملة منفصلة عما بعدها .

يقول أبو عمرو الدانى فى كتابه « البيان فى عد آى القرآن » :

« وأما الفاصلة فهى: الكلام التام المنفصل مما بعده، والكلام التام قد يكون رأس آية، وكذلك الفواصل يكُنَّ رأس آية وغيرها .

فكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين »[2] .

ويقول سيبويه[3] فى كتابه « الكتاب » فى باب « ما يحذف من أواخر الأسماء فى الوقف وهى الياءات »:

« وجميع ما لا يحذف فى الكلام وما يختار فيه أن لا يحذف يحذف فى الفواصل والقوافى، فالفواصل قول الله عز وجل :

---

(١) الدانى هو: عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموى القرطبى، مقرئ حافظ، محدث، مفسر، ناظم، رحل من الأندلس إلى المشرق، فدخل مصر وحج ورجع إلى الأندلس وتوفى بدانية عام ٦٨٥هـ، من تصانيفه التيسير فى القراءات السبع، وطبقات القراء (تذكرة الحفاظ: ٣/٢٩٨، معجم الأدباء: ١٢/ ١٢١، معجم المؤلفين: ٦/ ٢٥٤) .

(٢) البيان فى عد آى القرآن: ١٢٦ ط الكويت .

(٣) سيبويه هو: عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر، أديب نحوى، أخذ النحو والأدب عن الخليل بن أحمد وغيره من كبار العلماء، ورد بغداد وناظر بها الكسائى وتعصبوا عليه، وجعلوا للعرب جعلاً حتى وافقوه على خلافه، من آثاره الكتاب فى النحو، (معجم المؤلفين: ٨/ ١٠) .

﴿ والليل إذا يسر ﴾ (الفجر: ٤) و﴿ ما كنا نبغ ﴾ (الكهف: ٦٤) و﴿يوم التناد﴾[1] (غافر: ٣٢) و﴿ الكبير المتعال ﴾ (الرعد: ٩) .

والأسماء أجدر أن تحذف إذا كان الحذف فيها في غير الفواصل والقوافي »[2] .

- وهذا التمثيل من سيبويه هو الذى دعا أبا عمرو الدانى إلى تعريف الفاصلة بما يعم ما جاء فى أثناء الآية، وآخرها، أو دعاه إلى تأكيد ما ارتآه من وجهة نظره .

وقد صرح الدانى بذلك حينما قال :

« ولأجل كون معنى الفاصلة هذا ذكر سيبويه فى تمثيل القوافى : ﴿ يوم يأت[3] ﴾[4] و﴿ ما كنا نبغ ﴾، وليسا رأس آية بإجماع مع ﴿ إذا يسر ﴾ وهو رأس آية باتفاق[5]

وقد رد الجعبرى[6] على الدانى فى تعريفه للفاصلة، وعلى استشهاده بتمثيل سيبويه للفواصل بقوله :

---

(١) حصل تصحيف فى البرهان والإتقان وغيرهما لهذه الكلمة إلى ﴿يوم يأت﴾ والصحيح ما جاء فى كتاب سيبويه، خاصة أن ما جاء فيه يمثل رأس آية .

(٢) الكتاب: ٤/١٨٤، ١٨٥ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ م تحقيق عبدالسلام هارون .

(٣) هود: ١٠٥ .

(٤) لقد وصل التصحيف إلى النسخة التى نقل عنها أبو عمرو الدانى، والصحيح ما أثبتناه سابقاً من كتاب «الكتاب» نفسه لسيبويه .

(٥) الإتقان: ٢/٩٦، ٩٧ .

(٦) الجعبرى هو: إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل الجعبرى، الخليلى الشافعى، تقى الدين، برهان الدين، ولد بجعبر، وسكن دمشق مدة ثم ولى مشيخة الخليل إلى أن مات بها عام ٧٣٢هـ، من مؤلفاته كنز المعانى فى شرح حرز الأمانى ونزهة البررة فى القراءات العشر، والإيجاز فى الألغاز (الدرر الكامنة: ١/ ٥٠، مرآة الجنان ٤/ ٢٨٥ ومعجم المؤلفين: ١/٦٩) .

« وهو خلا. . اصطلح، ولا دليل له فى تمثيل سيبويه ﴿ يوم يأت ﴾ و﴿ ما كنا نبغ ﴾ وليسا رأس آية، لأن مراده الفواصل اللغوية لا الصناعية»[1].

وعلى هذا فيكاد يكون هناك إجماع إن لم نعتبره بالفعل إجماعاً على أن الفاصلة عند العلماء تعنى الكلمة الأخيرة فى الآية .

ولولا التكلف منا، بتحميل كلام الدانى ما لم يحتمله، وتخصيص ما أراد هو من عمومه لكان يمكن لنا أن نوجه كلامه توجيهاً مقبولاً فيقال إن هناك فاصلة داخلية غير الفاصلة التى فى آخر الآية . وهى التى تسمى بالتشريع أو التوأم .

قال عنه السيوطى :

« وأصله أن يبنى الشاعر بيته على وزنين من أوزان العروض، فإذا أسقط منها جزءاً أو جزءين صار الباقى بيتاً من وزن آخر، ثم زعم قوم اختصاصه به .

وقال آخرون: بل يكون فى النثر بأن يكون مبنياً على سجعتين لو اقتصر على الأولى منهما كان الكلام تاماً مفيداً، وإن ألحقت السجعة الثانية كان فى التمام والإفادة على حاله، مع زيادة معنى ما زال من اللفظ .

قال ابن أبى الأصبع[2] : وقد جاء من هذا الباب معظم سورة الرحمن فإن آياتها لو اقتصر فيها على أولى الفاصلتين دون ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ لكان تاماً مفيداً، وقد كمل بالثانية، فأفاد معنى زائداً من التقرير والتوبيخ .

(١) البرهان: ١/١٤٩، والإتقان: ٢/ ٩٦ .

(٢) ابن أبى الإصبع هو: عبدالعظيم بن عبدالواحد بن ظافر بن عبدالله بن محمد بن جعفر بن الحسن المصرى أديب شاعر ولد بمصر وتوفى بها عام ٦٥٤هـ واشتهر بابن أبى الأصبع المصرى، من مؤلفاته: بدائع القرآن، والكواكب الدرية فى نظم القواعد الدينية والخواطر السوانح فى أسرار الفواتح. (شذرات الذهب ٥/ ٢٦٥، ومعجم المؤلفين ٥/ ٢٦٥) .

قلت ـ أى السيوطى ـ : التمثيل غير مطابق، والأولى أن يمثل بالآيات التى فى إثباتها ما يصح أن يكون فاصلة، كقوله تعالى ﴿ لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ (الطلاق: ١٢) وأشباه ذلك »[(١)] .

أقول : لولا التكلف لقلنا إن الدانى يقصد بكلامه الفاصلة الداخلية، وهذا ما لا أعتقده منه .

وعلى كل حال : فإن مصطلح الفاصلة إذا أطلق بين العلماء فإنهم لا يعنون منه إلا رأس الآية، وبالتالى فإن قول الدانى وتمثيل سيبويه لا يخرقان ما استقر فى أذهان جميع العلماء، وتبادرت إليه تلك الأذهان من أول وهلة حين إطلاق لفظ الفاصلة .

سبب التسمية بالفاصلة

يرى العلماء أن سبب التسمية بالفاصلة يرجع إلى ما جاء فى القرآن نفسه من نحو قوله تعالى ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ (الأعراف: ٥٢) وقوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ﴾ (الأعراف: ١٣٣) وقوله تعالى ﴿كتاب فصلت آياته﴾ (فصلت: ٣) .

قال ابن منظور: « وأواخر الآيات فى كتاب الله فواصل بمنزلة قوافى الشعر، جل كتاب الله عز وجل، واحدتها فاصلة، إلى أن قال: « وقوله عز وجل : ﴿ كتاب فصلناه ﴾ له معنيان أحدهما تفصيل آياته بالفواصل، والمعنى الثانى فى فصلناه : بيناه .

وقوله عز وجل ﴿ آيات مفصلات ﴾ بين كل آيتين فصل، تمضى هذه وتأتى هذه، بين كل آيتين مهلة، وقيل مفصلات : مبينات »[(٢)] .

---

(١) الاتقان: ٢/ ١٠٤ .
(٢) لسان العرب (فصل) .

وقال الزركشى : « فأما مناسبة « فواصل » فلقوله تعالى :

﴿ كتاب فصلت آياته ﴾[1] .

وقال السيوطى : « وتسمى فواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها، وأخذ من قوله تعالى :

﴿ كتاب فصلت آياته ﴾[2] .

وواضح من تعليلات العلماء هذه، العلاقة الوثقى بين التعريف اللغوى والاصطلاحى للفاصلة .

كما يتضح أيضاً حرص العلماء على التبرك بالتسمية، حينما يجعلون لها أصلاً من القرآن الكريم .

---

(١) البرهان : ١/ ١٥٠ .

(٢) الإتقان : ٢/ ٩٧ .

المبحث الثاني
قدم استخدام مصطلح الفاصلة

من خلال تعليل العلماء السابق لتسمية الفاصلة بهذا الاسم، نستطيع أن نقول إن في القرآن الكريم نفسه إشارة إلي هذه التسمية، وعلي هذا: فالتسمية بها قديمة وليست وليدة نشأة العلوم الإسلامية.

إلى أن جاء هذا العهد - عهد نشأة العلوم الإسلامية والعربية - فوجدنا هذا اللفظ - الفاصلة أو الفواصل - بدأ يظهر بجلاء في كلام العلماء.

فهذا هو الخليل بن أحمد[(١)] المتوفي سنة ١٧٥ هـ يقول في أول معجم عربي، وهو كتابه «العين» في باب العين والجيم والسين، في مادة سجع:

«سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل، كقوافي الشعر، من غير وزن، كما قيل: «لِصُّها بطلٌ وتمرها دقل[(٢)]، إن كثر الجيش بها جاعوا، وإن قلوا ضاعوا» يسجع سجعا فهو ساجع، وسَجَّاع وسَجَّاعة.

والحمامة تسجع سجعا: إذا دعت، وهي سجوع وساجعة، وحمام سُجَّع وسواجع»[(٣)].

وها هو سيبويه تلميذ الخليل، يقول في عبارته التي ذكرناها سابقا وهو يمثل للفواصل:

«وجميع ما لا يحذف في الكلام، وما يختار فيه أن لا يحذف يحذف في الفواصل والقوافي».

---

(١) الخليل هو: الخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدى البصرى، نحوي لغوي، أول من استخرج العروض توفي بالبصرة عام ١٧٠ هـ، من مصنفاته: العروض، والشواهد، النقط والشكل، الإيقاع والجمل (وفيات الأعيان: ١/ ٢١٦) معجم الأدباء: ١١/ ٧٢، معجم المؤلفين: ٤/ ١١٢).

(٢) الدقل: أردأ أنواع التمر.

(٣) العين: ٢٢٤ ط المجمع العلمي العراقي، تحقيق د/ عبد الله درويش.

ثم يأتي الفراء[1] المتوفى سنة ٢٠٧ هـ، فيستخدم لفظ «فصول» يريد بها رؤوس الآيات.

حيث يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ (البقرة: ٦٧) مانصه:

«وهذا في القرآن كثير بغير الفاء، وذلك لأنه جواب يستغنى أوله عن آخره بالوقفة عليه، فيقال: ماذا قال لك؟ فيقول القائل: قال كذا وكذا.

فكأن حسن السكوت يجوز به طرح الفاء، وأنت تراه في رؤوس الآيات - لأنها فصول - حسنا»[2].

ثم ضرب لذلك مثالا من القرآن بقوله:

من ذلك: ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ (الذاريات ٣١، ٣٢).

ثم يأتي الجاحظ[3] المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فيستخدم لفظ الفاصلة مريدا به آخر الآية أيضا، حيث يقول:

«سمى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم، على الجملة والتفصيل، سمى جملته قرآنا كما سموا ديوانا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية.»[4].

---

(١) الفراء هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمى المعروف بالفراء الديلمي، أبو زكرياء، أديب نحوى، لغوى، مشارك في الفقه والطب وأيام العرب وأشعارها، ولد بالكوفة وانتقل إلى بغداد وصحب الكسائي، توفى في طريق مكة عام ٢٠٧هـ من مولفاته: معانى القرآن، والوقف والابتداء، والمقصور والممدود (وفيات الأعيان لابن خلكان: ٢/ ١-٣٠١، ومعجم المؤلفين: ١٣/ ١٩٨).

(٢) معانى القرآن للفراء: ١/ ٤٣، ٤٤.

(٣) الجاحظ هو: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني البصري المعتزلي، عالم أديب مشارك فى أنواع من العلوم، ولد بالبصرة، وسمع من أبى عبيدة والأصمعى، وأخذ الكلام عن النظام. وتنسب إليه الفرقة الجاحظية، من تصانيفه: الحيوان، والبيان والتبيين توفى عام ٢٥٥. (تاريخ بغداد ١٢/ ٢١٢ ومعجم المؤلفين ٨/ ٧).

(٤) الإتقان [illegible] / ٥٠.

ثم أتى الزجاج[1] فاستخدم هذا المصطلح فى كتابه «معانى القرآن»، حيث قال: «ورؤوس الآى فواصل»[2].

فلما كان زمن أبى الحسن الأشعرى[3] المتوفي سنة ٣٢٤، أراد رحمه الله عدم استخدام شئ في القرآن يكون شبيها بما فى الشعر والسجع، فاستخدم لفظ الفاصلة، وقصرها على القرآن.

قال محمد زغلول سلام عن الأشعرى إنه «قال بنظام الفاصلة ليبتعد بها عن السجع والقافية في الشعر والنثر، ويقصرها على نظم القرآن»[4].

كذلك فعل أبو بكر بن الأنبارى[5] المتوفي سنة ٣٢٨ فاستخدم هذا المصطلح، ولكن بلفظ «فصل» كما فعل الفراء من قبله، حيث يقول:

«إن آخر الآية فصلٌ بينها وبين ما بعدها»[6].

ثم كان الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ، فأشاع استخدام هذا المصطلح،

---

(١) الزجاج هو: إبراهيم بن السرى بن سهل الزجاج، النحوي، اللغوي، المفسر، أقدم أصحاب المبرد قراءة عليه، من كتبه: معاني القرآن، والاشتقاق، العروض، خلق الإنسان، توفى عام ٣١١ هـ. (معجم الأدباء: ١/ ١٣٠، بغية الوعاة للسيوطي: ١٧٩، معجم المؤلفين: ١/ ٣٣.

(٢) معانى القرآن للزجاج: ٥/ ٣٢١ .

(٣) الأشعرى هو: على بن إسماعيل بن إسحاق من نسل أبى موسى الأشعرى ﷺ، تنسب إليه الطائفة الأشعرية، ولد بالبصرة، وسكن بغداد، ورد على الملحدة والمعتزلة والشيعة والخوارج وغيرهم توفى ببغداد عام ٣٣٠ هـ وله مصنفات كثيرة (تاريخ بغداد ٣٤٦/١١، معجم المؤلفين: ٧/ ٣٥).

(٤) أثر القرآن في تطور النقد العربي لمحمد زغلول سلام: ٢٤٢، ٢٤٣ ط دار المعارف بمصر.

(٥) الأنباري هو: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار أبو بكر، أديب، نحوي، لغوي مفسر محدث، ولد بالأنبار على الفرات توفى ليلة عيد النحر عام ٣٢٨ هـ، من مؤلفاته: الكافي في النحو، غريب الحديث، الهاءات في كتاب الله عز وجل: (وفيات الأعيان: ١/ ٦٣٧، معجم المؤلفين: ١١/ ١٤٣).

(٦) إيضاح الوقف والابتداء: ١/ ٢٥٩).

ترادف مصطلحي الفاصلة ورأس الآية

من خلال تعاريف العلماء السابقة للفاصلة، وحديثهم عنها يتبين لنا بوضوح تام، أن العلماء يطلقون مصطلحي «الفاصلة» و«رأس الآية» على آخر كلمة من الآية.

فقد نقلنا عن الفراء سابقا نصا جاء فيه:

«وأنت تراه فى رؤوس الآيات - لأنها فصول - حسنا».

كما نقلنا عن الزجاج قوله: «ورؤوس الآى فواصل».

وقال الزركشي أثناء حديثه عن زيادة الألف في قوله تعالى: ﴿ وأطعنا الرسولا ﴾[1] «وأنكر بعض المغاربة ذلك وقال لم تزد الألف لتناسب رؤوس الآى»[2] وفي كتابه النشر في القراءات العشر يقول ابن الجزرى[3]:

«فالوقف التام أكثر ما يكون في رؤوس الآى وانقضاء القصص»[4]، ويقول أيضا: «والوقف الكافى يكثر في الفواصل وغيرها»[5].

إلى آخر ما نقلناه عن العلماء أثناء الحديث عن تعريف الفاصلة.

بل لقد ظهرت كتب تحمل عنوان رؤوس الآى مثلما ظهرت كتب تحمل عناوين للفواصل، مثل كتاب «رؤوس الآى» لأحمد بن الحسن بن مهران، كما جاء في معجم الأدباء لياقوت الحموي[6].

وعلى هذا يكون هذان المصطلحان مترادفين عند العلماء. للدلالة على آخر كلمة من الآية القرآنية.

---

(١) من سورة الأحزاب، الآية: ٦٦.　　(٢) البرهان: ١/ ١٥٧.

(٣) ابن الجزري هو: محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف العمري الدمشقي، مقرئ محدث، حافظ، مؤرخ، مفسر، فقيه، نحوي، توفي بشيراز عام ٨٣٣ هـ، من مؤلفاته النشر في القراءات العشر، وغاية النهاية في رجال القراءات والرواية. (الضوء اللامع للسخاوى: ٩/ ٢٥٥، البدر الطالع للشوكاني: ٢/ ٢٥٧، معجم المولفين: ١١/ ٢٩٢).

(٤) النشر: ١/ ٢٢٦.　　(٥) النشر: ١/ ٢٢٨.

(٦) انظر: معجم الأدباء: ٣/ ١٤.

المبحث الثالث

الطريق لمعرفة الفواصل

تُعرف الفاصلة بأحد طريقين:

١ - **إما بطريق التوقيف**، بورود حديث في ذلك، كالأحاديث الواردة في أن آيات معينة، كآية الكرسي، والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة، أو آيات سورة الفاتحة في حديث أم سلمة رضي الله عنها، وهي تنعت قراءة رسول الله ﷺ وسنذكره الآن إن شاء الله تعالى.

٢ - **وإما عن طريق القياس**، والقياس هنا يمكن أن يكون عبر الوسائل التالية:[(١)]

١ - مساواة الآية لما قبلها وما بعدها في الطول والقصر.

٢ - إنقطاع الكلام عندها.

٣ - إجماع العلماء على مثيلتها آية في القرآن الكريم.

٤ - مشاكلة الفاصلة لغيرها مما هو معها في السورة في الحرف الأخير منها، بحيث يكونان متماثلين أو متقاربين.

وعن هذين الطريقين يقول الجعبري رحمه الله:

«ولمعرفتها طريقان، توقيفي وقياسي.

الأول: التوقيفي، روى أبو داود عن أم سلمة[(٢)] لما سئلت عن قراءة

---

(١) انظر مقدمة كتاب الداني: «البيان في عد آي القرآن» لمحمد الشيباني.

(٢) أم سلمة هي: هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية، أم المؤمنين رضي الله عنها، تزوجها النبي ﷺ، سنة ثلاث، بعد وفاة زوجها ابن عمها أبي سلمة، أسلمت قديما هي وزوجها، وهاجرا إلى الحبشة، ماتت سنة تسع وخمسين، وصلى عليها أبو هريرة (الإصابة ٤٥٩/٤).

رسـول الله ﷺ قالت: كـان يقطع قراءته آية آية، وقـرأت ﴿ بسـم الله الرحمن الرحيم ﴾ إلى ﴿ الدين ﴾ تقف على كل آية»[1].

فمـعنى «يقطع قراءته آية آية» أى يقف على كل آية، وإنما كـانت قراءته ﷺ كذلك ليعلم رؤوس الآى.

ووهم فيه من سـماه وقف السنة، لأن فعله عليه السلام إن كـان تعبدا فهو مشروع لنا، وإن كان لغيره فلا.

فما وقـف عليه عليه السلام دائمـا تحققنا أنه فاصلة، ومـا وصله دائما تحققنا أنه ليس بفاصلة، وما وقف عليه مرة، ووصله أخرى احتمل الوقف أن يكون لتعريفهما، أو لتعريف الوقف التام، أو للاستراحة، والوصل أن يكون غير فاصلة، أو فاصلة وصلها لتقدم تعريفها.

الثاني: القياسي، وهو ما ألحق من المحتمل غـير المنصوص بالمنصوص، لمناسب، ولا محذور في ذلك، لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان وإنما غايته أنه مـحل فـصل أو وصل، والوقف على كلمـة جـائز، ووصل القـرآن كله جائز.

فاحتاج القياسي إلى طريق تعرفه، فأقول:

فاصلة الآية كـقرينة السجعة، وقـافية البيت في النظـم، وما يذكر من عيـوب القافـية من اختـلاف الحذو والإشـباع والتـوجيه فليس يـعيب في الفاصلة.

وجاز الإيغـال في الفاصلة والقرينة وقـافية الأرجـوزة من نوع إلى آخر بخلاف قافية القصيد.

---

(١) اخرجه أحمد في المسند ٦/ ٣٠٢، وأبو داود في سننه كتاب الحروف والقراءات، باب (١) والترمذى في سننه كتاب القراءات، باب فاتحة الكتاب وقال: هذا حديث غريب، والدار قطنى في سننه كتاب الصلاة باب وجوب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم، وقال إسناده صحيح وكلهم ثقات، والحاكم في مسـتدركه ٢/ ٢٣٢ وقال صحيح علي شرط الشيخين وأقره الذهبي.

ومــن ثــم نرى ﴿ يرجعون ﴾ مع ﴿ عليم ﴾ (آل عمران: ٧٢، ٧٣) و﴿ الميعاد ﴾ مع ﴿ الثواب ﴾ (آل عمران ١٩٤، ١٩٥)، و﴿ الطارق ﴾ مع ﴿ الثاقب ﴾ (الطارق ١ - ٣).

والأصل في الفاصلة والقرينة المجردة، في الآية والسجعة المساواة، ومن ثم أجمع العادون على ترك عد ﴿ ويأت بآخرين ﴾ (النساء: ١٣٣)، و﴿ ولا الملائكة المقربون ﴾ (بالنساء: الآية ١٧٢). و﴿كذب بها الأولون﴾ بسبحان (الإسراء: ٥٩) و﴿ لتبشر به المتقين ﴾ بمريم (الآية: ٩٧) و﴿من الظلمات إلى النور ﴾ (الطلاق: ١١) و ﴿ أن الله على كل شئ قدير ﴾ بالطلاق (الآية: ١٢) حيث لم يشاكل طرفيه.

وعلى ترك عد ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ بآل عمران (الآية: ٨٣) و﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ بالمائدة (الآية: ٥٠)، وعدوا نظائرها للمناسبة، نحو ﴿لأولى الألباب ﴾ بآل عمران (الآية ١٩٠) و ﴿ على الله كذبا ﴾ بالكهف (الآية: ١٥) و﴿ والسلوى ﴾ بطه (الآية: ٨٠).

وقد يتوجه الأمران في كلمة فيختلف فيها.

فمنها حروف الفواتح، فوجه عدها استقلالها على الرفع والنصب، ومناسبة الرَّوى والرِّدف[(١)]، ووجه عدمه الاختلاف في الكمية والتعلق على الجزء.

ومنها بالبقرة ﴿ عذاب أليم ﴾ (الآية: ١٠) و ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ (الآية: ١١)، فوجه عده مناسبة الروى، ووجه عدمه تعلقه بتاليه[(٢)].

---

(١) الروى: حرف القافية، أي الحرف الأخير من كل بيت، فيقال قصيدة بائية أو ميمية أو نونية، والرِّدف في الشعر: حرف ساكن من حروف المد واللين يقع قبل حرف الروى ليس بينهما شئ مثل المستقيم، انظر القاموس (روى وردف).

(٢) البرهان: ١/١٨٧ - ١٩٠ باختصار بعض الأمثلة.

المبحث الرابع
مبنى الفواصل على الوقف

المراعي في فواصل القرآن بناؤها على الوقف عليها، لا على وصلها نطقا بما بعدها، ولذلك لم يراع فيها الموافقة في الإعراب لما قبلها وما بعدها. كما وجدنا الأسجاع ساكنة الأعجاز، ولله ولكتابه المثل الأعلى.

ومعظم الوقف على الفاصلة في القرآن يكون بتسكين الحرف الأخير منها ولهذا نرى مقابلة فاصلة مرفوعة بمجرورة، وكذا العكس، كما في قوله تعالى: ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم** ﴾.

فالأولي مجرورة، والثانية مفتوحة، والثالثة والرابعة مجرورتان، والخامسة مرفوعة، والسادسة منصوبة.

أما إذا انتهت الفاصلة بحرف منصوب منون، فإن الوقف عليها يكون بفتح الحرف الأخير ومده، مثل عليما، بصيرا، مبينا.

وكذلك إذا انتهت الفاصلة بضمير المؤنثة الغائبة، مثل صدر سورة الزلزلة ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها، وأخرجت الأرض أثقالها، وقال الإنسان مالها، يومئذ تحدث أخبارها، بأن ربك أوحى لها** ﴾) فإنه يوقف على هذه الهاء بفتحها مع مدها.

فإذا انتهت الفاصلة بهاء السكت، سكنت هاء السكت، وفتح ما قبلها، كما في سورة الحاقة ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه** ﴾ وقوله بعيدها ﴿ **وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه، يا ليتها كانت القاضية، ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه** ﴾.

وكما في سورة القارعة: ﴿ وما أدراك ماهيه ﴾.

أما إذا انتهت بياء المتكلم فإن ياء المتكلم تحذف، ويوقف بالسكون على الحرف الذى قبلها.

مثل قوله تعالى: ﴿ وإياى فارهبون ﴾ (البقرة: ٤٠)، وقوله تعالى ﴿ وإياى فاتقون ﴾ (البقرة: ٤١)، وقوله تعالى: ﴿ فإياى فارهبون ﴾ (النحل: ٥١)، وقوله تعالى: ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ (الكافرون: ٦).

يقول الزركشي:

«إن مبنى الفواصل على الوقف، ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ الصافات: ١١)، مع تقدم قوله: ﴿ عذاب واصب ﴾ (الآية: ٩)، و ﴿ شهاب ثاقب ﴾ (الآية: ١٠).

وكذا ﴿ بماء منهمر ﴾ (القمر: ١١) و ﴿ قد قدر ﴾ (الآية: ١٢) وكذا: ﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ (الرعد: ١١) و ﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ (الآية: ١٢).

وعبارة السكاكي قد تعطي اشتراط كون السجع يشترط فيه الموافقة في الإعراب لما قبله، على تقدير عدم الوقوف عليه، كما يشترط ذلك في الشعر، وبه صرح ابن الخشاب[1] معترضا على قول الحريري[2] في المقامة التاسعة والعشرين:

---

(١) ابن الخشاب هو: عبد الله بن أحمد بن أحمد البغدادى، نحوي، لغوي، أديب، محدث، فقيه، مشارك في المنطق والفلسفة والحساب والهندسة، والتفسير والنسب والفرائض توفي في بغداد عام ٥٦٧ من آثاره شرح اللمع لابن جني، والمرتجل في شرح الجمل للجرجاني. (وفيات الأعيان: ١/ ٣٣٥، ومعجم المؤلفين: ٦/ ٢٠).

(٢) الحريري هو: القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري، الحرامي، سكن محلة بنى حرام بالبصرة، وتوفي في البصرة عام ٥١٦ هـ، من آثاره: المقامات، درة الغواص في أوهام الخواص (وفيات الأعيان: ١/ ٥٣٠، معجم الأدباء: ١٦/ ٢٦١، معجم المؤلفين: ٨/ ١٠٨).

يا صارفا عني المـ ـودة والزمانُ له صروفْ
ومعنِّفي في فضح مَنْ جاوزت تعنيف العسوفْ
لا تَلحَني فيما أتيـ ـتُ فإنني بهم عروفْ
ولقد نزلت بهم فلم أرهم يراعون الضيوفْ
وبلوتهم فوجدتهم لما سبكتهم زيوفْ

ألا ترى أنك إذا أطلقت ظَهَرَ الأول والثالث مرفوعين، والرابع والخامس منصوبين، والثاني مجرورا، وكذا باقي القصيد.

والصواب أن ذلك ليس بشرط لما سبق.

ولا شك أن كلمة الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز موقوفا عليها، لأن الفرض المجانسة بين القرائن والمزواجة، ولا يتم ذلك إلا بالوقوف، ولو وصلت لم يكن بُدٌّ من إجراء كلَ القرائن على ما يقتضيه حكم الإعراب، فَعَطَّلتَ عمل الساجع، وفَوَّتَ غرضهم.

وإذا رأيتهم يخرجون الكلم عن أوضاعها لغرض الازدواج، فيقولون: «آتيك بالغدايا والعشايا» مع أن فيه ارتكابا لما يخالف اللغة، فما ظنك بهم في ذلك؟»[(١)].

وهذا الذي قاله الزركشي متأثر فيه بما قاله ابن القيم[(٢)] في كتابه الفوائد، حيث يقول رحمه الله:

---

(١) البرهان: ١/١٦٣، ١٦٤.

(٢) ابن القيم هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي، أبو عبد الله، فقيه أصولي مجتهد مفسر متكلم، نحوي محدث، لازم ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق توفي عام ٧٥١ هـ، ودفن بدمشق، من تصانيفه زاد المعاد في هدي خير العباد، إعلام الموقعين، الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية (الدرر الكامنة لابن حجر ٣/٤٠٠، النجوم الزاهرة لابن تغرى -١/٢٤٩، معجم المؤلفين ٩/١٠٦.

«قال علماء علم البيان:

الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها، لأن الغرض أن يجانس بين القرائن، ويزواج بينها، ولا يتم ذلك إلا بالوقوف.

ألا ترى أنك لو وصلت قوله: «ما من عزة إلا وإلى جنبها عزه» وقوله: «ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت» لم يكن بد من إجراء كل الفقرات على ما يقتضيه حكم الإعراب فتكون قد عطلت عمل الساجع وقوة عزمه.

وإذا رأيتهم يخرجون الكلم عن أوضاعها من الازدواج، فيقولون: «أتيتك بالغدايا والعشايا» و «هناني الطعام ومراني» و«أخذه ما حدث وما قدم» مع أن فيه ارتكاب ما يخالف اللغة، فما ظنك بهم في ذلك؟»[1].

---

(١) الفوائد المشوق: ٢٢٢، بشئ من الاختصار.

المبحث الخامس

فوائد الفاصلة

للفاصلة القرآنية، مزايا عديدة، نقتصر منها على ما يأتي:

(١) الفاصلة تفيدنا في معرفة كيفية التلاوة، وحسن تجويد القرآن، وقد مر بنا حديث أم سلمة قريبا، وهي تصف لنا كيفية تلاوة النبي ﷺ.

(٢) الفاصلة تفيد في معرفة الوقف:

وإذا علمنا أن من فوائد الوقف معرفة المعاني، واستخراج الأحكام، والتمييز بين المعاني المتضادة، علمنا مدى أهمية الفاصلة.

قال ابن الأنباري: «من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء»[(١)].

وقال النكزاوي[(٢)]: «باب الوقف عظيم القدر، جليل الخطر، لأنه لا يتأتي لأحد معرفة معاني القرآن، ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل»[(٣)].

وقال ابن الجزري:

«لما لم يمكن القارئ أن يقرأ السورة أو القصة في نفس واحد، ولم يجز التنفس بين كلمتين، حالة الوصل، بل ذلك كالتنفس في أثناء الكلمة، وجب حينئذ اختيار وقفة للتنفس والاستراحة، وتحتم أن لا يكون ذلك مما يحيل المعنى، ولا يخل بالفهم، إذ بذلك يظهر الإعجاز، ويحصل القصد»[(٤)].

---

(١) الاتقان. ١/ ٨٣.

(٢) النكزاوى هو: عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر النكزاوى، المدنى الأنصارى، الاسكندراني، معين الدين، أبو محمد، مقرئ، نحوي، ولد بالإسكندرية، وقرأ بها القراءات، من مؤلفاته: الكامل في القراءات، والاقتضاء في معرفة الوقف والابتداء. (حسن المحاضرة: ١/ ٢٨٨، بغية الوعاة: ٢٨٨، معجم المؤلفين: ٦/ ١٢٩).

(٣) الاتقان: ١/ ٨٣.

(٤) النشر: ١/ ٢٢٤، ٢٢٥.

٣ ـ الفاصلة تفيدنا في معرفة عد الآيات:

وعد الآيات مطلوب في نواح عدة، منها:

الحصول على الثواب الموعود به أو دفع الضرر على قراءة آيات معينة، كأواخر البقرة وعشر آيات من أول الكهف، وعشر آيات من آخرها، وغيرها.

ـ في معرفة عد الآيات حث للمسلمين على حفظ القرآن، فإذا علم الإنسان أنه حفظ من السورة عددا معينا من الآيات، كان ذلك دافعا إلى استكمالها، فإذا أكملها شرع في أخرى وهكذا.

إلى غير ذلك من فوائد العد، والذي من أجله ألفت عشرات الكتب.

وسنذكر منها الآن إن شاء الله بعد هذه الفوائد ثلاثين كتابا.

٤ ـ الفواصل تنشط القارئ في قراءته، فهي أشبه بمحطات استراحة على طريق المسافر، فحينما يستريح في كل محطة يجد نشاطا على مواصلة السفر، حتى النهاية.

قال الزركشي: «وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب»[(١)].

٥ ـ وكما أن الفواصل تنشط القارئ وتدفع عنه الملل، فهي كذلك بالنسبة للسامع.

٦ ـ للفاصلة دور كبير في إظهار الإعجاز القرآني، إذ هي في غاية الصلة بمعنى الآية التي ذيلت بها، وسيتضح ذلك إن شاء الله حينما نتحدث قريبا عن «مناسبة الفاصلة لمعنى الآية».

وإذا كان للفاصلة هذا الدور الكبير في قضية الإعجاز، فكفى بها من فائدة جليلة.

---

(١) البرهان: ١/ ١٥٠.

٧ـ الفاصلة تعين القارئ على تحسين صوته، خاصة إذا علمنا أن أكثرها ينتهي بحروف المد واللين، والميم أو النون.

وهذه المعطيات المتلائمة مع جو الآية ومعناها تؤثر في القلب بما لا يتأثر بغيرهما.

قال الزركشي: «قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين، وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك»[1].

وقال الرافعي طيب الله ثراه:

«وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورا تامة للأبعاد، التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب»[2].

ثم يقول: «ومما انفرد به القرآن وباين سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد، وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة، وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح - فلم تخل بأدائه - رأيته غَضًا طرِيًّا، وجديدا مونقا، وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا وحسا موفورا.

فأيما امرؤ سمعه أو فهمه أحبه، وسوّغه من شعوره ونفسه، فمن أين تدخل الكراهة على النفس، ولا سبيل إليها في الكلام إلى السمع والفؤاد؟»[3].

---

(١) البرهان: ١/ ١٦٣.

(٢) إعجاز القرآن: ٢١٦.

(٣) المصدر السابق: ٢١٨، ٢١٩ باختصار

المبحث السادس

مؤلفات خاصة بعدد فواصل الآى

لم يكن غريبا على علماء المسلمين، ولا كثيرا على كتاب الله رب العالمين، أن يهتم كثير من العلماء بعد آيات كل سورة على حدة، وتمييز فاصلة كل آية.

ولقد وجدنا لعلماء المسلمين رحمهم الله جهودا بارعة في ذلك، حيث ألفوا مصنفات خاصة بعد آيات القرآن كله، . . . ومن هذه المصنفات ما يلي: *

١ ـ كتاب العدد (عن أهل مكة) لعطاء بن يسار (ت: ١٠٣ هـ)[(١)]

٢ ـ كتاب في العدد (عن أهل الشام) لخالد بن معدان الحمصي (ت ١٠٣ هـ)[(٢)]

٣ ـ كتاب العدد (عن أهل البصرة، للحسن البصري (ت ١١٠ هـ)[(٣)]

٤ ـ كتاب عواشر القرآن، لقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧ هـ)[(٤)]

٥ ـ كتاب عدد الآى والأجزاء (عن أهل البصرة) لعاصم الجحدري (ت ١٢٨ هـ)[(٥)]

٦ ـ كتاب العدد (عن أهل الشام) ليحيي بن الحارث الذماري (ت١٤٥ هـ)[(٦)]

---

* انظر في ذلك مقدمة «البيان في عد آي القرآن» للداني، كتبها محققه د/ غانم قدورى الحمد.

(١) الفهرست: ٤٠ (٢) الفهرست: ٤٠.

(٣) الفهرست: ٤٠ (٤) الطبقات الكبرى لابن سعد: ٧/ ٢٧٣.

(٥) الفهرست: ٤٠ (٦) الفهرست: ٤٠

٧ ـ كتاب العـدد (عن أهل الكوفة) لحمزة بن حبيب الزيات (ت١٥٦ هـ)[1]

٨ ـ كتـاب عـدد المدنـى الأول، لنافع بن عـبـد الرحـمن المدني (ت١٦٩هـ)[2]

٩ ـ كتـاب عـدد المدني الثـاني، لنافع بن عـبـد الرحـمن المدني (ت ١٦٩هـ)[3]

١٠ ـ كتاب عواشر القرآن، لنافع بن عبد الرحمن المدني (ت١٦٩هـ)[4]

١١ ـ كتاب في عدد المدني الأخير، لإسماعيل بن جعفـر بن أبى كثير المدنى (ت ١٨٩ هـ)[5]

١٢ ـ كتـاب العـدد (عن أهل الكوفـة) لعـلي بن حـمـزة الكسـائي (ت١٨٩هـ)[6]

١٣ ـ كتـاب اختـلاف العدد على مـذهب الشام وغـيرهم، لوكـيع بن الجراح (ت ١٩٦هـ)[7]

١٤ ـ كتاب عدد آى القرآن لأبى عبيد، القاسم بن سلام (ت٢٢٤هـ)[8]

١٥ ـ كتاب العدد (عن أهل الكوفة) لخلف بن هشام (ت٢٢٩هـ)[9]

١٦ ـ كتـاب عدد القرآن على عـدد المدنى الأول لعبدالرحـمن المصرى (ت٢٣١هـ)[10]

١٧ ـ كتـاب فى العـدد (عن أهل البـصـرة) لمحـمـد بن عـيـسى (ت٢٥٣هـ)[11].

---

(١) الفهرست: ٤٠
(٢) الفهرست: ٤٠.
(٣) الفهرست: ٤٠
(٤) الفهرست: ٤٠
(٥) الفهرست: ٤٠
(٦) الفهرست: ٤٠.
(٧) الفهرست: ٤٠
(٨) معجم الأدباء للحموى ١٣/ ٢٠٢.
(٩) الفهرست: ٤٠
(١٠) غاية النهاية لابن الجزرى: ٢/ ٢٧٥.
(١١) الفهرست: ٤٠.

١٨ ـ كتاب اختلاف العدد، لأحمد بن جعفر البغدادى المعروف بابن المنادى (ت٣٣٦هـ)(١) .

١٩ ـ كتاب اختلاف عدد السور لأحمد بن الحسين أبى بكر النيسابورى (ت٣٨١هـ)(٢) .

٢٠ ـ كتاب رؤس الآى لأحمد بن الحسين أبى بكر النيسابورى (ت٣٨١هـ)(٣) .

٢١ ـ كتاب فى عدد سور القرآن وآياته وكلماته لعمر بن محمد بن عبدالكافى (ت٤٠٠هـ)(٤) .

٢٢ ـ كتاب فى تنزيل القرآن وعدد آياته، واختلاف الناس فيه، عن أبى زرعة عبدالرحمن بن زنجلة المقرئ (القرن الرابع الهجرى)(٥) .

٢٣ ـ كتاب عدد آى القرآن على مذهب أهل البصرة، لأبى العباس الكيال البصرى (القرن الرابع)(٦) .

٢٤ ـ كتاب آى القرآن لأبى جعفر بن عمر الطبرى النحوى (القرن الرابع)(٧) .

٢٥ ـ كتاب الاختلاف فى عدد الأعشار لمكى بن أبى طالب (ت٤٣٧)(٨) .

---

(١) طبقات المفسرين للداودى: ٣٤٠/١ .

(٢) معجم الأدباء: ١٣/٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٤/٣ .

(٤) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ١٦٨/١ .

(٥) مخطوط فى مكتبة المجمع العلمى العراقى .

(٦) تاريخ التراث العربى لفؤاد سزكين ١٦٨/١ .

(٧) تاريخ التراث العربى: ١٦٩/١ .

(٨) معجم الأدباء ١٦٩/١٩ .

١٨

٢٦ ـ البيان في عد آي القرآن للداني (ت٤٤٤هـ)[(١)] .

٢٧ ـ قصيدة في عدد الآي، لأحمد بن علي سنجر الصوفي (ت٤٧٦هـ)[(٢)] .

٢٨ ـ كتاب العدد لعبدالكريم بن عبدالصمد، أبي معشر الطبري (ت٤٧٨هـ)[(٣)] .

٢٩ ـ ناظمة الزَّهَر في أعداد آيات السور للشاطبي (ت٥٩٠هـ)[(٤)] .

٣٠ ـ كتاب عدد الآي، لأبي البقاء العكبري (ت٦١٦هـ)[(٥)] .

إلى غير ذلك من هذه الكتب .

---

(١) مطبوع متداول من قبل مركز المخطوطات بالكويت .

(٢) غاية النهاية لابن الجزري: ١/٨٥ .

(٣) غاية النهاية: ١/٤٠١ .

(٤) هدية العارفين للبغدادي: ١/٨٢٨ .

(٥) طبقات المفسرين للداودي: ١/٢٢٥ .

الفصل الثانى

أنواع الفواصل

﴿ الفصل الثانى ﴾

أنواع الفواصل

من حيث الروى، والوزن، والطول والقصر

تتنوع الفاصلة القرآنية من حيث الروى، والوزن، والطول والقصر إلى عدة أنواع . وسنفرد لكل ناحية قدراً من الكلام، بإيجاز، على النحو التالى :

أولا: أنواع الفواصل من حيث الروى

والروى - كما قال الفيروز آبادى وغيره - هو : حرف القافية[(1)] .

والفواصل من حيث اتفاقها فى الحرف الأخير تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما تماثلت حروف رويها .

الثانى : ما تقاربت حروف رويها .

الثالث : ما لم تتماثل حروف رويها ولم تتقارب أيضاً .

أما القسم الأول : وهو ما تماثلت حروف رويها، فتسمى فواصل متماثلة. ومن أمثلته :

(أ) قوله تعالى : ﴿ والطور، وكتاب مسطور، فى رق منشور، والبيت المعمور ﴾(الطور: ١ - ٤) .

(ب) وقوله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا ﴾ (العاديات: ١ - ٣) .

أما القسم الثانى : وهو ما تقاربت حروف روى فواصله، فإنه لا يسمى سجعاً، حتى عند القائلين به فى القرآن، وتسمى فواصله متقاربة ومن أمثلته ما يأتى :

---

(١) القاموس المحيط: (روى) .

(أ) قوله تعالى: ﴿ الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم ﴾ السورة.

(ب) وقوله تعالى. ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ (سورة ق: ٣٩، ٤٠).

(جـ) وقوله تعالى: ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون، فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ (الذاريات: ٥٢، ٥٣).

أما القسم الثالث وهو الفواصل غير المتماثلة وغير المتقاربة، فمثالها:

(أ) قوله تعالى: ﴿ وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ (الضحى: ١٠، ١١).

(ب) وقوله تعالى: ﴿ سندع الزبانية، كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ (العلق: ١٨، ١٩).

وهذا النوع فى القرآن فى غاية الندرة.

ثانياً: أنواع الفاصلة من حيث الوزن

والمراد بالوزن هنا: الوزن العروضى لا الصرفى، لأن الوزن الصرفى يراعى فيه مقابلة كل حركة بمثلها، فالفتحة تقابلها فتحة، وكذا الضمة والكسرة، أما الوزن العروضى، فلا يراعى فيه نوع الحركة وإنما يراعى فيه مقابلة متحرك بمتحرك، أيا كانت حركته، ومقابلة ساكن بساكن، سواء أكان الحرف أصلياً أم زائداً.

وقد قسم علماء البديع السجع، ومثله فواصل القرآن ـ من حيث الوزن ـ خمسة أقسام.

١ ـ المتوازى. ٢ ـ والمطرف.

٣ ــ والمتوازن .   ٤ ــ والمرصع .

٥ ــ والمتماثل .

فالمتوازى : وهو أشرفها : أن تتفق الكلمتان فى الوزن والحرف الأخير (الروى) ولم يكن ما فى كلام الأولى مقابلاً لما فى كلام الثانية فى الوزن والروى .

مثاله : (أ) قوله تعالى : ﴿ **فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة** ﴾ (الغاشية الآيتان: ١٣ ، ١٤) .

(ب) وقوله تعالى: ﴿ **فأمه هاوية، وما أدراك ماهيه، نار حامية** ﴾ (القارعة: ٩ ـ ١١) .

أما المُطَرَّف : فهو ما اتفقت فيه الفاصلتان فى حرف الروى، دون الوزن، ومن أمثلته :

(أ) قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير** ﴾[1] الآيات، ففاصلة الآية الأولى (قدير)، والثانية (الغفور) والثالثة (فطور) والرابعة (حسير) والخامسة (السعير) وهكذا حتى الفاصلة (رقم ٢١). فكلها تنتهى بحرف الراء، ولكنها تختلف فى الوزن.

(ب) وقوله تعالى: ﴿ **ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ (سورة ق: ٢٤، ٢٥) .

أما المتوازن : فهو ما اتفقت فيه الفاصلتان فى الوزن فقط .

ومن أمثلته ما يأتى :

(أ) قوله تعالى : ﴿ **فاصبر صبراً جميلاً، إنهم يرونه بعيداً، ونراه قريباً** ﴾ (المعارج : ٥ ـ ٧) .

(ب) وقوله تعالى: ﴿ **ونمارق مصفوفة، وزرابى مبثوثة** ﴾ (الغاشية: ١٥، ١٦) .

---

(١) سورة الملك: ١ ـ ٢١ .

أما المرصع : فهو أن تتفق الفـاصلتان وزناً ورويا، ويكون ما فى الأولى مقابلاً لما فى الثانية، أى قرائن كل منهما متقابلة[1] .

مثـاله قوله تعـالى : ﴿ إن إلينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم ﴾ (الغاشية: ٢٥، ٢٦) .

أما المماثل : فهو أن يتساويا فى الوزن دون الروى، وتكون أفراد الأولى مقابلة لما فى الثانية .

مثاله قـوله تعالى ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ (الصافات : ١١٧، ١١٨) .

فالكتاب والصراط متوازنان، وكذلك الفاصلتان : (المستبين، والمستقيم) ولكنهما يختلفان فى حرف الروى .

ثالثاً : أنواع الفاصلة من حيث الطول والقصر

والحديث هنا ينحصر فى :

(أ) طول فقرة الفاصلة ذاتها، بدون النظر إلى القرينة الثانية والثالثة .

(ب) طول القرينة بالنظر إلى القرينة الثانية والثالثة .

(ج) طول الفاصلة من حيث مقدارها من الآية .

أما من حيث طول الفقرة ذاتها

فالنظرة من هذه الحيثية تنقسم إلى ثلاثة أقسام .

١ ــ قصير .

٢ ــ وطويل .

٣ ــ ومتوسط .

---

(١) المراد بالقرينة عند علماء البديع: القطعة من الكلام جعلت مزاوجة للأخرى والقرينتان فى النثر بمنزلة البيت من الشعر، ويطلق عليها أيضاً فقرة .

أما القصير : فهو ما كانت فقرته قصيرة، وأقصر القصار ما كان فى الحروف المقطعة، ثم ما كان من لفظ واحد، مثل: الرحمن، الحاقة، القارعة، ثم ما كان من لفظين مثل: والصافات صفاً، ونحوها .

قال ابن القيم: « وأطول الفقرات القصار، ما يكون من عشر لفظات، وما بين هذين فمتوسط »[1] ، أى ما بين أقصر الفقرات القصار وأطول الفقرات القصار .

وقد اعتبر ابن القيم أن أقصر القصار ما كان من لفظين، كقوله تعالى ﴿والعاديات ضبحاً﴾[2] وأري أن الصحيح ما ذكرته من أن أقصر القصار، ما كان فى الحروف الهجائية، ثم ما كان من لفظ واحد، فإن العلماء عدوا الحروف الهجائية فى بعض السور آية مستقلة، كما عدوا ﴿ الرحمن ﴾ و﴿القارعة﴾ و﴿ الحاقة ﴾ و﴿ مدهامتان ﴾ . آيات مستقلة .

أما الطويل : فقد قال عنه ابن القيم رحمه الله :

« فأقصره ما كان من إحدى عشرة لفظة، وأطولها غير مضبوط، وكلما طالت الفقر زاد بيانها وإفصاحها .

وقد وقع فى الفقر المطولة ما هو من عشرين لفظة، فما حولها، مثل قوله تعالى : ﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ (سورة الأنفال: ٤٣، ٤٤) .

ومثاله فيما دون ذلك قوله تعالى :

﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور، ولئن**

---

(١) الفوائد المشوق : ٢٢١ .　　(٢) الموضع السابق .

أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور﴾

(هود: ٩، ١٠) .

وقوله تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾[1] (التوبة: ١٢٨، ١٢٩) .

أما المتوسط : فما كان بين القصير والطويل .

طول القرينة

بالنظر إلى القرينة الثانية والثالثة

أما من حيث طول القرينة بالنظر إلى القرينة الثانية والثالثة :

فإما أن تكون القرائن كلها متساوية فى عدد الكلمات، بصرف النظر عن عدد الحروف، وإما أن تكون مختلفة .

فمثال ما كانت فيه القرائن متساوية، ما يأتى :

١ ــ قوله تعالى : ﴿ وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (الغاشية: ١٨ ـ ٢٠) .

٢ ــ وقوله تعالى : ﴿ والقمر إذا تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها ﴾ (الشمس: ٢ ـ ٤) .

٣ ــ وقوله تعالى : ﴿والعاديات ضبحاً، فالموريات قدحاً، فالمغيرات صبحاً ﴾ (العاديات: ١ ـ ٣) .

أما إذا كانت القرائن مختلفة فإننا سنجدها على النحو التالى :

(أ) أن تكون الأولى أقصر الثلاث ، والثانية والثالثة متساويتين أو إحداهما أطول من الأخرى، كما فى الأمثلة الآتية :

---

(١) الفوائد المشوق : ٢٢١ .

١ ـ ﴿ والقرآن الحكيم، إنك لمن المرسلين، على صراط مستقيم ﴾ (يس: ٢ ـ ٤) ، فالأولى أقصرهن، بينما الثانية والثالثة متساويتان .

٢ ـ ﴿ حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ (غافر: ١ ـ ٣) فالأولى أقصرهن، بينما الثالثة أطول من الثانية .

٣ ـ ﴿ نذيرا للبشر، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر، كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ (المدثر: ٣٦ ـ ٣٨) .

فالأولى أقصرهن، بينما الثانية أطول من الثالثة .

(ب) أن تكون الثانية أقصر الثلاث

والأولى والثالثة متساويتين، أو إحداهما أطول من الأخرى كما فى الأمثلة التالية :

١ ـ ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ﴾ (الإخلاص: ١ـ٣) فالثانية أقصرهن بينما الأولى والثالثة متساويتان .

﴿ بل تؤثرون الحياةالدنيا ، والآخرة خيروأبقى ، إن هذا لفى الصحف الأولى ﴾ (الأعلى : ١٦-١٨) فالثانية أقصرهن والثالثة أطول من الأولى .

٣ ـ ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ (النحل: ٤٥ ـ ٤٧) .

فالثانية أقصرهن، بينما الأولى أطول من الثالثة .

(جـ) أن تكون الثالثة أقصر الثلاث

والأولى والثانية متساويتين، أو إحداهما أطول من الأخرى، كما فى الأمثلة التالية :

١ ـ ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين، فأسقط علينا

كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين، قال ربى أعلم بما تعملون ﴾ (الشعراء: ١٨٦ - ١٨٨) .

فالثالثة أقصرهن، والأولى والثانية متساويتان .

٢ - ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً ﴾ (الكهف: ١ - ٣) .

فالثالثة أقصرهن، والثانية أطول من الأولى .

٣ - ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة، رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة، فيها كتب قيمة ﴾ (البينة: ١ - ٣) .

فالثالثة أقصرهن، والأولى أطول من الثانية .

أما طول الفاصلة
من حيث مقدارها من الآية

فالناظر للفاصلة من هذه الحيثية يتبين له ما يأتى :

(أ) أن هناك فواصل تكون آية مستقلة، وذلك فيما يلى :

١ - الحروف الهجائية التى افتتحت بها بعض السور مثل : ﴿الم﴾، ﴿طه﴾، ﴿طسم﴾ ، ﴿يس﴾، ﴿حم﴾، ونحوها .

٢ - فى بداية بعض السور مثل: (الرحمن)، الحاقة)، (القارعة) .

٣ - ما ورد فى ثنايا سورة الرحمن ﴿مدهامتان﴾ (الآية: ٦٤) .

(ب) فواصل تكون بعض آية .

وهى من ناحية معناها، وتعلقها بمعنى آياتها لها صور متعددة، كما سنذكره إن شاء الله فى فصل مناسبة الفاصلة لمعنى الآية .

هذا وقد تكلم العلماء والأدباء عن أحسن الفواصل والسجع، ولهم فى ذلك أذواق مختلفة، ومشارب شتى . . . ونحن نقتصر فى هذا المقام على عبارتين، إحداهما للإمام ابن القيم والأخرى للزركشى، رحمهما الله تعالى .

يقول ابن القيم: « والفقرات المسجوعة[1] إما أن تكون متساوية أولا .

أما المتساوية: ففى الأكثر إنما توجد فى الفقرات القصار، كما فى قوله تعالى ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر ﴾ (الضحى: ٩، ١٠).

وأما المختلفة: فاختلافها إما أن يكون فى فقرتين أو أكثر .

أما المختلفة فى فقرتين: فالأحسن أن تكون الثانية أزيد من الأولى، ولا تزيد بقدر كثير .

كقوله تعالى: ﴿ وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبورا ﴾ (الفرقان: ١١ ـ ١٣) .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ (مريم: ٨٨ ـ ٩٠) .

وأما المختلف فى أكثر من فقرتين: فأحسنه أن تكون الفقرة الثالثة زائدة، والأوليان متساويتان، أو الثانية منه أزيد يسيراً .

وأقل السجع حسناً ما يكون المتأخر من الفقرات أقل مما قبلها »[2] .

ويقول الزركشى ـ نقلاً عن بعض المغاربة ـ :

« وأحسن السجع ما تساوت قرائنه، ليكون شبيهاً بالشعر، فإن أبياته متساوية، كقوله تعالى: ﴿ فى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل

---

(١) يلاحظ أن ابن القيم، ممن لا يتورعون عن إطلاق لفظ السجع على الفاصلة .

(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ٢٢١، ٢٢٢ ط مكتبة القرآن.

ممدود﴾ (الواقعة: ٢٨ ـ ٣٠) .

وعلته أن السمع ألف الانتهاء إلى غاية فى الخفة بالأولى، فإذا زيد عنها ثقل عنه الزائد، لأنه يكون عند وصولها إلى مقدار الأول كمن توقع الظفر بمقصوده .

ثم ما طالت قرينته الثانية، كقوله : ﴿ والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (النجم: ١، ٢) .

والثالثة، كقوله تعالى: ﴿ خذه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾[1] (الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢) .

أقول: ما قاله ابن القيم وما نقله الزركشى عن بعض المغاربة، وما يقوله غيرهم عن أحسن السجع، واختلافهم فى أيه أحسن، إنما ينطبق على سجع البشر، وكلامهم، أما القرآن الكريم، فليس بسجع كما ليس بشعر، ولا ينطبق على فواصله ما ينطبق على السجع، فهو أسلوب فريد، أعجز الله به الخلق أجمعين .

فكل القرائن التى جاءت مع الفواصل إنما جاءت فى غاية الحسن والإعجاز، رغم مجيئها على صور شتى، على عكس ما يدعيه ابن القيم وغيره من أن أحسن السجع ما كان على صورة كذا، ثم ما كان على صورة كذا. . .

(١) البرهان: ١/١٦٩.

الفصل الثالث

هل الفاصلة القرآنية سجع؟

1

«الفصل الثالث»

هل الفاصلة القرآنية سجع؟

وهنا يبدو سؤال في منتهى القوة، ألا وهو: هل الفاصلة القرآنية سجع أم لا؟

وحول الإجابة عن هذا السؤال، وجدنا العلماء ينقسمون إلى فريقين:

١ ـ **الفريق الأول** ـ ونستطيع أن نقول إنه يمثل جمهور العلماء خاصة علماء علم الكلام ـ يقول إن الفاصلة ليست سجعا.

ويأتي على رأس هذا الفريق أبو الحسن الأشعرى، حيث نفى السجع ن القرآن في غير موضع من كتبه [(١)] ، وأبو بكر الباقلاني من الأشاعرة ـا، حيث عقد في كتابه «إعجاز القرآن» فصلا خاصا بعنوان: «نفى ـجع من القرآن»، وعلى بن عيسى الرمانى، من المعتزلة، في كتابه ـنكت في إعجاز القرآن».

٢ ـ **أما الفريق الثاني**: فيقول إن القرآن فيه سجع، ومنه فواصل الآيات ـقرآنية، ومعظم هذا الفريق من المدرسة الأدبية. ويأتي على رأس هذا ـفريق: أبو هلال العسكرى [(٢)] ، صاحب كتاب الصناعتين، وأبو يعقوب ـسكاكي [(٣)] ، وابن الأثير، وحازم القرطاجني، وابن القيم.

---

(١) كما صرح بذلك أبو بكر الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن: ٧٦.

(٢) أبو هلال العسكرى هو: الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد ت٣٩٥، لغوى أديب شاعر مفسر، من تصانيفه كتاب الصناعتين في النظم والنثر، والمحاسن في تفسير القرآن، جمهرة الأمثال، معاني الأدب (بغية الوعاة للسيوطي: ٢٢١، معجم المؤلفين: ٣/ ٢٤٠).

(٣) السكاكي هو: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن على السكاكى الخوارزمى، عالم في النحو والتصريف والبلاغة والعروض والشعرتوفى عام ٦٢٦، من آثاره مفتاح العلوم ومصحف الزهرة (مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده: ١/ ١٦٣، ومعجم المؤلفين ١٣/ ٢٨٢).

١٩

ولكل من الفريقين أدلته التي يراها مؤيدة لرأيه، وها هي أدلة كل فريق على حدة.

أدلة النافين

أما الذين نفوا السجع عن القرآن، فقد أيدوا رأيهم بأدلة متعددة، حرر معظمها أبو بكر الباقلانى، كما رد على أدلة المثبتين.

ونحن في هذا المقام سنورد هذه الأدلة، مع ملاحظة أن بعضها يتداخل فيه الرد على أدلة المخالف، على النحو التالى[1]

١ ـ لو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز.

٢ ـ لو جاز أن يقال هو سجع معجز، لجاز لهم أن يقولوا شعر معجز.

٣ ـ السجع مما يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر، لأن الكهانة تنافى النبوات، وليس كذلك الشعر.

وقد روى أن النبي ﷺ قال للذين جاءوا وكلموه في شأن الجنين: «كيف ندى من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد بطل؟».

فقال: أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟

وفي بعضها أسجعا كسجع الكهان؟[2]

٤ ـ الذي يقدرونه أنه سجع وهم، لأنه قد يكون الكلام على مثال

---

(١) ملاحظة: هذه الأدلة من رقم (١) إلى رقم (١٧) من كلام الباقلانى في إعجاز القرآن من ٧٦ ـ ٨٤ أما باقى الأدلة فمنسوبة لأصحابها، كما سيأتى في موضعه إن شاء الله تعالى.

(٢) انظر صحيح مسلم، كتاب القسامة، باب (٣٦)، ومسند أحمد: ٢/ ٥٣٥.

السجع، وإن لم نكن سجعا، لأن ما يكون به الكلام سجعا يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدى السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيه تابعا للمعنى.

وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ.

ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره، ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلبا لتجنيس الكلام دون تصحيح المعنى.

٥ ـ ثم إن سلم لهم مسلم موضعا أو مواضع معدودة، وزعم أن وقوع ذلك موقع الاستراحة في الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التى يباين القرآن بها سائر الكلام، وزعم أن الوجه في ذلك أنه من باب الفواصل، أو زعم أن ذلك وقع غير مقصود، فإن ذلك إذا اعترض في الخطاب لم يعد سجعا على ما قد بينا من القليل في الشعر، كالبيت الواحد والمصراع، والبيتين من الرجز، ونحو ذلك يعرض فيه. فلا يقال إنه شعر، لأنه لا يقع مقصودا إليه، وإنما يقع مغمورا في الخطاب.

فكذلك حال السجع الذي يزعمونه ويقدرونه.

٦ ـ ويقال لهم: لو كان الذى في القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموما مرذولا، لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه، واختلفت طرقه كان قبيحا من الكلام.

وللسجع منهج مرتب محفوظ، وطريق مضبوط، متى أخل به المتكلم أوقع الخلل في كلامه، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة، كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئا، وكان شعره مرذولا وربما أخرجه عن كونه شعرا.

وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعا متقارب الفواصل، متداني المقاطع، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول، بعد كلام كثير، وهذا في السجع غير مرضى ولا محمود.

٧ ـ لو كان الكلام الذي هو في صورة السجع منه لما تحيروا فيه، وكانت الطباع تدعو إلى المعارضة، لأن السجع غير ممتنع عليهم، بل هو عادتهم.

فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة، وهو غير خارج عنها ولا مميز منها؟

وقد يتفق في الشعر كلام على منهاج السجع، وليس بسجع عندهم، وذلك كقول البحترى:

قريب المدى حتى يكون إلى الندى ❊ عدو البنى حتى تكون معالى

ونظيره من القرآن ﴿ أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾ (الإسراء: ١٦) ولو كان ذلك عندهم سجعا لم يتحيروا في ذلك التحير، حتى سماه بعضهم سحرا، وتصرفوا فيما كانوا يسمونه به، ويصرفونه إليه، ويتوهمونه فيه، وهم في الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه.

وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم المألوفة لديهم.

٨ ـ من جنس السجع المعتاد عندهم قول أبى طالب لسيف بن ذى يزن:

«أنبتك منبتا طابت أَرُومَتُه، وعزت جرثومته، وثبت أصله، وبسق فرعه، ونبت زرعه في أكرم موطن، وأطيب معدن.» وما يجرى هذا المجرى من الكلام.

والقرآن مخالف لنحو هذه الطريقة مخالفته للشعر، وسائر أصناف كلامهم الدائر بينهم.

٩ - إن القائلين بالسجع يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء، فكان بعض مصاريعه كلمتين، وبعضها تبلغ كلمات، ولا يرون في ذلك فصاحة، بل يرونه عجزا.

فلو رأوا أن ما تلى عليهم من القرآن سجعا لقالوا: نحن نعارضه بسجع معتدل، فنزيد في الفصاحة على طريقة القرآن، ونتجاوز حده في البراعة والحسن.

١٠ - لا بد لمن جوز السجع في القرآن وسلك ما سلكوه من أن يسلم ما ذهب إليه النظام، وعباد بن سلمان، وهشام القرظي، ويذهب مذهبهم في أنه ليس في نظم القرآن وتأليفه إعجاز، وأنه يمكن معارضته، وإنما صرفوا عنه ضربا من الصرف.

١١ - كلام من جوز السجع في القرآن يتضمن تسليم الخبط في طريقة نظمه وأنه منتظم من فرق شتى، ومن أنواع مختلفة، ينقسم إليها خطابهم، ولا يخرج عنها، ويستهين ببديع نظمه، وعجيب تأليفه الذي وقع التحدى إليه.

وكيف يعجزهم الخروج عن السجع والرجوع إليه، وقد علمنا عادتهم في خطبهم وكلامهم أنهم كانوا لا يلزمون أبدا طريقة السجع والرزن؟

بل كانوا يتصرفون في أنواع مختلفة، فإذا ادعوا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلة بين نظمى الكلامين.

هذه أدلة الباقلاني في نفيه السجع عن القرآن، ثم رد على المثبتين بعدة ردود نختار منها ما يلى:

١٢ - فإن قيل: متي خرج السجع المعتدل إلى نحو ما ذكرتموه خرج من

أن يكون سجعا، وليس على المتكلم أن يكون كلامه كله سجعا بل يأتى به طورا، ثم يعدل عنه إلى غيره، ثم قد يرجع إليه.

قيل: متى وقع أحد مصراعى البيت مخالفا للآخر كان تخليطا وخبطا، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعى الكلام المسجع وتفاوت كان خبطا.

وعلم أن فصاحة القرآن غير مذمومة في الأصل، فلا يجوز أن يقع فيه نحو هذا الوجه من الاضطراب.

١٣ ـ لا معنى لقولهم إن ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتها على نسق واحد، وروى غير مختلف، لأن ما جرى هذا المجرى لا يبنى على الاشتقاق وحده، ولو بنى عليه لكان الشعر سجعا، لأن رويه يتفق ولا يختلف، وتتردد القوافى على طريقة واحدة.

١٤ ـ أما الأمور التي يستريح إليها الكلام فإنها تختلف.

فربما كان ذلك يسمى قافية، وذلك إنما يكون في الشعر، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان يسمى مقاطع السجع، وربما سمى ذلك فواصل.

وفواصل القرآن مما هو مختص بها، لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب.

١٥ ـ ثم قال الباقلانى: «وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام في موضع وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع ولتساوى مقاطع الكلام فليس بصحيح.

لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي إن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحدا من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة، وتتبين فيه البلاغة.

وأعيد كثير من القصص في مواضع مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكررا.

ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقصدوا تلك القصة فعبروا عنها بألفاظ لهم تؤدي معناها وتحويها، وجعلوها بإزاء ما جاء به، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبه، وإلى مساواته فيما جاء به.

كيف وقد قال لهم ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ الطور: ٣٤) فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقتين جميعا، دون التسجيع الذى توهموه.

١٦ ـ **فإن قال قائل**: «القرآن مختلط من أول أوزان كلام العرب، ففيه من جنس خطبهم ورسائلهم وسجعهم، وموزون كلامهم الذي هو غير مقفى، ولكنه أبدع فيه ضربا من الإبداع لبراعته وفصاحته».

قيل: قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى نظم ونثر، وكلام مقفى غير موزون، ونظم موزون ليس بمقفى، كالخطب والسجع، ونظم مقفى موزون، له روي.

ومن هذه الأقسام ما هو سجية الأغلب من الناس، فتناوله أقرب، وسلوكه لا يتعذر، ومنه ما هو أصعب تناولا كالموزون عند بعضهم، أو الشعر عند الآخرين.

وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن يقع لهم بأحد أمرين، إما بتعمل أو بتكلف وتعلم وتصنع، أو باتفاق من الطبع، وقذف من النفس على اللسان، للحاجة إليه.

ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع، لم ينفك العالم من قوم يتفق ذلك منهم، ويتعرض على ألسنتهم، وتجيش به خواطرهم، ولا ينصرف عند الكل، مع شدة الدواعي إليه.

ولو كان طريقه التعلم لتصنعوه ولتعلموه، فالمهلة لهم فسيحة، والأمد واسع.

١٧ - ومن ردود الباقلاني على مثبتي السجع أيضا، قوله:

«ولا معنى لقول من قدر أنه ترك السجع تارة إلى غيره، ثم رجع إليه، لأن ما تخلل بين الأمرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدروه من التسجيع، لأنه لو كان من باب السجع لكان أرفع نهاياته، وأبعد غاياته»[1].

١٨ - ويضيف الرماني في كتابه «النكت» إلى هذه الأدلة دليلا آخر فيقول:

«والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها.

ويشرح الرماني لماذا كان السجع عيبا، فيقول:

لأنه «قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة، إذا كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني، التى الحاجة إليها ماسة، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنةٌ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى توجبه الحكمة.

ومثله مثل من رصع تاجا ثم ألبسه زنجيا ساقطا، أو نظم قلادة در، ثم ألبسها كلبا، وقبح ذلك وعيبه بيِّنٌ لمن له أدنى فهم»[2].

١٩ - ويدلل ابن خلدون[3] على أن الفواصل ليست سجعا، بأنه لم يلتزم فيها ما يلتزم في السجع، حيث يقول في مقدمته:

---

(١) انظر أدلة الباقلانى، وردوده على أدلة المخالفين في إعجاز القرآن: ٧٦ - ٨٤.

(٢) النكت: ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز: ٨٩، ٩٠.

(٣) ابن خلدون هو: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد الحضرمى الأشبيلى الأصل، التونسي ثم القاهري المالكي عالم أديب، مؤرخ، اجتماعى، حكيم توفى بالقاهرة عام ٨٠٨ هـ، من مؤلفاته: العبر (تاريخ ابن خلدون) وطبيعة العمران. (الضوء اللامع للسخاوى ٤/١٤٥، وشذرات الذهب ٧/٧٦، ومعجم المؤلفين: ٥/١٨٨).

المثبتون للسجع في القرآن الكريم

ما سبق ذكره كان يمثل أدلة الفريق الأول الذي كان زعماؤه في الأساس معظمهم من المدرسة الكلامية، أشعرية كانت أم اعتزالية.

فإذا جئنا إلى الفريق الثاني وجدنا معظمهم من الذين يمثلون المدرسة الأدبية.

واستدلوا لصحة رأيهم بما يأتي:

١ ـ قالوا إن السجع مما يبين به فضل الكلام، وأنه من الأجناس التي يقع بها التفاضل في البيان والفصاحة، كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة(١).

بل يذهب ابن الأثير(٢) في فضل السجع، وشيوعه في أكثر القرآن مذهبا غاية في الغلو حيث يقول:

«إن أكثر القرآن مسجوع، حتى إن السورة لتأتى جميعها مسجوعة، وما منع أن يأتى القرآن كله مسجوعا إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لا يؤاتى في كل موضع من الكلام على حد الإيجاز والاختصار، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب.

ثم يقول:

وههنا وجه آخر ـ هو أقوى من الأول ـ ولذلك ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع، وإنما تضمن القرآن غير المسجوع لأن ورود

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى: ٧٦.

(٢) ابن الأثير هو: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى، أبو الفتح ضياء الدين، أديب كاتب، من الوزراء، ولد بجزيرة ابن عمر، وانتقل إلى الموصل، توفى ببغداد عام ٦٣٧هـ، ومن آثاره: المثل السائر، والمعانى المخترعة في صناعة الإنشاء (وفيات الأعيان ٢/٢٠٨، معجم المؤلفين: ١٣/٩٨).

«ويسمى آخر الآيات فيها فواصل، إذ ليست أسجاعا، ولا التزام ما يلتزم في السجع، ولا هي أيضا قواف»[1].

٢٠- ويدلل النافون للسجع من القرآن أيضا بأن البيان القرآنى ليس قائما على اعتبار لفظي، وإنما على مقتضى معنوى بلاغى يقويه الأداء اللفظي.

تقول عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في ردها على من علل حذف الضمير في قوله تعالى: ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ من سورة الضحى، بأنه لرعاية الفاصلة:

«أما تعليل الحذف برعاية الفاصلة، فليس من المقبول عندنا أن يقوم البيان القرآنى على اعتبار لفظي، وإنما الحذف لمقتضى معنوى بلاغى، يقويه الأداء اللفظى دون أن يكون الزخرف الشكلى هو الأصل.

ولو كان البيان القرآنى يتعلق بمثل هذا لما عدل عن رعاية الفاصلة في آخر سورة الضحي ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث ﴾.

وليس في السورة كلها (ثاء) فاصلة، بل ليس فيها حرف الثاء على الإطلاق، فلم لم يقل «فخبر» لتستقيم الفواصل علي مذهب أصحاب الصنعة ومن يتعلقون بها.»؟

ثم تقول معللة سبب الحذف:

«ويبقى القول بأن الحذف لدلالة ما قبله على المحذوف، وتقتضيه حساسية معنوية، بالغة الدقة واللطف والإيناس، وهي تحاشى خطابه تعالى لحبيبه المصطفى: ما قلاك، لما فى القلى من الطردوالإبعاد وشدة البغض أما التوديع فلا شئ فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوى فيه يؤذن بالفراق على كره، مع رجاء العودة»[2].

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ١/ ٤٩٧ طبعة: ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م.

(٢) التفسير البيانى لعائشة عبد الرحمن: ١/ ٢٤، ٢٥.

غير المسجوع معـجزا أبلغ في باب الإعجاز من ورود المسجوع، ومن أجل ذلك تضمن القرآن القسمين جميعا»[1] .

والمبالغة واضحة في كلام ابن الأثيـر غاية الوضوح، فمن ذا الذى يقول إن أكثر القرآن مسجوع، حتى من المثبتين للسجع في القرآن؟

والأدهى والأمر من تلك الدعوى استدلاله عليها، حيث يقول إن الذي منع أن يكون كل القرآن مسـجوعا مراعاة الإيجاز والاختـصار. يا الله!!! هل يعجز الله عز وجل لو أراد أن يجعل القـرآن كله مسجوعا علة الإيجاز والاختصار؟

إن الله عز وجل لو أراد أن يجـعله مسـجوعا وفي الوقت ذاته مـوجزا مختـصـرا ما حـال دون إرادته شئ، فـسبـحانه من عليم قـدير، وحكيم خبيـر!!! ولذلك رأينا بعضا من أصحاب المدرسـة. الأدبية الذين يقولون بالسجع في القرآن ينبذون قوله هذا، ويفندونه.

فهذا هو الجندى[2] صاحب «صـور البديع» يفند كـلام ابن الأثير رغم قوله بالسجع في القرآن أيضا، حيث يقول:

«والمبالغة واضحة في كلام ابن الأثير، فلا يمكن وصف القرآن بأن أكثره مسجوع، ولا نقره على هذا الاستدلال الغريب، الذي أيد به رأيه.

فمن الجـرأة على القرآن أن يقال: إنه لولا مـراعاة الإيجاز والاختـصار لأتى كله مـسجوعا، لأن السجع لا يساوقه الإيجاز دائما!

فمن أين لابن الأثير الاطلاع على علم الله، حـتى يتحدث عنه حديث

---

(١) المثل السائر: ١١٧، ١١٨ طبعة ١٣٨٢ هـ.

(٢) الجندى هو: على الجندي، أديب مصرى، عمل أستاذا مـساعدا بجامـعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد) له مؤلفات كثيرة في الشعر والنثر، خاصة فيما يتعلق بعلوم البـلاغة، وعلى رأسـها عـلم البديع: انظر: مـفكرون وأدباء من خـلال آثارهم لأنور الجندي: ١٧٠ ط دار الإرشاد بيروت.

العارف بمقاصده العليا، في إيثار الترسّل حينا قصد الإيجاز؟

إن الأمر هنا لا يتعلق بجمال الفواصل، وحسن التركيب، ورونق الألفاظ، ودقة المعانى، وجوهر التشريع، والمفاضلة بين أسلوب وأسلوب ولكن يتعلق باكتناه سر علوي استأثر الله به.

وليس سبحانه شاعرا أو كاتبا حتى يحاول ابن الأثير كشف نفسيته، وبيان أن السجع أحب إليه من الترسل لولا رعاية كذا وكذا! فهل يظن هذا الرجل أن الله مغرم بالسجع فرامه به؟

وقد اعتاد البلغاء المحدثون أن يتكلموا على الآيات القرآنية، ويجلوا ما حوته من صور بيانية، وحقائق سامية، ويتدارسونها كما يتدارسون النصوص الأدبية، الخالصة، غير ناظرين إلى شيء وراء ذلك من مسائل الإعجاز الذاتى أو بالصرفة، ولكن ما قالوه ويقولونه غير القول بأن القرآن كان حتما أن يكون مسجوعا لولا الإيجاز والاختصار!!

إلى أن يقول الجندى:

والوجه الذي قال عنه ابن الأثير: إنه أقوى من الأول وجه مائل قائم، فمتى ثبت أن المسجوع من الكلام أفضل من غير المسجوع؟ ومن الذى قال ذلك؟

إن الذى قاله رجل واحد، هو ابن الأثير، وإنما قاله لأنه أكثر من عرفتهم صناعة القلم كلفا بالسجع وتهالكا عليه»(١).

وهذا هو أحد أكابر أئمة الزيدية، يحيى بن حمزة العلوى(٢)، يقول:

«وأكثر القرآن وارد على جهة السجع»(٣).

(١) صور البديع، لعلى الجندي: ٢/ ١٧٠، ١٧١ ط دار الفكر العربى.

(٢) أحد أئمة الشيعة الزيدية باليمن، صاحب كتاب الطراز ت٧٤٥هـ: الأعلام ٩/ ١٧٤.

(٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ٣/ ١٨.

ويعقب عليه على الجندى أيضا بقوله:

«وهو في ذلك لا يقل إغراقا عن ابن الأثير، وليس ذلك بعجيب منه، فمن يقرأ كتابه الطراز بإمعان وتدبر، يتبين مبلغ تأثره بابن الأثير، وكثيرا ما ينتهب أفكاره دون أن يشير إلى ذلك»[1].

٢ ـ ومن حجج القائلين بالسجع في القرآن أيضا قولهم:

إن السجع ليس عيبا في كل الأحوال، لأنه ينقسم إلى قسمين:

أ ـ ممدوح، وهو ما ليس فيه تكلف.

ب ـ ومذموم، وهو الذى فيه تكلف، والواقع في القرآن هو الممدوح.

يقول ابن سنان الخفاجي: «والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه، دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأجله، وورد ليصير وصلة إليه.

فإنا متى حمدنا هذا الجنس من السجع كنا قد وافقنا دليل من كرهه، وعملنا بموجبه لأنه إنما دل على قبح ما يقع من السجع بتعمل وتكلف، ونحن لم نستحسن ذلك النوع.

ووافقنا أيضا دليل من اختاره، لأنه إنما دل به على حسن ما ورد منه في كتاب الله تعالى، وكلام النبى ﷺ، والفصحاء من العرب»[2].

وقال أيضا: «فأما القرآن فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود، لعلوه في الفصاحة»[3].

٣ ـ وقال المثبتون أيضا:

---

(١) صور البديع: ٢/١٧١.

(٢) سر الفصاحة: ١٦٤.

(٣) سر الفصاحة: ١٦٥.

إن الرسول ﷺ كان يتكلم بالسجع، وربما غير الكلمة عن وجهها لمراعاة السجع.

قال أبو هلال العسكري: «وقد جرى عليه (أي على السجع) كثير من كلامه عليه السلام، ثم ذكر حديث:

«أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[(١)].

ثم قال: وكان ﷺ ربما غير الكلمة عن وجهها للموازنة بين الألفاظ، وإتباع الكلمة أخواتها، كقوله ﷺ:

«أعيذه من الهامة، والسامة، وكل عين لامة»[(٢)].

وإنما أراد: ملمة.

وقوله عليه السلام: «ارجعن مأزورات غير مأجورات»[(٣)].

وإنما أراد موزورات، من الوِزْر، فقال مأزورات، لمكان مأجورات، قصدا للتوزان وصحة التسجيع.

* فكل هذا يؤذن بفضيلة التسجيع، على شرط البراءة من التكلف والخلو من التعسف».

ولما أحس أبو هلال العسكري بتكلفه في استدلاله، وأنه قد حَمَّلَ رسول الله ﷺ ما لم يقصده من تعمد السجع قال:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده: ٥/ ٤٥١، والترمذي في سننه، كتاب صفة القيامة باب (٤٢).

(٢) أخرجه البخاري بلفظ «أعوذ بكلمات الله التامة، ومن كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» في كتاب الأنبياء، باب (١٠)، ونقل الحافظ في الفتح: ٦/ ٤١٠ عن ابن الأنباري قوله: «وقال لامة ليؤاخي لفظ هامة، لكونه أخف على اللسان، بينما نقل عن أبي عبيد قوله: «وإنما قال لامة لأنه أراد أنها ذات لمم».

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه في كتاب الجنائز، باب (٥٠).

«وقد اعتمد في موضع تجنب السجع وهو معرّض له، وكلامه كان يطالبه، فقال:

«وما يدريك أنه شهيد؟ لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا ينفعه»[1].

ولو قال بما لا يغنيه لكان سجعا، والحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات، ولعل قوله: «ينفعه» كان أليق بالمقام فعدل إليه»[2].

وكأن أبا هلال يرد على نفسه بنفسه، فالسجع إذًا ليس هو المقصود، وإنما المقصود هو المعني، واللفظ تابع له.

٤ ـ ومن أدلة المثبتين للسجع أيضا قولهم:

«وجدنا الشعر من القصيد والرجز، قد سمعه الرسول ﷺ واستحسنه، وأمر به شعراءه، وعامة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالوا شعرا، قليلا كان ذلك أم كثيرا، وسمعوا واستنشدوا، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز، فكيف يحل ما هو أكثر، ويحرم ما هو أقل؟»[3].

ويبدو على هذا الدليل عدم الدقة والموضوعية، إذ الكلام ليس في الحل أو الحرمة، وإنما في هل في القرآن سجع أم لا؟

وعللوا النهي الوارد في الحديث بأمرين:

١ ـ تشدق المتكلم بالسجع لإبطال الحق.

٢ ـ لقرب العهد بالجاهلية.

قال عبد الصمد بن عبد الفضل ـ كما يروي عنه الجاحظ: لو أن هذا

---

(١) أخرجه الترمذي بلفظ «أو لا تدرى فلعله تكلم فيما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه» وقال: هذا حديث غريب: سنن الترمذي: كتاب الزهد، باب (١١).

(٢) الصناعتين: ٢٦٨.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ: ١/ ٢٧٦.

المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن لما كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالا لحق، فتشادق في كلامه»[1].

وقال الجاحظ نفسه: «وكان الذى كَـرِّه الأسجاع بعينها، وإن كانت دون الشعر في التكلف والصنعة، أن كهان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكـمون إليهم، وكانوا يدَّعون الكهـانة وأن مع كل واحد منهم رَئِيًّا من الجن، مثل حازى جـهينة ومثل شقٍّ، وسطيح، وعزى سلمـة، وأشباههم كانو يتكهنون ويحكمون بالأسجاع.

إلى أن قال:

«فوقع النهى في ذلك لقـرب عهدهم بالجاهلية، ولبـقيتهـا فيهم، وفي صدور كثير منهم، فلما زالت العلة زال التحريم.

وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة، فلم ينهوا منهم أحدا»[2].

٥ - ومن أدلة المثبتين للسجع في القرآن أيضا قولهم:

إن العرب استعـملته في كلامهم واستحسنـته، لذلك جرى القرآن على أسلوبهم.

قال أبو هلال العسكرى:

«وقد أعجَبَ العربَ السجعُ، حتى استعملوه في منظوم كلامهم، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما في منظوم، وسجعا في سجع.»[3].

٦ - قالـوا: إن اللغة تؤيدهم في إطلاق لفظ الســجع على ما جـاء في القرآن الكريم على هيئة السجع.

---

(١) البيان والتبيين: ١/ ٢٧٦.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٢٧٧، ٢٧٨.

(٣) الصناعتين: ٢٧٠، ٢٧١.

قال الباقلاني في تحرير دينهم هذا:

«ويبنون الأمر في ذلك على تحديد معنى السجع، قال أهل اللغة: هو موالاة الكلام على وزن واحد.

قال ابن دريد: سجعت الحمامة معناه: رددت صوتها.

وأنشد:

ضربت فأبكتك الحمام السواجع   تميل بها ضحوا غصونٌ نوائع[1]

وقد ذكرنا رد الباقلاني على هذا الدليل ضمن أدلة النافين تحت رقم (١٣)، فليرجع إليه.

٧ - ومن أدلة المثبتين للسجع في القرآن آية ﴿ **هارون وموسى** ﴾ من سورة طه.

حيث قالوا: لما كانت الفاصلة بالواو والنون قيل موسى وهرون، فلما اقتضى السجع في موضع آخر أن لا تختم بالنون قدم هرون، فقيل هرون وموسى، مع أن موسى أفضل من هرون بالإجماع

ويعتبر هذا الدليل من أقوى أدلتهم، بل إن الباقلاني يعتبره أقواها على الإطلاق، حيث يقول:

«وأقوى ما يستدلون به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هرون عليهما السلام، ولمكان السجع قيل في موضع ﴿ **هرون وموسى** ﴾ (طه: ٧٠)، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالنون، قيل ﴿ **موسى وهرون** ﴾ (الأعراف: ١٢٢). وقد ذكرنا رد الباقلاني على هذا الدليل سابقا، ولغير الباقلاني ردود كثيرة، فليرجع إليها في كتب التفاسير.

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني: ٧٦، ٧٧، والنوائع: الموائل.

من ردود المثبتين على النافين

ومن ردود المثبتين للسجع في القرآن على النافين قولهم: إن القرآن لم يكن كله مسجوعا، لأن الفصاحة تقتضي عدم الاستمرار على نمط واحد وأيضا حتى لا يكون هناك ملل، وأيضا فإن المقام يستلزم التغيير.

يقول ابن سنان الخفاجي:

«فإن قال قائل: إن كان عندكم أن السجع محمود، فهلا ورد القرآن كله مسجوعًا؟ وما الوجه في ورود بعضه مسجوعا، وبعضه غير مسجوع؟

قيل: إن القرآن أنزل بلغة العرب، وعلى عرفهم وعادتهم، وكان الفصيح من كلامهم لا يكون كله مسجوعا، لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه والتصنع، لا سيما فيما يطول من الكلام.

فلم يرد مسجوعا جريا به على عرفهم في الطبقة العالية من كلامهم ولم يخل من السجع لأنه يحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها، وعليها ورد في فصيح كلامهم.

فلم يجز أن يكون عاليا في الفصاحة وقد أخل فيه بشرط من شروطها.

فهذا هو السبب في ورود القرآن مسجوعا وغير مسجوع»(١).

وقال حازم القرطاجني:

«وإنما لم يجئ علي أسلوب واحد، لأنه لا يحسن في الكلام جميعا أن يكون مستمرا على نمط واحد، لما فيه من التكلف، ولما في الطبع من الملل عليه، ولأن الافتنان في ضروب الفصاحة أعلى من الاستمرار على ضرب واحد.

---

(١) سر الفصاحة: ١٦٧.

فلهذا وردت بعض آى القرآن متماثلة المقاطع، وبعضها غير متماثل»[1].

وقال ابن النفيس[2]:

«يكفى في حسن السجع ورود القرآن به، ولا يقدح في ذلك خلوه في الآيات، لأن الحسن قد يقتضي المقام الانتقال إلى أحسن منه»[3].

---

(١) البرهان: ١/١٥٦، والاتقان: ٢/٩٩.

(٢) ابن النفيس هو: على بن أبي الحزم القرشي الدمشقي، المصرى الشافعي، علاء الدين، طبيب شارك في الفقه والأصول، الحديث والعربية توفى في مصر عام ٦٨٧هـ من تصانيفه الرسالة الكاملية في السيرة النبوية وطريق الفصاحة، وبغية الطالبين. (طبقات الشافعية للسبكى ٥/١٢٩، معجم المؤلفين: ٧/٥٨.

(٣) الاتقان: ٢/٩٨.

رأينا في هذه القضية

بالتأمل في أدلة الفريقين يتضح لنا ما يأتى:

١ ـ أن أدلة المثبتين ـ في مجموعها ـ وإن كان فيها شئ من الوجاهة إلا أن أدلة النافين أقوى منها، وقد اتضح ذلك بجلاء من خلال ردود النافين عليها.

٢ ـ بدا لى في أول الأمر أن الخلاف بين الفريقين خلاف لفظي، ينحصر في مجرد التسمية، فهؤلاء يسمون آخر الآية فاصلة، وأولئك يسمونه سجعا، ولا مشاحة في الاصطلاح، ما لم يترتب علي ذلك محظور.

ولكن اتضح لى أن الخلاف أعمق من ذلك، لأن أسلوب القرآن مع الفاصلة غير أسلوب الأدباء مع السجعة.

لذا لا يصح أن نصف الفواصل بأنها سجع، حيث لا ينطبق نظام هذا على تلك.

وقد ركز الباقلانى وغيره على هذه الناحية، في نفيهم السجع عن القرآن الكريم بما أظهر الفرق تماما بين الأسلوبين.

٣ ـ القول بأن أسلوب القرآن في انتقاء المفردات والجمل والتراكيب أسلوب بديع، لم يألفه العرب من قبل ولا من بعد، أدق وأصدق، من القول بأنه على نمط المعهود لدى العرب ولكنه فاقهم في الفصاحة والبلاغة.

إنه أسلوب فريد تماما، ولقد صدق الباقلانى حينما رد عليهم بقوله ـ كما سبق ذكره ـ «لو جاز أن يقال هو سجع معجز لجاز أن يقولوا شعر معجز..» ولكن الواقع أنه ليس بسجع كما أنه ليس بشعر.

٤ ـ السجع غير المتكلف، وإن لم يكن عيبا، فإنه يجب علينا أن ننزه القرآن عنه، تجنبا لمشابهة ما كان يصدر عن الكهان.

٥ ـ القول بالفاصلة أدق وأصدق من القول بالسجع، وأبعد من الخلاف حيث لا يرى الجميع أى حرج في تسمية آخر الآية بالفاصلة، بينما يختلفون ويتنازعون ويتناطحون حول إطلاق لفظ السجع على شئ من القرآن.

لذا أرى ضرورة تجنب إطلاق لفظ السجع على القرآن، من الناحية العلمية أولا، حيث إن هناك فرقا بين أسلوبه وأسلوب الفاصلة، ومن الناحية اللفظية ثانياً، لارتباط هذا الأسلوب بما كان يصدر عن الكهنة الكذابين، ومن ناحية انفراد القرآن بمصطلح خاص لأواخر آياته ثالثا.

وما أصدق عبارة أبى العلاء المعرى وأدقها، وهو يرد على ابن الراوندى، حيث يقول رحمه الله:(١)

«وأجمع ملحد ومهتد، وناكب عن المحجة ومقتد، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد ﷺ، كتاب بهر بالإعجاز، ولقى عدوه بالإرجاز، وما حذى على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ماهو من القصيد الموزون، ولا في الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوى الأرب، وإن الآية منه، أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق».

---

(١) كما في إعجاز القرآن للرافعي: ٢٤٥ ط المقتطف بمصر.

الفصل الرابع

مناسبة الفاصلة لمعنى الآية

﴿الفصل الرابع﴾

مناسبة الفاصلة لمعنى الآية

الناظر في النظم القرآني بشئ من التدبر، يدرك أن كل لفظة منه اختيرت بقدر، لتؤدى معنى مقصودا، لا يؤديه غيرها.

وإلى هذا المعنى يشير ابن عطية(١) رحمه الله بقوله:

«كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد»(٢).

ولهذا فلا مجال للقول بزيادة كلمة أو حرف.

يقول الرافعي(٣) رحمه الله:

«ولما كان الأصل في نظم القرآن أن تعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها، ومواقعها من الدلالة المعنوية، استحال أن يقع في تركيبه ما يسوغ الحكم في كلمة زائدة أو حرف مضطرب، أو ما يجرى مجرى الحشو والاعتراض، بل نزلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يشبه أن يكون من هذا النحو الذى تمكنت به مفردات النظام الشمسى، وارتبطت به سائر أجزاء المخلوقات.

---

(١) ابن عطية هو: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام المحاربى، الغرناطى، المالكى أبو محمد، عالم في الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والأدب، رحل إلى المشرق وتوفى بلورقة عام ٥٤١ هـ. من مؤلفاته المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. (بغية الوعاة: ٢٩٥، ومعجم المؤلفين: ٥/ ٩٣).

(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٥٢ ط دار الكتب العلمية.

(٣) الرافعى هو: مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعى، أديب كاتب شاعر، أصله من طرابلس، ولد في بهتيم من قرى القليوبية درس في دمنهور ثم في المنصورة، ونال الشهادة الابتدائية، وعين كاتبا بمحكمة طنطا، أصيب بصمم، فكان يكتب له ما يراد منه. انتخب عضوا بالمجمع العلمى العربي بدمشق توفى في طنطا عام ١٣٥٦، من مؤلفاته تاريخ الأدب العربي، وتحت راية القرآن، والسحاب الأحمر، وإعجاز القرآن. (معجم المؤلفين: ١٢/ ٢٥٦).

إلى أن يقول: «ولقد صارت ألفاظ القرآن بطريقة استعمالها، ووجه تركيبها كأنها فوق اللغة»[1].

والفاصلة القرآنية ينطبق عليها هذا القول تماما، بل الملاحظ عليها أنه اعتنى بها اعتناء خاصا، لما تؤديه من دور غاية في الأهمية من ناحية المضمون، ومن ناحية الشكل، الذى يرتبط بالمضمون أيضا حيث لم يكن مجرد حلية لفظية، أو سماعية.

لذا كانت الفاصلة أمس الكلمات رحما بمعنى الآية، وأحسنها وقعا على الأذن، وأبلغها تأثيرا في القلب.

والمتدبر للآيات القرآنية - قارئا أو سامعا - يدرك بكل سهولة من تدبره هذا أنه في بعض الأحوال سيجد فطرته النقية تنطق بالفاصلة قبل أن يسمعها، كما حدث لمعاذ بن جبل أثناء كتابة زيد بن ثابت لآيات خلق الإنسان في صدر سورة (المؤمنون)، حينما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ نطق لسان معاذ بقوله: ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾، فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت»[2].

بل إن المستمع للقرآن بتدبر لو سمع آية تنتهى بفاصلة غير فاصلتها لأحس بهذا التغير، كما حدث لمن سمع قارئا يقرأ ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله** ﴾[3] فختمها بقوله: ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ فراجعه في قراءتها، فلما قرأها صحيحة ﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ قال له: نعم هذا كلام الله، فلما سأله القارئ كيف علم هذا الخطأ أجابه بقوله: «عز فحكم فقطع، ولو غفر فرحم لما قطع»[4].

---

(١) إعجاز القرآن: ٢٢٤ - ٢٢٦ باختصار.

(٢) الإتقان: ٢/١٠١.   (٣) المائدة: ٣٨.

(٤) خزانة الأدب للحموى: ٩٧ والقارئ الذى أخطأ هو الأصمعي.

ويتبين لنا مدى مناسبة الفاصلة لمعنى الآية، من خلال بيان أنواعها من هذه الزاوية على النحو التالي:

أنواع الفاصلة

من حيث مناسبتها لمعنى الكلام

تنقسم الفاصلة من حيث مناسبتها لمعنى الكلام الذي سيقت فيه إلى أربعة أنواع على النحو التالي:

١ ـ التمكين.

٢ ـ التصدير.

٣ ـ التوشيح.

٤ ـ الإيغال.

الأول التمكين

أما التمكين: فهو أن يمهد للفاصلة بتمهيد قبلها، تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافذة ولا قلقة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم[(١)].

ومن أمثلة ذلك ما يأتى:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (الأنعام: ١٠٣).

فإنه سبحانه لما قدم نفى إدراك الأبصار له، عطف على ذلك قوله: ﴿ وهو اللطيف ﴾ خطابا للسامع بما يفهم، إذ العادة أن كل لطيف لا

---

(١) انظر: البرهان: ١/ ٧٠، والاتقان: ٢/ ١٠١.

تدركه الأبصار، ألا ترى أن حاسة البصر إنما تدرك اللون من كل متلون، والكون من كل متكون، فإدراكها إنما هو للمركبات دون المفردات.

وكذلك لما قال: ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ عطف عليه قوله: ﴿ الخبير ﴾ مخصصا لذاته سبحانه بصفة الكمال، لأنه ليس كل من أدرك شيئا كان خبيرا بذلك الشئ، لأن المدرك للشئ قد يدركه ليخبره، ولما كان الأمر كذلك أخبر سبحانه وتعالى أنه يدرك كل شئ، مع الخبرة به.

وإنما خص الإبصار بإدراكه ليزيد في الكلام ضربا من المحاسن يسمى التعطف.

ولو كان الكلام: لا تبصره الأبصار، وهو يبصر الأبصار لم تكن لفظتا ﴿ اللطيف الخبير ﴾ مناسبتين لما قبلهما(١).

٢ - ومن التمكين للفاصلة أيضا، قوله تعالى: ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون، أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ (السجدة: ٢٦، ٢٧).

فالموعظة في الآية الأولى سمعية، حيث قال: ﴿ أو لم يهد لهم ﴾ ولم يقل «أو لم يروا»، لأنه تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع، أو أخبار القرون وهي مما يسمع، فناسب أن تكون الفاصلة ﴿ أفلا يسمعون ﴾.

أما الموعظة في الآية الثانية فهي مرئية، ولذلك بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿ أو لم يروا ﴾ فناسب أن تكون الفاصلة ﴿ أفلا يبصرون ﴾ لأن سوق الماء إلى الأرض الجرز مرئي.

٣ - ومن التمكين للفاصلة أيضا: قوله تعالى: ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾ (البقرة: ٧٦). فمن العقل

---

(١) البرهان: ١/ ١٧١، ١٧٢.

أن يكتم الإنسان سره عن عدوه، أما أن يكشف له هذا السر، ويطلعه على عوراته، فقد أعطاه سلاحا ماضيا للتخلص منه بكل سهولة، وهذا فعل غير العقلاء، لذا كانت الفاصلة ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ غاية في التمكن في موضعها.

٤ ـ ونظير هذه الآية آية ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون** ﴾[1] فإن من يمد الناس بأسباب السعادة، بينما يتعاطى هو أسباب الشقاوة كان هُو وَمَنْ فقد عقله سواء.

٥ ـ ومنه قول لقمان لابنه ﴿ **يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير** ﴾ (لقمان: ١٦).

فالآية تتحدث عن شمول علم الله تعالى لكل ما في الوجود، مهما دق أو خفى، حتى لو كان مثقال ذرة، كائنة أيًا كانت، لذا لم يكن هناك أنسب من أن تختم الآية بهذين الاسمين الجليلين من أسماء الله الحسنى (اللطيف ـ الخبير) دون العليم البصير، أو غيرهما.

وهذا النوع من الفواصل يلاحظ فيه عدة أشياء، نخص بالذكر هنا منها ثلاث ملاحظات:

أ ـ اختلاف الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد.

ب ـ اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف، عكس الأول.

جـ ـ أن تجتمع فواصل في موضع واحد، ويخالف بينها.

أما الملاحظة الأولى: وهي اختلاف الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد، فمن أمثلته ما يأتي:

---

(١) البقرة: ٤٤.

١ ـ قوله تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ فقد ذكرت هذه الآية مرتين في سورة النساء، الأولي في الآية رقم: ٤٨، والثانية في الآية رقم ١٦٦.

ولكنها في المرة الأولي ختمت بقوله تعالى: ﴿ **ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما** ﴾، بينما ختمت في المرة الثانية بقوله تعالى: ﴿ **ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾.

وسبب ذلك أن الأولي نزلت في اليهود، وهم أصحاب كتاب فكان شركهم افتراء على الله عظيما، أما الثانية فنزلت في غيرهم ممن ليس لهم كتاب، فنوسب في حقهم الوصف بالضلال.

٢ ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

وقوله تعالى: ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ (النحل: ١٨)... فالمحدث عنه في الآيتين واحد، وهو نعمة الله تعالى، ولكن فاصلة الأولى فيها وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار، والثانية فيها وصف الله تعالى بصفتى المغفرة والرحمة بصيغة المبالغة ﴿ **لغفور رحيم** ﴾.

وعن سر ذللك يقول ابن المُنَيِّر رحمه الله(١).

«كأنه يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة فأنت آخذها، وأنا معطيها، فحصل لك عند أخذها وصفان، كونك ظلوما وكونك كفارا، ولى عند إعطائها وصفان: وهما أنى غفور رحيم، أقابل ظلمك بغفراني، وكفرك

---

(١) ابن المنير هو: احمد بن محمد بن منصور الاسكندرى المالكى، ناصر الدين .ر العباس، عالم مشارك في النحو والعربية والأدب، والفقه والأصول والتفسير والبلاغة ولى قضاء الإسكندرية وتوفى فيها عام ٦٨٣هـ، من مصنفاته البحر الكبير في التفسير، والانتصاف من صاحب الكشاف (بغية الوعاة للسيوطى ٦٨، ومعجم المؤلفين ٢/ ١٦٢).

برحمتي، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاءك إلا بالوفاء»[1].

ويعجب الزركشي بكلام ابن المنير هذا، ويصفه بالحسن، ويضيف عليه هو الآخر حسنا جديدا فيقول:

«وهو حسن، لكن بقي سؤال آخر، وهو:

ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعِم، وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه؟

والجواب: أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان، وما جبل عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه، وأما آية النحل فسيقت في وصف الله تعالى، وإثبات ألوهيته، وتحقيق صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه.

فتأمل هذه التراكيب، ما أرقاها في درجة البلاغة!»[2].

٣ ـ ومنها أيضا قوله: ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ (فصلت: ٤٦)، وقوله تعالى: ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ (الجاثية: ١٥).

فلما كان المقصود من الآية الأولى عدم إنقاص شيء من ثواب مَنْ آمن وعمل صالحا، وعدم زيادة العقاب أكثر مما يستحق ناسب أن تختم الفاصلة بنفي الظلم عن الله تعالى.

أما الآية الثانية: فلما سُبِقت بإنكار البعث من المشركين، كما قال الله تعالى: ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوما بما

---

(١) تفسير: «البحر الكبير في بحث التفسير»، نقلا عن البرهان للزركشي: ١/١٧٦.

(٢) البرهان: ١/١٧٦، ١٧٧.

كانوا يكسبون ﴾ (الجاثية: ١٤) كما سبقت بإنكار البعث ناسب أن تكون تلك الفاصلة متضمنة لإثبات هذا البعث.

أما الملاحظة الثانية، وهي اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف - عكس الأولى - فمن أمثلتها:

١ - قوله تعالى: ﴿ واتبعوا ماتتلوا الشياطين علي ملك سليمان ﴾ إلى أن ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ البقرة: ١٠٢.

وقوله تعالى في الآية التالية لها مباشرة: ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾.

قال أبو السعود في جواب (لو) في الآية الأولى:

«وجواب (لو) محذوف، أى لما فعلوا ما فعلوا.»[1].

- أما جواب (لو) في الآية الثانية فمحذوف أيضا، والتقدير: لآمنوا واتقوا.

٢ - ومن أمثلة ذلك أيضا، قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ إلى نهاية الآية ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ (النور: ٥٨).

وقوله تعالى في التى تليها مباشرة ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ﴾ (الآية: ٥٩).

أما الملاحظة الثالثة: وهي اجتماع الفواصل في موضع واحد مع المخالفة بينها، فمن أمثلتها ما يأتى:

---

(١) إرشاد العقل السليم: ١/ ١٤٠.

١ ـ قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ (الآيات من: ١٥١ ـ ١٥٣).

فإن الأولى ختمت بقوله ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ ، والثانية بقوله: ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾، والثالثة بقوله: ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾.

لأن الوصايا في الآية الأولى إنما يحمل علي تركها عدم العقل الغالب على الهوى، لأن الإشراك بالله لعدم استكمال العقل الدال على توحيده وعظمته، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل لسبق إحسانهما إلى الولد بكل طريق، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق مع وجود الرازق الحى الكريم، وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل، وكذلك قتل النفس لغيظ أو غضب في القاتل.

فحسن بعد ذلك ﴿ **يعقلون** ﴾.

وأما الثانية: فتعلقها بالحقوق المالية والقولية، فإن من علم أن له أيتاما يخلفهم من بعده لا يليق به أن يعامل أيتام غيره إلا بما يحب أن يعامل به أيتامه، ومن يكيل أو يزن أو يشهد لغيره، لو كان ذلك الأمر له لم يحب أن يكون فيه خيانة، ولا يحسن، وكذا من وعد، لو وعد لم يحب أن يخلف، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبر ذلك، وتأمله. فلذلك ناسب الختم بقوله: ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾.

وأما الثالثة: فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية، مؤد إلى غضبه، وإلى عقابه، فحسن ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ أى عقاب الله بسببه[١].

٢ ـ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون** ﴾ (الحاقة: ٤١، ٤٢).

---

(١) الاتقان: ٢/١٠٢.

حيث ختم الأولى بتؤمنون، والثانية بتذكرون، ووجهه أن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة لا تخفى على أحد، فقول من قال شعر كفر وعناد، فناسب ختمه بقوله: ﴿ **قليلا ما تؤمنون** ﴾.

وأما مخالفته لنظم الكهان وألفاظ السجع، فيحتاج إلى تذكر وتدبر، لأن كلا منهما نثر، فليست مخالفته له في وضوحها لكل أحد، كمخالفته الشعر، وإنما تظهر بتدبر ما في القرآن، من الفصاحة والبلاغة والبدائع والمعانى الأنيقة.

فحسن ختمه بقوله: ﴿ **قليلا ما تذكرون** ﴾[1].

النوع الثاني: التصدير

أما النوع الثانى من أنواع الفاصلة، من حيث مناسبتها لمعنى الكلام الذى سيقت فيه، فهو التصدير.

والتصدير: أن تكون لفظة الفاصلة بعينها تقدمت في أول الآية[2]، وتسمى أيضا: رد العجز على الصدر[3].

وقال ابن المعتز: هو ثلاثة أقسام:

الأول: توافق آخر الفاصلة وآخر كلمة في الصدر.

نحو قوله تعالى: ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا** ﴾ النساء: ١٦٦.

الثانى: أن يوافق أول كلمة منه، نحو: ﴿ **وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾ (آل عمران: ٨)، ﴿ **قال إنى لعملكم من القالين** ﴾ (الشعراء: ١٦٨).

---

(١) الاتقان: ٢/ ١٠٢.
(٢) البرهان: ١/ ١٧٠، والاتقان: ٢/ ١٠٤.
(٣) الاتقان: ٢/ ١٠٤.

الثالث: أن يوافق بعض كلماته، نحو ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (الأنبياء: ٤١).

﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ (الإسراء: ٢١).

﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ﴾ إلى قوله: ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ (طه: ٦١).

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾ (نوح: ١٠)[١].

النوع الثالث: التوشيح

وهو أن يكون في أول الكلام ما يستلزم الفاصلة

والفرق بينه وبين التصدير:

أن كلا منهما وإن اشترك صدره في الدلالة على عجزه، فإن دلالة التصدير لفظية، أما دلالة التوشيح فمعنوية.

وعن سبب تسميته بهذا الاسم يقول الزركشي رحمه الله:

«وسمى به لكون نفس الكلام يدل على آخره، نزل المعنى منزلة الوشاح، ونزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح، ولهذا قيل فيه: إن الفاصلة تعلم قبل ذكرها.

وسماه ابن وكيع[٢] «المطمع» لأن صدره مطمع في عجزه، كقوله

---

(١) البديع لابن المعتز: ٩٣، ٩٤ ط مصطفى الحلبي، والاتقان: ٢/ ١٠٤.

(٢) ابن وكيع هو: الحسن بن على بن أحمد بن محمد بن خلف بن حيان الضبى، شاعر، ولد وتوفى بتنيس في مصر عام ٣٩٣هـ، من آثاره: ديوان شعر، والمصنف في الدلالات على سرقات المتنبى، ومنظومة في بحر الأوهام (مرآة الجنان لليافعى ٢/ ٤٤٥، ومعجم المؤلفين: ٣/ ٢٨٤.

تعالى: ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1] (المؤمنون: ١٤).

فقد روى أن عبد الله بن أبى السرح كان يكتبها للنبى، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ نطق ابن أبى السرح قائلا: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال له النبي ﷺ أكتبها، فهكذا أنزلت، فشك ابن أبى السرح فارتد، ثم رجع إلى الإسلام مرة ثانية وحسن إسلامه وكان أحد القادة البارعين لجيوش المسلمين. (انظر الإصابة: ٢/ ٣١٧).

كما أخرج ابن أبى حاتم [2] عن زيد بن ثابت[3] قال:

أملى عليّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلي قوله ﴿ خلقا آخر ﴾، قال معاذ بن جبل [4] ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾، فضحك رسول الله ﷺ، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: بها ختمت.»[5].

---

(١) البرهان: ١/ ١٨٤، والكشح: ما بين السرة إلى الضلع الخلف، والوشاح: الثوب يلبس معطوفا أحد طرفيه على الآخر، بحيث يخرج طرفه الذي ألقاه على عاتقه الأيسر، من تحت يده اليمنى، ثم يعقد طرفيهما على صدره.

(٢) ابن أبى حاتم هو: عبد الرحمن بن (أبى حاتم) محمد بن إدريس بن المنذر التميمى، محدث عارف بالرجال، فقيه، أصولى متكلم، مفسر، توفى بالرى عام ٣٢٧هـ من تصانيفه تفسير القرآن الكريم والجرح والتعديل، والرد على الجهمية والمسند فى ١٢ مجلدا (تذكرة الحفاظ للذهبي: ٣/ ٤٦، معجم المؤلفين: ٥/ ١٧٠).

(٣) زيد بن ثابت هو: زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى الخزرجى، كاتب الوحى لرسول الله ﷺ استصغر يوم بدر وكانت معه راية بنى النجار يوم تبوك، من علماء الصحابة، خاصة في علم المواريث جمع القرآن في العهد البكرى والعثمانى، توفى ٤٥ هـ (الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: ١/ ٥٦١).

(٤) معاذ بن جبل هو: معاذ بن جبل بن عمرو الأنصارى الخزرجي، المقدم في علم الحلال والحرام، شهد المشاهد كلها وروى عن النبي ﷺ بعض الأحاديث، بعثه النبي ﷺ إلى اليمن، توفى بالطاعون في الشام سنة ١٨ هـ (الإصابة: ٣/ ٤٢٦).

(٥) الاتقان: ٢/ ١٠١.

ومن أمثلة التوشيح أيضا:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾ (البقرة: ٢٠).

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ (يس: ٣٧).

قال الزركشي: «فإن من كان حافظا لهذه السورة، متيقظا إلى أن مقاطع فواصلها النون المردفة، وسمع في صدر هذه الآية ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار﴾ علم أن الفاصلة ﴿مظلمون﴾ فإن من انسلخ النهار عن ليله أظلم، ما دامت تلك الحال»(١).

٣ ـ ومن أمثلة التوشيح أيضا، قوله تعالى: ﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (الملك: ١٣، ١٤).

ودلالة الصدر على ما سوف يكون عليه العجز هنا في غاية الوضوح.

النوع الرابع: الإيغال

أما الإيغال فهو: إفادة معنى زائد بعد تمام معنى الكلام(٢)

قال الزركشي معللا هذه التسمية:

«وسمي به لأن المتكلم قد تجاوز حد المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ إلى زيادة على الحد.

يقال: أوغل في الأرض الفلانية، إذا بلغ منتهاها، فهذا المتكلم إذا تم معناه، ثم تعداه بزيادة فيه، فقد أوغل»(٣).

---

(١) البرهان: ١/ ١٨٥.
(٢) انظر البرهان: ١/ ١٧٠.
(٣) البرهان: ١/ ١٨٥.

﴿ أمثلة ﴾

ومن أمثلة الإيغال في الفاصلة القرآنية ما يأتى:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾ (المائدة: ٥٠).

فالكلام تم معناه عند قوله تعالى: ﴿ **يبغون** ﴾ فجاءت الفاصلة بعده، لتزيد عن المعنى السابق معنى جديدا، ألا وهو مدح المؤمنين الموقنين، والتعريض بذم اليهود المكذبين.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون** ﴾ (يس ٢١) فالكلام تم معناه عند قوله: ﴿ **أجرا** ﴾، ثم أتى بالفاصلة ﴿ **وهم مهتدون** ﴾ مع أن الرسل مهتدون ـ لإفادة معنى زائد، ألا وهو المبالغة في حث قومه على اتباع هؤلاء المرسلين، وترغيبهم في ذلك.

٣ ـ ومنه قوله تعالى: ﴿ **إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ (الذاريات ٢٣).

فالكلام تم معناه عند قوله: ﴿ **لحق** ﴾ فأريد زيادة معنى جديد وهو تأكيد تحقيق هذا الوعد، بحيث لا يتطرق إليه الشك أبدا، فجئ بهذه الفاصلة التى احتوت على هذا التشبيه البديع.

فواصل دقيقة

الناظر في فواصل القرآن ـ خاصة النوع الأول وهو التمكين ـ يرى أن معظمها واضح المناسبة لمعنى الآية، التي ختمت بها، للدرجة التي جعلت أعرابيا حينما سمع قوله تعالى: ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله** ﴾ (المائدة: ٣٨) سمع القارئ يختمها بقوله: والله غفور رحيم، فقال: ما هذا بكلام الله، لما رأى أن المغفرة والرحمة لا تتفقان مع الأمر بقطع الأيدى، فلما أعيدت عليه الآية صحيحة ﴿ والله

عـزيز حكيم ﴾ أقر بصـحة المعنى، لاتفـاق الفاصلة مع الآية وقـال: عز فحكم فقطع، ولو غفر فرحم لما قطع[1].

ولكن هناك فواصل - وإن كانت نادرة - لا يرى فيهـا القارئ غير المتدبر مناسبـة واضحة للمعنى الذي سيقت فيه، ولكن بالتـدبر والتأمل يرى أن الفاصلة غاية في موضعها، مستقرة في مكانها.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

أ - قوله تـعالى: ﴿ **إن تعذبهم فـإنهم عبـادك وإن تغفر لـهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (المائدة: ١١٨).

فإن قوله: ﴿ **وإن تغفـر لهم** ﴾ يوهم لصاحب النـظرة العابرة أن تكون الفاصلة: فإنك أنت الغفور الرحيم.

ولكن بتدبر وإمعان نظر يتضح أنها في غاية الحسن.

وقد تعددت عبارات العلماء في كيفية تلك المناسبة.

١ - فقيل: لأنه لا يغفر لمن يستـحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد أن يرد عليه حُكمه، فهو العـزيز، لأن العزيز في صفات الله هو الغالب، من قولهم: عزه يعزه عزا إذا غلبه.

ووجب أن يوصـف بالحكيم أيضـا: لأن الحـكيم من يضع الـشئ في محله، فالله تعالى كذلك، إلا أنه قد يخـفى وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن، أي وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته.

٢ - وقيل: لم تختم بالغفور الرحيم، لأن الله تعالى قطع لهم بالعذاب في قوله تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ (النساء: ٤٨، ١١٦).

---

(١) خزانة الأدب للحموى: ٩٧، والقارئ المخطئ هو الأصمعى.

عـزيز حكيم ﴾ أقر بصـحة المعنى، لاتفـاق الفاصلة مع الآية وقـال: عز فحكم فقطع، ولو عسر فرحم لما قطع[1].

ولكن هناك فواصل - وإن كانت نادرة - لا يرى فيهـا القارئ غير المتدبر مناسبـة واضحة للمعنى الذي سيقت فيه، ولكن بالتـدبر والتأمل يرى أن الفاصلة غاية في موضعها، مستقرة في مكانها.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

أ - قوله تـعالى: ﴿ **إن تعذبهم فـإنهم عبـادك وإن تغفر لـهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ (المائدة: ١١٨).

فإن قوله: ﴿ **وإن تغفـر لهم** ﴾ يوهم لصاحب النـظرة العابرة أن تكون الفاصلة: فإنك أنت الغفور الرحيم.

ولكن بتدبر وإمعان نظر يتضح أنها في غاية الحسن.

وقد تعددت عبارات العلماء في كيفية تلك المناسبة.

١ - فقيل: لأنه لا يغفر لمن يستـحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد أن يرد عليه حكمه، فهو العـزيز، لأن العزيز في صفات الله هو الغالب، من قولهم: عزه يعزه عزا إذا غلبه.

ووجب أن يوصـف بالحكيم أيضـا: لأن الحـكيم من يضع الشئ في محله، فالله تعالى كذلك، إلا أنه قد يخـفى وجه الحكمة في بعض أفعاله فيتوهم الضعفاء أنه خارج عن الحكمة، فكان في الوصف بالحكيم احتراس حسن، أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب فلا معترض عليك لأحد في ذلك، والحكمة فيما فعلته.

٢ - وقيل: لم تختم بالغفور الرحيم، لأن الله تعالى قطع لهم بالعذاب في قوله تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به** ﴾ (النساء: ٤٨، ١١٦).

---

(١) خزانة الأدب للحموى: ٤٩٧، والقارئ المخطئ هو الأصمعى.

ولذلك وجدنا نفس التركيب بعد ذلك يختم بفاصلة غير هذه في قوله تعالى أثناء الحديث عن الإفك:

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ (النور: ١٤).

وفي قوله تعالى: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴾ (الآية: ٢٠).

(جـ) ومن الفواصل الدقيقة أيضا قوله تعالى: ﴿ وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ (الإسراء: ٤٤). فالسؤال المتبادر إلى الذهن هنا هو: ما المناسبة في ختم الآية بالحلم والمغفرة بعد الحديث عن تسبيح كل ما في الكون لله تعالى؟

والجواب: أن ذلك مراعى فيه التقدير في الآية، فإن من معنى الآية: أن كل المخلوقات تسبح لله تعالى ولا تعصيه، أما أنتم فالعصيان من عادتكم، ومع ذلك فإن الله حليم على عصيانكم غفور لذنوبكم.

﴿الفصل الخامس﴾

جمال الفاصلة

﴿الفصل الخامس﴾

جمال الفاصلة

للقرآن الكريم نظم بديع في حروفه كلها - خاصة الفاصلة - وهذا النظم البديع للحروف لم يعرفه العرب من قبل، إذ لم يكن لهم اهتمام بالحروف أكثر من تحقيقها، بإخراجها من أماكنها، متصفة بصفاتها.

أما التكييف الصوتى لهذه الحروف، بحيث تنظم حروف كل كلمة، تنظيما متآلفا، في الحركات والسكنات، والمدات والغنات، والاتصالات والسكتات، بمثل ما جاء به القرآن الكريم فلم تعرف العرب ذلك، لا في شعرها، ولا في نثرها.

فلما قرئ عليهم القرآن، ورأوا فيه تلك الحروف، تتتابع أصواتها على نسب معينة، بين مخارجها المختلفة، حتى تنتهى الآيات بفواصل، هي صورة تامة لتلك الأبعاد، التى تنتهى بما تنتهى به الجمل الموسيقية عند مؤلفيها، ومع ذلك وجدوا تلك الفاصلة متفقة تمام الاتفاق، مع آياتها صوتا ومعنى، بصورة عجيبة هي غاية في طريقة الاستهواء الصوتي.

أقول: لما قرئ على العرب هذا القرآن، بهذا النظم العجيب لحروفه، ثم لكلماته، أدركوا أنه يفوق أبلغ شعرهم، وأفخم نثرهم، لأنه جمع من الشعر غاية جماله ومتعته، ومن النثر قمة جلاله وروعته، بل فاق كل ذلك بما لا حد له ولا نهاية، ولا وصف لتك الغاية.

إن هذا النظم العجيب لتلك الحروف هو الذي أوهم من عارض القرآن - كمسيلمة - أن إعجازه يكمن فيما يطلق عليه أجراس الحروف، وأوزان الكلمات، لا غير، وذلك لا يكون إلا في الموزون، من الشعر أو السجع.

وهذا هو الذى دعا العرب إلى أن تقول عنه إنه شعر، لأنها وجدت لتوقيع تلك الحروف هزة لا تجدها إلا في الشعر، ذى الأوزان الخاصة، وما يسمونه بالموسيقى المميزة.

والحقيقة أن إيقاع الحروف القرآنية، ليس إيقاعا موسيقيا، ولا ترنيما شعريا، لأن أجراس الموسيقى متشابهة، وأنغامها متقاربة، وسرعان ما يملها السمع، ويمجها الطبع.

كما أن إيقاع الحروف القرآنية ليس ترنيما شعريا، لأن أوزان الشعر متحدة، وقوافيه متشابهة، وهذا يؤدى في النهاية إلى ما تؤدى إليه الموسيقى، من الملل والسآمة عند من يسمعونها.

أما اللحن القرآنى فهو خلاف ذلك كله، لأن قائل القرآن هو الذى خلق النفوس وأمزجتها، والقلوب وأوتارها، وأدرى بالذي يؤثر في تلك الأمزجة، ويهز هذه الأوتار.

ومن هنا كان سر جمال النظم القرآنى، خاصة تلك الكلمة التي تصل إليها كل تلك الأبعاد لتلك الأصوات التي رتبت على نسب معينة، تلك الكلمة التى تسمي بالفاصلة.

إن غاية الاستهواء الصوتي تتم عند تلك الفاصلة. حيث يشعر القارئ والسامع بجمال هذه الفاصلة لفظا ومعنى.

المقصود بجمال الفاصلة:

ونقصد بجمال الفاصلة هنا: «ذلك الإيقاع اللفظي لها، والطرب الحاصل منها، المرتبط بدقة المعنى، وتعبيرها عن المراد بحيث لا تؤدى كلمة أخرى مؤداها».

فدقة المعنى وحسن الإيقاع مرتبطان ببعضهما، ويؤثران في القلب والسمع معا.

ولا نقصد بالجمال هنا، جمال اللفظ وحسن وقعه على السمع، منفصلا عن دقة المعنى.

والناظر في سنة رسول الله ﷺ، يدرك مدى حرص الرسول ﷺ، على أن يحتفظ القارئ معطيات الفاصلة القرآنية، للتأثر والتأثير بها....

وقد مر بنا أثناء الحديث عن الطريق لمعرفة الفواصل، حديث أم سلمة ﵂، وهي تنعت لنا قراءة النبى ﷺ وكيف أنه كان يقطع قراءته آية آية، أى يقف علي كل آية.

بل إن الرسول ﷺ أمر بالتغنى بالقرآن، وحكم على من لم يمتثل لهذا الأمر بالتغنى بأنه ليس على المنهج النبوى.

جاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «زينوا القرآن بأصواتكم»(١).

كما روى في الموضع ذاته قوله ﷺ:

«ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(٢).

وكان الصحابة ﵃ على مستوي الامتثال لهذا الأمر النبوى.

أخرج البخارى ومسلم واللفظ له عن أبى موسى الأشعرى أن النبي ﷺ قال له: «لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود»(٣).

من أجل هذا اهتم علماء المسلمين ببيان رؤوس الآى، والتعريف بالوقف وأنواعه، حتى يتضح المعنى، ويحسن الإيقاع، فبينوا لنا أن الوقف أربعة أنواع، تام، وكاف، وحسن، وقبيح، فليرجع إلى كتب القراءات والتجويد من يريد المزيد.

والناظر في فاصلة الآية القرآنية، يرى أن فيها معطيات، تساعد على التأثر والتأثير.

ومن هذه المعطيات ما يلى:-

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التوحيد، باب (٥٢).

(٢) الموضع السابق، باب (٤٤).

(٣) البخارى: كتاب فضائل القرآن، باب (٣١)، ومسلم كتاب المسافرين باب (٢٣٦).

١ - أن أكثر الفواصل القرآنية ينتهي بحروف المد واللين، وهذا يؤدي إلى حسن التطريب، المتلائم مع جو الآية ومعناه.

قال سيبويه: «وإنما ألحقوا هذه المَدَّة في حروف الروي، لأن الشعر وضع للغناء والترنم فألحقوا كل حرف الذي حركته منه»[(١)].

وقال في موضع آخر: «أما إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء ما ينون وما لا ينون، لأنهم أرادوا مد الصوت»[(٢)].

وقال الزركشي: «قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك».

ثم نقل كلام سيبويه السابق، ثم قال:

«وجاء القرآن على أعذب مقطع، وأسهل موقف»[(٣)].

ولأديب العربية مصطفى صادق الرافعي في هذه النقطة كلام من نور، يبين لنا فيه جمال تلك الفواصل، وحسن إيقاعها، وعذوبة وقعها بالإضافة إلى ما تؤديه من معنى، لتؤدى الفاصلة بمضمونها وشكلها دورها المطلوب في إعجاز القرآن، ليقف الكل أمامه دهشا حائرا، لا يعرف كيف أعجز القرآن دولة العرب، أرباب الكلام، وصناع البلاغة، وأصحاب الفصاحة.

يقول عليه سحائب الرضوان متتابعه إلى ما بعد يوم الدين:

«وما هذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صورا تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت

---

(١) الكتاب: ٢/ ٢٩٩ ط بولاق.

(٢) الكتاب: ٤/ ٢٠٤ ط عالم الكتب تحقيق هارون.

(٣) البرهان: ١/ ١٦٣.

اتفاقا عجيبا، يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب.

وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقي نفسها، أو بالمد، وهو كذلك طبيعى في القرآن.

فإن لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة، وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أن ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قوى يستتبع القلقلة، أو الصفير، أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النظم الموسيقى.

وهذه هي طريقة الاستهواء الصوتى في اللغة، وأثرها طبيعي في كل نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كل نفس تفهمه، وكل نفس لا تفهمه، ثم لا يجد من النفوس على أي حال إلا الإقرار والاستجابة.

ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضربا من الكلام البليغ، الذي يطمع فيه أوفى أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدى أهل هذه اللغة العربية إلى أهل اللغات الأخرى.

ولكنه انفرد بهذا الوجه المعجز، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها، أو أبدل بغيره، أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بينا، أو ضعفا ظاهرا في نسق الوزن، وجَرْس النغمة، وفي حس السمع، وذوق اللسان، وفي انسجام العبارة، وبراعة المخرج، وتساند الحروف، وإفضاء بعضها إلى بعض، ولرأيت لذلك هُجنة في السمع، كالذى تنكره من كل مرئي لم تقع أجزاؤه على ترتيبها، ولم تتفق على طبقاتها، وخرج بعضها طولا، وبعضها عرضا، وذهب ما بقى منها إلي جهات متناكرة.

ومما انفرد به القرآن، وباين سائر الكلام، أنه لا يخلق على كثرة الرد، وطول التكرار، ولا تمل منه الإعادة.

وكلما أخذت فيه على وجهه الصحيح - فلم تخل بأدائه - رأيته غضا طريًا، وجديدا مونقا، وصادفت من نفسك له نشاطا مستأنفا، وحسا موفورا.

وهذا أمر يستوى في أصله العالم الذي يتذوق الحروف، ويستمرى تركيبها، ويمعن في لذة نفسه من ذلك، والجاهل الذي يقرأ ولا يثبت معه من الكلام إلا أصوات الحروف، وإلا ما يميزه من أجراسها، على مقدار ما يكون من صفاء حسه ورقة نفسه.

وهو لعمر الله أمر يوسعُ فكر العاقل، ويملأ صدر المفكر.

ولا نرى جهة تعليله، ولا نصحح منه تفسيرا، إلا ما قدمنا من إعجاز النظم، بخصائصه الموسيقية، وتساوُق هذه الحروف على أصول مضبوطة من بلاغة النغم، بالهمس والجهر والقلقة والصفير، والمد والغنة ونحوها، ثم اختلاف ذلك في الآيات بسطا وإيجازا، وابتداء وردا، وإفرادا وتكريرا»[1].

٢ - ومن معطيات الفاصلة أيضا التى أكسبتها جمالا شكليا وسمعيا، - إضافة لجمال مضمونها، وبلاغة ألفاظها - وجود التصدير في كثير من آياتها.

وقد تحدثنا عنه أثناء مناسبة الفاصلة لمعنى الآية، وقلنا إن معناه أن تكون لفظة الفاصلة بعينها تقدمت في أول الآية، وقد سمى العلماء ذلك: رد العجز على الصدر.

وفي رد العجز على الصدر من الأثر الجميل على السمع والقلب ما هو ظاهر، غير خاف.

---

(١) إعجاز القرآن للرافعي: ٢١٦ - ٢١٨.

يقول علي الجندي:

«ولا خفاء في أن هذه الآيات - صدورا وأعجازا - فوق ما تحمل من معاني التقرير والجزم، تترقرق فيها موسيقية عذبة مطردة، يأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إذا بلغت مداها بالفواصل، وقعت على قرار مكين، أضفى على سامعه دعة ونشوة وبشاشة، كان يتطلبها ويترقبها، فلم تخلف ظنه فيها»[1].

٣ - ومن معطيات الفواصل للجمال السمعي والمعنوي أيضا: تماثلها وتقاربها، وكل الفواصل القرآنية لا تخرج عن هذين النوعين إلا في مواضع في غاية الندرة، وقد بينا ذلك سابقا.

وهذا التماثل في حروف الروي، أو التقارب، يعطي للتغني بالقرآن أفضل أدوات التطريب، بعد أن توافرت للفواصل ختمها بحروف المد واللين.

٤ - ومن معطيات الفواصل للجمال السمعي، والمعنوي أيضا: تكرارها في بعض السور، كما في قوله تعالى: ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ من سورة القمر، وقوله تعالى: ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ من سورة الرحمن، وقوله تعالى: ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ من سورة المرسلات.

فبالإضافة إلى ما يعطينا تكرارها من معان هي غاية في الدقة، ومسايرة لسياق الآيات، يعطينا هذا التكرار أيضا إيقاعا محببا، مؤثرا، حيث يحرك العواطف، ويأسر الوجدان.

يقول علي الجندي - معلقا على تكرار آية ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وآية ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ من الناحية اللفظية:

---

(١) صور البديع: ١٨٦/٢.

« وأما من حيث اللفظ، فكأن هاتين الفاصلتين - ولله المثل الأعلى - قفلة توشيحية، أو قافية شعرية إضافية، تريح نفس القارئ من البُهر، وترشده إلى إجادة الوقف، وتلوين الصوت.

ثم هما تحكمان الربط بين الآيات السابقة واللاحقة، وتسوقان أنغامهما المتسلسلة إلى نهاية تتوحد عندها.

ولا شك أن هذه الفاصلة في سورة (الرحمن) - وهي من السور المقروءة كثيرا، قد زادت من روعة التلاوة، بما خلعت عليها من إيقاع محبب بهيج، وأمدت القراء بألوان من التنغيم المؤثر الأخاذ، نراه يستثير مشاعر السامعين، ويحدوهم بلا وعى إلى ترديد هذه الفاصلة مع القراء، في خشية غامرة، وخشوع عميق.»(١)

نماذج لجمال الفاصلة

إن كل فاصلة في القرآن بمفردها نموذج لجمال الفاصلة من ناحية اللفظ، وروعة بلاغتها من ناحيةَ المعنى.

ولقد انبرى كثير من الأدباء لدراسة الجمال الصوتى والشكلى والمعنوى للفاصلة، وكان من أبرز هؤلاء رحمهم الله تعالى، مصطفى صادق الرافعى في كتابه إعجاز القرآن، وسيد قطب في كتبه «مشاهد القيامة في القرآن» و«التصوير الفنى في القرآن» وتفسير «في ظلال القرآن».

وكلام هذين العالمين في تلك الناحية يستحق أن يفرد ببحث مستقل للدراسة، ولكننا هنا سنختار نموذجا للرافعي، وآخر لسيد قطب، عليهما رحمة الله تعالى.

وسنختار للرافعي حديثه عن فاصلة «ضيزى» من سورة النجم، والسيد قطب حديثه عن ﴿الحاقة﴾.

---

(١) صور البديع: ١٨٧/٢.

أما الرافعي فيقول:

«وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة ﴿ ضيزى ﴾ من قوله تعالى: ﴿ **تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾ (النجم: ٢٢)، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه.

ولو أردتَ اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها ـ وهي سورة النجم ـ مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل.

ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع وأدهم البنات، فقال تعالى: ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾، فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها.

وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره، من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقت له بلفظها وهيئة منطقها.

فكأن في تأليف حروفها معنى حسيا، وفي تأليف أصواتها معنى مثله في النفس، وقد نبهنا إلى ذلك في باب اللغة، من تاريخ آداب العرب.

أما الرافعي فيقول:

«وفي القرآن لفظة غريبة هي من أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة ﴿ ضيزى ﴾ من قوله تعالى: ﴿ **تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾ (النجم: ٢٢)، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه.

ولو أردتَ اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها، فإن السورة التي هي منها - وهي سورة النجم - مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل.

ثم هي في معرض الإنكار على العرب، إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع وأدهم البنات، فقال تعالى: ﴿ **ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذاً قسمة ضيزى** ﴾، فكانت غرابة اللفظة أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها.

وكانت الجملة كلها كأنها تصور في هيئة النطق بها الإنكار في الأولى والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل، ووصفت حالة المتهكم في إنكاره، من إمالة اليد والرأس بهذين المدّين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية.

والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها، ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقت له بلفظها وهيئة منطقها.

فكأن في تأليف حروفها معنى حسيا، وفي تأليف أصواتها معنى مثله في النفس، وقد نبهنا إلى ذلك في باب اللغة، من تاريخ آداب العرب.

وهكذا يبدو لنا شيءٌ مِن جمال الفاصلة القرآنية، جمالها من ناحية المضمون المعنوي، ومن ناحية الشكل اللفظي، لتؤثر في عقل المتدبر وعاطفته وقلبه تأثيرا يجعله ينطق بكل صدق، واصفا هذا القرآن بقوله: «تنزيل من رب العالمين».

المبهمات فى القرآن

المبهمات في القرآن

من الموضوعات التى اهتم بها العلماء فى ميدان القرآن تلك المبهمات التى ذكرت فيه.

والمبهم فى لغة العرب يطلق على الخفى المستغلق، الذى لا يعرف له وجه.

وعن هذه المادة يقول ابن منظور رحمه الله: «واستبهم عليه: استعجم فلم يقدر على الكلام، وطريق مبهم إذا كان خفيا لا يستبين، ويقال: ضربه فوقع مبهما: أى مغشيا عليه لا ينطق ولا يميز، ووقع فى بُهمة لا يتجه لها، واستبهم عليه الأمر إذا استغلق، وتَبَهَّم أيضا إذا ارتج عليه.

وأمر مبهم: لا مأتى له، واستبهم الأمر إذا استغلق، فهو مستبهم.

وفى حديث علىّ: كان إذا نزل به إحدى المبهمات كشفها، يريد مسألة معضلة مشكلة شاقة، سميت مبهمة لأنها أبهمت عن البيان، فلم يجعل عليها دليل، ومنه قيل لما لا ينطق بهيمة.

البُهَم جمع بُهْمة: مشكلات الأمور، وكلام مبهم: لا يعرف له وجه يؤتى منه، مأخوذ من قولهم حائط مبهم إذا لم يكن فيه باب.

قال ابن السكيت: أُبهم علىّ الأمرَ إذا لم يجعل له وجها أعرفه.

وإبهام الأمر: أن يشتبه فلا يعرف وجهه»(١).

وعلى هذا فالمراد من المبهمات فى القرآن الكريم، تلك الأشياء التى خفى علينا تعيينها على وجه القطع، من خلال الآية التى ذكرت فيها، سواء أكانت تلك الأشياء أسماء لأشخاص، أم لأمكنة، أم لأزمنة، أم لحيوانات أم لأطعمة، أم لغير ذلك.

---

(١) لسان العرب (بهم).

اعتناء بعض السلف بما كان فى بيانه فائدة

والناظر فى المبهمات فى القـرآن يرى أن منه مالا فائدة فى بيانه، ومنه ما لو بين لكان فى بيانه فائدة.

وقد رأينا بعض السلف يهتم ببيان هذا النوع الثانى:

قال عكرمة فيما ينـقله عنه الزركشى والسيوطى: «طلبت الذى خرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت، أربع عشرة سنة»[(١)].

ولكن الملاحظ على الصحـابة رضـوان الله عليـهم أنهم لم يكونوا يهتمون بمعرفة المبهمـات التى لا فائدة فى تعيينها كالبعض الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل فى سورة البقرة، أو أنواع الطعام التى نزلت على مائدة المسيح من السمـاء، أو اسم الذى مـر على القـرية وهى خـاوية على عـروشهـا، أو أنواع الطيـور الأربعة التى ذبحـها إبـراهيم عليه السـلام وأحياها الله تعالى ونحوها.

والسر فى ذلك أنهم لم يكونوا يضيعون أوقاتهم فى مثل تلك الأمور التى لا تقدم ولا تؤخر، بل يعتبر البحـث عنها من قبيل تضييع الأوقات فيما لا طائل وراءه.

تنبيـــــــه

إذا جاز لنا البحث فى بيان المراد من بعض المبهمات فإن هنالك أمورا لا يجوز لنا أن نبحث فيها، كتلك الأمور التى استأثر الله تعالى بعلمها.

قال الزركشى رحمه الله: «لا يبحث فيمـا أخبر الله باستئثاره بعلمه، كقوله: ﴿وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾[(٢)]، والعجب ممن تجرأ وقال: قيل إنهم قريظة، وقيل: من الجن»[(٣)].

(١) البرهان: ١, ٢٤٤، والإتقان: ٢/ ١٤٥.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) البرهان: ١/ ٢٤٤.

الطريق لمعرفة المبهمات

بيان المبهمات فى القرآن إنما هو تفسير للقرآن، وتفسير القرآن إنما هو ترجمة لمراد الله من كلامه، وبناء عليه، فلا يجوز لأحد أن يعين تلك المبهمات إلا من خلال النقل الصحيح عن طريق القرآن أو السنة، أو الصحابة الذين شاهدوا الوحى وعاصروا التنزيل.

يقول السيوطى رحمه الله: «اعلم أن علم المبهمات مرجعه النقل المحض، لا مجال للرأى فيه»(١).

أسباب الإبهام فى القرآن

للإبهام فى القرآن أسباب، نقتصر منها على ما يأتى:

١ ـ الاستغناء ببيانه فى موضع آخر، كقوله تعالى فى سورة الفاتحة: ﴿الذين أنعمت عليهم﴾ فقد بين فى سورة النساء بقوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾.

وكقوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ فى سورة البقرة، بينه قوله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

٢ ـ أن يتعين لاشتهاره.

كقوله تعالى: ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ البقرة: ٣٥، والأعراف: ١٩.

ولم يقل حواء لأنه ليس له غيرها.

وكقوله تعالى: ﴿وقال الذى اشتراه من مصر﴾ يوسف: ٢١، والمراد عزيز مصر.

٣ ـ قصد الستر عليه، ليكون أبلغ فى استعطافه، ولهذا كان من

---

(١) الإتقان: ٢/ ١٤٥.

(٢) انظر البرهان: ١/ ٢٤٤ وما بعدها، والاتقان: ٢/ ١٤٥.

هديه ﷺ إذا أراد توجيه أحد إلى بيــان خطئه يقول، ما بال رجال، أو ما بال أقوام يقولون كذا، أو يفعلون كذا.

مثــال ذلك قوله تعالى: ﴿أم تريدون أن تســألوا رسولكم كمــا سئل موسى من قبل﴾ البقرة: ١٠٨.

قيل المراد به رافع بن حريملة ووهب بن زيد، فقد قالا للنبى ﷺ: «يامحمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك» فأنزل الله هذه الآية[1].

٤ ـ ألا يكون فى تعيينه كـبير فائدة، وذلك موجـود بكثرة فى القران الكريم، كبعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل، واسم الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، والطيور الأربعة التى ذبحها إبراهيم عليه السلام، وأسماء أهل الكهف، ومكان ذلك الكهف، وغير ذلك.

٥ ـ التنبيه على أن المراد عموم اللفظ، لا خصوصه، فلو عيِّن ما فهم منه هذا التعميم.

كقوله تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله﴾ النساء، ١٠٠.

هو ضمرة بــن العيص، وكان من المستـضعفين بمكة، وكــان مريضا، فلما نزلت آية الهجرة خرج منها فمات بالتنعيم.

وكقوله تعالى: ﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾ المائدة: ٤.

قيل نزلت فى عدى بن حاتم كان له كلاب سماها بأسماء.

٦ ـ تعظيم المبهم، بالوصف الكامل دون الاسم.

---

(١) الأثر اخرجـه ابن جرير فى تفسـير هذه الآية من رواية ابن عبـاس، وابن أبى حاتم عن ابن عباس ايضا (الدر المنثور: ١٠٧/١)، وابن إسحاق (السـيرة النبوية لابن هشام ٥٤٨/٢).

كقوله تعالى: ﴿ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة﴾ النور: ٢٢.

وقوله تعالى: ﴿والذى جاء بالصدق وصدق به﴾ الزمر: ٣٣.

وقوله تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ التوبة: ٤٠.

وقوله تعالى: ﴿وسيجنبها الأتقى، الذى يؤتى ماله يتزكى﴾ الليل: ١٧, ١٨.

فإن المراد بالمبهم فى كل هذه الآيات هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

٧ ـ تحقير المبهم بالوصف الناقص:

كقوله تعالى: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ الحجرات: ٦، والمراد به الوليد بن عقبة بن أبى معيط.

وكقوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ الكوثر: ٣، فإن المراد به هو العاص بن وائل، وقيل عقبة بن أبى معيط، وقيل كعب بن الأشرف، وقيل أبو لهب، وقيل أبو جهل[1].

وأيا ما كان المراد فالمقصود تحقيره بهذه الصفة التى ذكر بها، فمبغض الرسول ﷺ هو الأقل الأذل المنقطع ذكره، وإذا ذكر فلا يذكر إلا بسوء.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٥٥٩,٤، ط الحلبى.

أقسام المبهم

تنقسم المبهمات فى القرآن، إلى عدة أقسام، أهمها ما يأتى:

١ ـ مبهمات الأشخاص.

٢ ـ مبهمات الأزمنة.

٣ ـ مبهمات الأمكنة.

٤ ـ مبهمات أخرى.

أولا: مبهمات الأشخاص

نستطيع أن نقسم مبهمات الأشخاص إلى قسمين:

١ ـ القسم الأول: ما أبهم من رجل أو امرأة، أو ملك، مفرد أو مثنى أو مجموع، عرف أسماء كلهم.

أو (مَنْ) أو (الذى) إذا لم يرد به العموم.

وهذه بعض الأمثلة:

أمثلة لرجال عرفت أسماؤهم

١ ـ قوله تعالى: ﴿إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ البقرة: ٣٠، هو آدم.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وابعث فيهم رسولا منهم﴾ البقرة ١٢٩، هو نبينا محمد ﷺ.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن﴾ التوبة: ٤٠، هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

٤ ـ وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿أسكنت من ذريتى﴾ إبراهيم: ٣٧، هو إسماعيل عليه السلام.

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لفتاه﴾ الكهف: ٦٠، هو

يوشع بن نون.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿فناداها من تحتها﴾ مريم: ٢٤، هو عيسى عليه السلام.

٧ ـ وقوله تعالى: ﴿أهل البيت﴾ الأحزاب: ٣٢، على وفاطمة والحسن والحسين.

٨ ـ وقوله تعالى: ﴿وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله﴾ الأحقاف: ١٠، هو عبدالله بن سلام.

٩ ـ وقوله تعالى: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ الذاريات: ٢٨، هو إسحاق.

١٠ ـ وقوله تعالى: ﴿قول التى تجادلك فى زوجها﴾ المجادلة: ١، هو أوس بن الصامت.

١١ ـ وقوله تعالى: ﴿سأل سائل﴾ المعارج: ١، هو النضر بن الحارث.

١٢ ـ وقوله تعالى: ﴿أن جاءه الأعمى﴾ عبس: ٢، هو عبدالله ابن أم مكتوم.

١٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها﴾ الشمس: ١٣، هو صالح عليه السلام.

أمثلة لملائكة عرفت أسماؤهم

١ ـ قوله تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين﴾ الشعراء: ١٩٣، هو جبريل عليه السلام.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ القدر: ٤، هو جبريل عليه السلام.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ التكوير: ١٩، هو

جبر[يل] ع[ليه] السلام.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿يوم ينادى المناد من مكان قريب﴾ ق: ٤١، هو إسرافيل.

أمثلة لمبهمات من النساء عرفت أسماؤهن

١ ـ قوله تعالى: ﴿أمسك عليك زوجك﴾ الأحزاب: ٣٧، هى زينب بنت جحش.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن﴾ الأحزاب: ٢٨، كان تحته ﷺ يومئذ تسع نسوة، عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفية، وميمونة، وزينب بنت جحش، وجويرية.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾ التحريم: ١، مارية القبطية.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا﴾ هى حفصة، ﴿فلما نبأت به﴾ أخبرت عائشة ﴿إن تتوبا﴾ ﴿وإن تظاهرا﴾ هما عائشة وحفصة، التحريم: ٣, ٤.

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿قول التى تجادلك﴾ المجادلة: ١، هى خَوْلة بنت ثعلبة.

٦ ـ وقوله تعالى: ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ المسد: ٤، هى أم جميل، العوراء بنت حرب بن أمية.

أمثلة لـ«مَنْ» أو «الذى» أو «الذين»
لم يرد بها العموم

ـ قوله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى﴾ التوبة: ٤٩، هو الجد بن قيس.

ـ قوله تعالى: ﴿ومنهم من يلمـزك فى الصدقات﴾ التوبة: ٥٨، هو ذو الخويصرة.

ـ قوله تعالى: ﴿ومن يـخرج من بيته مهـاجرا إلى الله ورسوله﴾ النساء: ١٠٠، هو ضمرة بن العيص.

ـ قوله تعـالى: ﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعـمت عليه﴾ الأحزاب: ٣٧، هو زيد بن حارثة.

ـ قوله تعالى: ﴿والذى جاء بالصدق وصدق به﴾ الرسول ﷺ وأبو بكر، «الزمر: ٣٣».

ـ قـوله تعـالى: ﴿أرأيت الذى ينهى، عـبـدا إذا صلى﴾ العلق: ٩و١٠، هو أبوجهل، والعبد هو النبى.

ـ قوله تـعالى: ﴿وسيـجنبهـا الأتقى، الذى يؤتى ماله يـتزكى﴾ الليل: ١٧و١٨، هو أبو بكر.

ـ قوله تعـالى: ﴿إن الذين جاءوا بالإفـك عصبـة منكم﴾ النور: ١١، هم: مسطح وعبدالله بن حـسان، وحمنة بنت جحش ﴿والذى تولى كبره منهم﴾ هو عبدالله بن أبى بن سلول.

القسم الثانى

مبهمات الجموع الذين عرف أسماء بعضهم[1]

١ ـ ﴿يسألونك عن الأهلة﴾ البقـرة: ١٨٩، سمى منهم معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنم.

٢ ـ ﴿يسألـونك عن الخمـر﴾ البقرة: ٢١٩، سـمى منهم عـمر ومعاذ وحمزة.

٣ ـ ﴿يسألونك عن اليتامى﴾ البـقرة: ٢٢٠، سمى منهم عبدالله

(١) انظر الإتقان للسيوطى: ١٤٨/٢ ـ ١٥٠.

ابن رواحة.

٤ - ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ آل عمران: ١٥٤، سمى من القائلين عبدالله بن أبى، ومعتب بن قشير.

٥ - ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله﴾ آل عمران: ١٦٧، القائل والد جابر بن عبدالله الأنصارى، والمقول لهم عبدالله بن أبى وأصحابه.

٦ - ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ آل عمران: ١٧٣، سمى من القائلين نعيم بن مسعود الأشجعى.

٧ - ﴿إلا المستضعفين﴾ النساء: ٩٨، سمى منهم ابن عباس وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث، وعياش بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام.

٨ - ﴿ويستفتونك فى النساء﴾ النساء: ١٢٧، سمى منهم خولة بنت حكيم.

٩ - ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ التوبة: ٧٩، سمى من المطوعين: عبدالرحمن بن عوف وعاصم بن عدى، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم: أبو عقيل ورفاعة بن سعد.

١٠ - ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات﴾ الحجرات: ٤، سمى منهم الأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وعيينة بن حصن، وعمرو بن الأهتم.

ثانيا: مبهمات الأزمنة

ومن مبهمات الأزمنة التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم ما يأتى:

١ - ﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ البقرة: ٥٢، فهذه

الأربعون مبهمة لم يرد تعيين لها من كتاب أو سنة، وإن كان بعضهم ذكر أنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة.

٢ ـ ﴿واذكروا الله فى أيام معدودات﴾ البقرة: ٢٠٣، المراد بها كما وضحتها السنة أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر مباشرة، أى أيام الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة.

قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» كما فى صحيح مسلم، ومسند أحمد ٤/ ١٥٣.

٣ ـ ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى﴾ المائدة: ، المراد باليوم الذى نزلت فيه هذه الآية يوم عرفة فى حجة الوداع، فقد جاء فى الحديث الذى فى الصحيحين وغيرهما أن رجلا من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب فقال له: ياأمير المؤمنين: إنكم تقرؤون آية فى كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: وأى آية؟ قال قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى﴾ فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التى نزلت فيها على رسول الله ﷺ نزلت عشية عرفة فى يوم جمعة[1].

٤ ـ ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم﴾ التوبة: ٣٦، فالأربعة بينتها السنة بقوله ﷺ فى خطبة حجة الوداع: «السنة اثنا عشر شهرا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان»[2].

---

(١) صحيح البخارى، تفسير سورة المائدة، ومسلم كتاب التفسير ٨/ ٢٣٨، ومسند أحمد: ١/ ٢٨، واللفظ له.

(٢) صحيح البخارى، تفسير سورة التوبة، ومسلم: كتاب القسامة باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، ومسند أحمد: ٥/ ٣٧.

٥ _ ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ التوبة: ١١٧، فالمراد من ساعة العسرة هنا غزوة تبوك.

قال ابن كثير: «قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر فى سنة مجدبة، وحر شديد، وعسر من الزاد والماء.

قال قتادة: خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لَهَبان الحر، على ما يعلم الله من الجهد، أصابهم فيها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم»(١).

ثالثا: مبهمات الأمكنة

من مبهمات الأمكنة فى القرآن ما يأتى:

١ _ ﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ البقرة: ٣٦،

أبهم الله تعالى الأماكن التى هبط فيها كل من آدم وحواء وإبليس، لعدم وجود فائدة من تعيينها.

ورغم ذلك فإن كثيرا من المفسرين، اجتهدوا فى تعيينها، وليس لهم مستند فى ذلك إلا مصادر إسرائيلية.

يقول ابن كثير رحمه الله: «وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الاسرائيليات والله أعلم بصحتها، ولو كان فى تعيين تلك البقاع فائدة تعود على

(١) تفسير بن كثير: ٤/١٦٤، ١٦٥، ط الشعب.

المكلفين فى أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى فى كتابه، أو رسوله ﷺ»[1].

٢ ـ ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر﴾ الأعراف: ١٦٢.

أبهم الله تعالى هذه القرية التى كانت على شاطىء البحر، ومع ذلك فقد وجدنا أقوالا متضاربة للعلماء فيها، دون مستند نقلى.

يقول ابن جرير: «والصواب من القول فى ذلك أن يقال: هى قرية حاضرة البحر، وجائز أن تكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقنا، لأن كل ذلك حاضرة البحر، ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأى ذلك، والاختلاف فيه على ما وصفت، ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعاينه، إلا بخبر يوجب العلم، ولا خبر كذلك فى ذلك»[2].

٣ ـ ومثل تلك القرية القرية الخاوية على عروشها المذكورة فى قوله تعالى: ﴿أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها﴾ فى سورة البقرة: الآية: ٢٥٩.

يقول محمد جواد مغنية صاحب التفسير الكاشف: «اختلفوا فى القرية هل هى بيت المقدس أو غيره، ولا دليل على التعيين ولا للقائلين به إلا الإسرائيليات»[3].

ويقول المراغى: «وقد أبهم الله القرية، فلم يذكر مكانها ولا المار عليها، بل اقتصر على موضوع العبرة، وما به تقوم الحجة، ولم يعن بما فوق ذلك حتى لا يشغل القارىء أو السامع»[4].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٥.

(٢) تفسير ابن جرير الطبرى (جامع البيان): ١٣/ ١٨٢.

(٣) التفسير الكاشف: ١/ ٤٠٦

(٤) تفسير المراغى للشيخ أحمد مصطفى المراغى: ٣/ ٢٢.

٤ - ﴿وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها﴾.

يقول ابن كثير: «يعنى مكة، كقوله: ﴿وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك﴾[(١)] محمد: ١٣.

٥ - ﴿واستوت على الجودى﴾ هود: ٤٤.

قال المفسرون هو جبل، ثم اختلفوا فى تعيينه على أقوال فمن قائل هو بالموصل، ومن قائل هو الطور، ومن قائل هو جبل بآمد، إلى غير ذلك، مما لا دليل عليه، حيث لا فائدة من تعيينه.

٦ - ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف﴾ الكهف: ٩.

اختلف المفسرون فى الكهف هذا، فى أى مكان كان، وتعددت أقوالهم، فذهب بعضهم إلى أنه كان ببلاد الروم، وذهب آخرون إلى أنه ببلاد الأندلس، وآخرون إلى أنه ببلاد الشام، وآخرون إلى أنه بالبلقان، وآخرون إلى أنه قريب من نينوى، وغير ذلك ولا دليل على ذلك، حيث لا فائدة من تحديده.

٧ - ﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾ الكهف: ٣٢، لم يرد من القرآن أو السنة ما يبين لنا موضع هاتين الجنتين، لعدم وجود فائدة من هذا التعيين.

قال أبو حيان: «وأبهم تعالى مكان الجنتين، إذ لا يتعلق بتعيينه كبير فائدة»[(٢)].

٨ - ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة﴾ الأعراف: ١٧١.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣١٤ فى تفسير الآية ٧٥ من سورة النساء.

(٢) البحر المحيط: ٦/ ١٢٤.

المراد بالجبل هنا هو الطور، كما وضحه قوله تعالى: ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ النساء: ١٥٤.

رابعا: مبهمات أخرى

وإلى جانب مبهمات الأشخاص والأزمنة والأمكنة فى القرآن نجد مبهمات أخرى لم يحددها لنا القرآن، أو السنة لعدم وجود فائدة فى ذلك.

ومن ذلك:

١ ـ بعض البقرة الذى ضرب به قتيل بنى إسرائيل.

٢ ـ الطيور التى ذبحها الخليل عليه السلام، ثم أحياها الله تعالى.

٣ ـ أنواع الطعام، التى كانت على مائدة المسيح عليه السلام.

٤ ـ اسم الشجرة التى حرم على آدم وزوجه الأكل منها، والشجرة التى اتخذ منها موسى عصاه.

وغير ذلك من المبهمات التى لا تمت بصلة قريبة أو بعيدة من الأهداف القرآنية السامية.

الوجوه والنظائر

الوجوه والنظائر

من موضوعات علوم القرآن التى اهتم بها العلماء قديما وحديثا موضوع «الوجوه والنظائر».

والوجوه جمع وجه، والمراد بالوجه هنا معنى خاص، فيقال هذا اللفظ يطلق على عدة وجوه، أى على عدة معان، كل معنى يخالف المعنى الآخر كلفظ اليمين، يطلق على الجارحة، وعلى القدرة، وعلى القسم.

وقد ورد عن أبى الدرداء ﷺ من قوله موقوفا، كما أخرجه ابن سعد وغيره ـ كما قال السيوطى ـ: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة»[1].

قال ابن منظور: «أى يرى له معانى يحتملها»[2].

قال السيوطى: «وقد فسره بعضهم بأن المراد أن يرى اللفظ الواحد يحتمل معانى متعددة فيحمله عليها إذا كانت غير متضادة، ولا يقتصر به على معنى واحد، وأشار آخرون إلى أن المراد به استعمال الإشارات الباطنة وعدم الاقتصار على التفسير الظاهر.

وقد أخرجه ابن عساكر فى تاريخه من طريق حماد بن زيد عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى الدرداء قال: «إنك لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوها».

قال حماد: فقلت لأيوب: «أرأيت قوله: «حتى ترى للقرآن وجوها» أهو أن ترى له وجوها فتهاب الإقدام عليه؟ قال: نعم، هو هذا.

وأخرج ابن سعد من طريق عكرمة عن ابن عباس أن على بن أبى

---

(١) الاتقان: ١/١٤١.

(٢) لسان العرب: مادة (وجه).

طالب أرسله إلى الخوارج فقال: اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة.

وأخرج من وجه آخر أن ابن عباس قال له ياأمير المؤمنين: «فأنا أعلم بكتاب الله منهم، فى بيوتنا نزل، قال: صدقت، ولكن القرآن حمال ذو وجوه، تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن، فإنهم لن يجدوا عنها محيصا، فخرج إليهم، فخاصمهم بالسنن، فلم تبق بأيديهم حجة»[1].

وعلى ذلك فالمراد من الوجه فى موضوع «الوجوه والنظائر»: اللفظ المشترك الذى يستعمل فى عدة معان، كلفظ الأُمَّة، ولفظ «العين» ونحوهما، أو بتعبير آخر: هو ما اتفق لفظه واختلف معناه، أو ما اتفق مبناه واختلف معناه.

أما لفظ النظائر: فهو جمع نظيرة، يقال للمؤنث نظيرة، وللمذكر نظير.

والنظير: هو المِثْل المساوى، يقال هذا نظير هذا أى مثله ومساويه.

جاء فى لسان العرب لابن منظور: «والنظير: المِثْل، وقيل: المثل فى كل شىء، وفلان نظيرك أى مثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء».

وحكى أبو عبيد: النَّظْر والنظير بمعنى، مثل النّد والنديد.

قال الفراء: يقال نظيرة قومه، ونظورة قومه للذى يُنظر إليه منهم، ويجمعان على نظائر، وجمع النظير نظراء، والأنثى نظيرة، والجمع نظائر، فى الكلام والأشياء كلها.

وفى حديث ابن مسعود: «لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقوم بها، عشرين سورة من المفصل» يعنى سور المفصل، سميت نظائر لاشتباه بعضها ببعض فى الطول.

---

(١) الإتقان: ١/١٤١، ١٤٢.

إلى أن قال ابن منظور: «والنظائر جمع نظيرة، وهى المثل والشبه فى الأشكال والأخلاق والأفعال والأقوال.

ويقال: ناظرت فلانا أى صرت نظيرا له فى المخاطبة، وناظرت فلانا بفلان، أى جعلته نظيرا له»(١).

وبناء على ما سبق فى معنى النظائر: فإننا نستطيع أن نقول إن المراد بالنظائر هى تلك الكلمات المتماثلة فى القرآن لفظا ومعنى، كما يقول العلماء كل ما فى القرآن من كذا فهو بمعنى كذا، مثل: المباشرة فى كل كتاب الله الجماع، وكل شىء فى القرآن (إفك) فهو كذب، وكل شىء فى القرآن (فاطر) فهو خالق.

قال الزركشى والسيوطى: «والنظائر كالألفاظ المتواطئة»(٢).

والمراد بالألفاظ المتواطئة فى كلامهما: الألفاظ المتفقة فى الحروف والمعنى، أى التى تتكرر فى أكثر من موضع ويكون معناها فى كل موضع واحدا.

قال ابن منظور: «واطأ بعضه بعضا، أى وافق، يقال واطأنى فلان على الأمر إذا وافقك عليه».

والإيطاء فى الشعر هو: إعادة القافية مرتين.

قال الليث: «أخذ من المواطأة وهى الموافقة على شىء واحد».

وقال ابن منظور أيضا: «وواطأ الشاعر فى الشعر وأوطأ فيه وأوطأه إذا اتفقت له قافيتان على كلمة واحدة، معناهما واحد، فإن اتفق اللفظ واختلف المعنى فليس بإيطاء»(٣).

---

(١) لسان العرب (نظر).

(٢) البرهان: ١/١٩٣، ط دار المعرفة، والاتقان: ١/ ١٤١.

(٣) لسان العرب: (وطأ).

وإذا كان العلماء يقولون إن المراد بالوجوه اللفظ المشترك الذى يستعمل فى عدة معان، والمراد بالنظائر الكلمات المتواطئة، أى المتماثلة لفظا ومعنى.

فإننا وجدنا أبا الفرج بن الجوزى يذهب مذهبا آخر فى المراد بالوجوه والنظائر.

حيث يقول فى مقدمة كتابه: «نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائر» ما نصه:

«واعلم أن معنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة واحدة، ذكرت فى مواضع من القرآن على لفظ واحد، وحركة واحدة، وأريدَ بكل مكان معنى غير الآخر.

فلفظ كل كلمة ذكرت فى موضع نظير للفظ الكلمة المذكورة فى الموضع الآخر.

وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الآخر هو الوجوه.

فإذًا النظائر: اسم للألفاظ.

والوجوه: اسم للمعانى.

فهذا الأصل فى وضع كتب الوجوه والنظائر»[1] انتهى.

وقد ضعف الزركشى والسيوطى هذا الرأى:

قال الزركشى: «وقيل النظائر فى اللفظ، والوجوه فى المعانى، وضُعِّف، لأنه لو أريد هذا لكان الجمع فى الألفاظ المشتركة، وهم يذكرون فى تلك الكتب اللفظ الذى معناه لأقسام، والنظائر نوعا آخر، كالأمثال»[2].

وقد ذكر السيوطى كلام الزركشى بالحرف الواحد فى إتقانه[3].

---

(١) نزهة الأعين النواظر: ٨٣، ط مؤسسة الرسالة.

(٢) البرهان: ١/ ١٩٣، ط دار المعرفة.

(٣) الإتقان: ١/ ١٤١.

المشترك اللفظي والوجوه والنظائر

الناظر في كتب اللغة يرى أن المشترك اللفظي يطلق على اللفظ الواحد الذي يدل على أكثر من معنى.

يقول ابن فارس في فقه اللغة - كما ينقل عنه السيوطي في كتابه المزهر: «هو اللفظ الدال على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة»[1].

وهذا المعنى للمشترك اللفظي هو ما يريده العلماء من مصطلح «الوجوه والنظائر» فالوجوه - كما سبق بيانه - ما اتفق لفظه واختلف معناه، أو بعبارة أخرى ما اتفق مبناه واختلف معناه.

تحرج العلماء من مصطلح المشترك اللفظي في مجال القرآن

ولكن الملاحظ على من ألف في هذا الموضوع في الميدان القرآني أنهم يستخدمون مصطلح «الوجوه والنظائر» ولا يستخدمون مصطلح «المشترك اللفظي».

فهم يتحرجون من استخدام مصطلح سالمشترك اللفظي».

فما السبب في ذلك؟

إن السبب في ذلك يرجع الى معنى كلمة (لَفْظ) في اللغة، ولنستمع الى ابن منظور وهو يحدثنا عنها في لسان العرب فيقول:

«اللفظ أن ترمى بشيء كان في فيك، والفعل: لَفَظَ الشيءَ، يقال لَفَظْت الشيءَ من فمي ألفظه لفظا، رميته، وذلك الشيء لُفاظة.

قال ابن برى: واسم ذلك الملفوظ: لُفَاظة، ولُفاظ، ولفيظ، ولَفْظ».

---

(١) المزهر للسيوطي: ١/ ٣٦٩و ط الحلبي.

٢٤

وقال ابن سيده: لفظ الشيءَ وبالشيءِ يَلْفِظ لَفْظا، فهو ملفوظ، ولَفِيظ: رمى: ولفظ الرجلُ: مات.

ولفظ بالشيء يلفظ لفظا: تكلم، وفى التنزيل العزيز ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ ق: ١٨.

واللفظ واحد الألفاظ، وهو فى الأصل مصدر»[١].

من هذه الإطلاقات اللغوية يتبين لنا أن اللفظ يطلق على الشيء الملفوظ أى المرمى، لهذا رأى العلماء زيادة فى التأدب مع كلام الله تعالى أن يقال كلام الله المتلو أو المقروء، ولا يقال الملفوظ.

يقول أبو الحسن الأشعرى فى كتابه الإبانة عن أصول الديانة: «فإن قال قائل: حدثونا عن اللفظ بالقرآن كيف تقولون فيه؟ قيل له: القرآن يقرأ فى الحقيقة ويتلى، ولا يجوز أن يقال: يُلْفظ به، لأن القائل لا يجوز له أن يقول: إن كلام الله ملفوظ به، لأن العرب إذا قال قائلهم: لفظت باللقمة من فمى فمعناه: رميت بها، وكلام الله لا يقال: يلفظ به، وإنما يقال: يقرأ، ويتلى، ويكتب، ويحفظ»[٢].

من أجل هذا وجدنا العلماء فى ميدان القرآن يضعون للمشترك اللفظى عناوين أخرى غير هذا الاسم مثل الوجوه والنظائر، ونحو ذلك.

إنكار بعض العلماء وجود المشترك اللفظى

ذهب بعض العلماء كابن دُرُسْتَويه إلى إنكار وجود المشترك اللفظى فى لغة العرب، لأن اللغة إنما وضعت للإبانة عن المعانى بينما المشترك اللفظى يلبس على الناس المعانى المقصودة من الألفاظ[٣]، ويرى ابن درستويه أنه إذا وجد اختلاف فى المعنى فإنما يرجع إلى تصريف الكلمة،

---

(١) لسان العرب (لفظ)

(٢) الإبانة عن أصول ١٠١ ط دار الأنصار، تحقيق د. فوقية -

(٣) انظر المزهر للسيوطى ٣٨٥/١.

فهى المفتاح الأوحد للتفرقه بين المعانى، فمهما تغيرت المعانى فإنها ترجع إلى معنى واحد، وبالتالى لا يوجد مشترك لفظى.

يقول ابن درستويه عن لفظة (وجد) واختلاف معانيها: «هذه اللفظة من أقوى حجج من يزعم أن من كلام العرب ما يتفق لفظه ويختلف معناه، لأن سيبويه ذكره فى أول كتابه، وجعله من الأصول المتقدمة، فظن من لم يتأمل المعاني، ولم يتحقق الحقائق أن هذا لفظ واحد، جاء لمعان مختلفة، وإنما هذه المعانى كلها شيء واحد، وهو إصابة الشيء، خيرا كان أو شرا، ولكن فرقوا بين المصادر، لأن المفعولات كانت مختلفة، فجعل الفرق فى المصادر بأنها أيضا مفعولة، والمصادر كثيرة التصاريف جدا، وأمثلتها كثيرة مختلفة، وقياسها غامض، وعللها خفية، والمفتشون عنها قليل، والصبر عليها معدوم، فلذلك توهم أهل اللغة أنها تأتى على غير قياس، لأنهم لم يضبطوا قياسها، ولم يقفوا على غَوْرها»[1].

الرد على المنكرين

ويمكننا أن نرد على منكرى المشترك اللفظى فى اللغة بما يأتى:

١ ـ الآثار المروية عن السلف فى ذلك.

ومن ذلك ما ذكرناه من قول أبى الدرداء ﵁: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها كثيرة».

وقول على بن أبى طالب لعبد الله بن عباس ﵄ لما أرسله لمخاصمة الخوارج «اذهب إليهم فخاصمهم، ولا تحاجهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة».

٢ ـ الوجود الفعلى للألفاظ المشتركة فى اللغة:

قال أبو الحسين البصرى: «أطلق أهل اللغة اسم القرء على الطهر

---

(١) المزهر: ١/ ٣٨٤.

والحيض، وهما ضدان، فدل على وقوع الاسم لمشترك فى اللغة»[1].

ويقول السيوطى: والأكثرون على أنه واقع، لنقل أهل اللغة ذلك فى كثير من الألفاظ»[2]. بل إن الشوكانى ينقل الإجماع عن أهل اللغة فى أن بعض الألفاظ تستعمل بين معنيين من غير ترجيح.

يقول رحمه الله: «وبعد هذا كله فلا يخفاك أن المشترك موجود فى هذه اللغة العربية، لا ينكر ذلك إلا مكابر، كالقرء، فإنه مشترك بين الطهر والحيض، مستعمل فيهما، من غير ترجيح، وهو معنى الاشتراك، وهذا لا خلاف فيه بين أهل اللغة»[3].

٣ ـ طبيعة اللغة العربية تقتضى وجود المشترك اللفظى.

ويتضح ذلك فى كل من الحروف، والأفعال، والأسماء.

أما الحروف: فقد وجدنا النحاة يجعلون لكل حرف عدة معان، وألفت فى ذلك مصنفات مستقلة، مثل:

(أ) الجنى الدانى فى حروف المعانى، لابن أم قاسم.

(ب) الأزهية فى علم الحروف، للهروى.

(جـ) رصف المبانى فى حروف المعانى، للمالقى.

أما الأفعال: فنجد فيها اشتراكا بين الخبر والدعاء، فى الأفعال الماضية، كقولنا عمر رضى الله عنه، وكذلك الأفعال المضارعة، نجد فيها اشتراكا بين الحال والاستقبال.

يقول السيوطى: «وذهب بعضهم إلى أن الاشتراك أغلب، لأن الحروف بأسرها مشتركة بشهادة النحاة، والأفعال الماضية مشتركة بين

(١) الإحكام فى أصول الأحكام للآمدى: ١/ ٢٠، ط المكتب الإسلامى.

(٢) المزهر للسيوطى: ١/٣٦٩.

(٣) ارشاد الفحول: ١/ ٩٠، ط دار السلام.

الخبر والدعاء، والمضارع كذلك، وهو مشترك بين الحال والاستقبال»(١).

أما الأسماء فنجد فيها المشترك بكثرة، كلفظ «العين» و«اليمين» و«القرء» وغيرها، وسيأتى لذلك أمثلة عديدة قريبا إن شاء الله تعالى.

قال السيوطى: «والأسماء كثير فيها الاشتراك»(٢).

٤ ـ العقل يقول بجواز الاشتراك فى اللغة، بل أوجبه بعضهم عقلا.

يقول الآمدى فى «الإحكام»: «اختلف الناس فى اللفظ المشترك، هل له وجود فى اللغة؟ فأثبته قوم ونفاه آخرون، والمختار جوازه ووقوعه.

أما الجواز العقلى فهو أنه لا يمتنع عقلا أن يضع واحد من أهل اللغة لفظا واحدا على معنيين مختلفين بالوضع الأول على طريق البدل، ويوافقه عليه الباقون، أو أن يتفق وضع إحدى القبيلتين للاسم على معنى حقيقة، ووضع الأخرى له بإزاء معنى آخر، من غير شعور لكل واحدة بما وضعته الأخرى، ثم يشتهر الوضعان، ويخفى سببه وهو الأشبه، ولو قدر ذلك لما لزم من فرض وقوعه محال عقلا، كيف وأن وضع اللفظ تابع لغرض الواضع، والواضع كما أنه قد يقصد تعريف الشىء لغيره مفصلا، فقد يقصد تعريفه مجملا غير مفصل، إما لأنه علمه كذلك ولم يعلمه مفصلا، أو لمحذور يتعلق بالتفصيل دون الإجمال، فلا يبعد لهذه الفائدة منهم وضع لفظ يدل عليه من غير تفصيل»(٣).

ويقول السيوطى: ومن الناس من أوجب وقوعه، قال: لأن المعانى غير متناهية، والألفاظ متناهية، فإذا وزع لزم الاشتراك»(٤).

٥ ـ أما قولهم إن اللغة إنما وضعت للإبانة عن المعانى بينما المشترك

---

(١) المزهر: ١/٣٦٩.
(٢) الموضع السابق.
(٣) الإحكام: ١/١٩.
(٤) المزهر: ١/٣٦٩.

اللفظى يلبس على الناس المعانى المقصودة من الألفاظ، فيرد عليه بأن السياق هو الذى يوضح أى المعانى هو المراد، وبالتالى فلا لبس حينئذ، لأن المتكلم لا ينطق باللفظة وحدها فقط وإنما ينطقها ضمن كلام آخر، وسياق الكلام يحدد المعنى المراد دون غيره.

ويتضح ذلك من خلال العنصر التالى:

السياق هو المميز للمراد من المشترك اللفظى

وإذا كانت هناك ألفاظ تدل على معان متعددة، فإن السياق هو الذى يحدد لنا أى المعانى هو المراد.

والمراد من السياق علاقة اللفظ المشترك مع ما قبله وما بعده من الكلمات.

فالمعنى لا يتضح ولا يتحدد إلا إذا وضعت الكلمة فى سياقات مختلفة.

وانظر مثلا إلى ثلاثة أبيات فقط للخليل، قافيتها واحدة، استوى فيها اللفظ، واختلف فيها المعنى، وهذا الاختلاف أبرزه لنا السياق.

حيث يقول فيما ذكره السيوطى فى كتابه «المزهر»:

ياويح قلبى من دواعى الهوى ... إذ رحل الجيران عند الغروبْ
أتبعتهم طرفى وقد أزمعوا ... ودمع عينى كفيض الغروبْ
كانوا وفيهم طفلة حرة ... تفتر عن مثل أقاحى الغروبْ

فالغروب الأول غروب الشمس، والثانى جمع غرب وهو الدلو العظيمة المملوءة، والثالث جمع غرب، وهى الوهاد المنخفضة[1].

وهاهو الأنبارى يوضح لنا أن السياق هو الذى يحدد لنا المراد من

---

(١) المزهر: ١/ ٣٧٦.

المعنين سواء أكان بين المعنيين تضاد، أم لم يكن.

فيقول عن المعنيين المتضادين:

«إن كلام العرب يصحح بعضه بعضا، ويرتبط أوله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه، واستكمال جميع حروفه.

فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين، لأنها يتقدمها ويأتى بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، ولا يراد بها فى حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد.

فمن ذلك قول الشاعر:

كل شىء ما خلا الموتَ جَلَلْ . . والفتى يسعى ويلهيه الأملْ

فدل ما تقدم قبل (جلل) وتأخر ما بعده على أن معناه: كل شىء ما خلا الموت يسير، ولا يتوهم ذو عقل وتميز أن (الجلل) هاهنا معناه (عظيم).

وقال الآخر:

يا خَوْلَ ياخَوْلَ لا يطمحْ بك الأملُ   فقد يكذب ظنَّ الآمل الأجلُ
ياخَوْلَ كيف يذوق الخفض معترفٌ   بالموت والموت فيما بعده جَلَلُ

فدل ما مضى من الكلام على أن «جللا» معناه يسير.

وقال الآخر:

فلئن عفوتُ لأعفون جَلَلاً   ولئن سطوتُ لأوهنَنْ عظمِى
قَومِى هم قتلوا أُمَيْمَ أخى   فإذا رميتُ يصيبنى سهمى

فدل الكلام على أنه أراد: فلئن عفوتُ لأعفون عظيما، لأن الإنسان لا يفخر بصفحه عن ذنب حقير يسير، فلما كان اللَّبس فى هذين زائلا عن جميع السامعين لم ينكر وقوع الكلمة على معنيين مختلفين فى كلامين مختلفى اللفظين».

وكذلك (يتلمظان) و(يكتسبان) و(يقوم عبدُ الله) لا يعرف أن شيئا من هذا منقول عن معناه إلى تسمية الرجال به إلا بدليل يزيل اللبس عن السامعين.

فمن ذلك ما أنشدنا أبو العباس عن سلمة عن الفراء:

إذا ما قيل أى الناس شرٌ ... فشرهم بنو يتلمظانِ

جعل (يتلمظان) اسما لرجل.

ثم أورد عدة أبيات فيها (يشتهى) و(جُدَّ ثدياها) و(يهر) و(يدب) أسماء.

ثم أورد عدة أسماء من الألفاظ المشتركة مثل: (غَسَق) بمعنى أظلم وبمعنى سال، والجميل: الرجل الحسن، والشحم المذاب، والحلمة رأس الثدى، ونبات ينبت فى السهل.

إلى أن قال: «فى ألفاظ كثيرة يطول إحصاؤها وتعديدها تُصْحِبها العرب من الكلام ما يدل على المعنى المخصوص منها»[1].

(١) الأضداد: ٢ وما بعدها.

منشأ الاشتراك اللفظى

يرى كثير من العلماء إلى أن الاشتراك اللفظى نشأ أول ما نشأ بسبب تعدد الواضعين للألفاظ، حيث وضعها بعضهم لمعنى، فى حين أن غيرهم وضعها لمعنى آخر.

يقول الأنبارى فى كتابه «الأضداد»:

«وقال آخرون: إذا وقع الحرف على معنيين متضادين، فمحال أن يكون العربى أوقعه عليهما بمساواة منه بينهما، ولكن أحد المعنيين لحى من العرب، والمعنى الآخر لحى غيره، ثم سمع بعضهم لغة بعض، فأخذ هؤلاء عن هؤلاء، وهؤلاء عن هؤلاء.

قالوا: فالْجَوْنُ: الأبيض فى لغة حى من العرب، والجَوْن: الأسود فى لغة حىّ آخر، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر كما قالت قريش: حَسِبَ يَحْسِبُ.

وأخبرنا أبو العباس عن سلمة، عن الفراء، قال: قال الكسائى: أخذوا (يحسِب) بكسر السين فى المستقبل عن قوم من العرب، يقولون حَسِب يَحْسِب، فكأن (حَسِب) من لغتهم فى أنفسهم، و(يحسِب) لغة لغيرهم، سمعوها منهم فتكلموا بها، ولم يقع أصل البناء على (فَعِل يَفْعِل).

وقال الفراء: قوى هذا الذى ذكره الكسائى عندى أنى سمعت بعض العرب يقول: فَضِل يَفْضُل.

قال أبو بكر الأنبارى: يذهب الفراء إلى أن (يَفْعُل) لا يكون مستقبلا لـ(فَعِل) وأن أصل (يفضُل) من لغة قوم يقولون فَضَل يَفْضُل، فأخذ هؤلاء ضم المستقبل عنهم»[1].

(١) الأضداد للأنبارى: ١١، ١٢، ط المكتبة العصرية بيروت.

ويقول الآمدي: «لا يمتنع عقلا أن يضع واحد من أهل اللغة لفظا واحدا على معنيين مختلفين بالوضع الأول على طريق البدل، ويوافقه عليه الباقون، أو أن يتفق وضع إحدى القبيلتين للاسم على معنى حقيقة، ووضع الأخرى له بإزاء معنى آخر، من غير شعور لكل واحدة بما وضعته الأخرى، ثم يشتهر الوضعان، ويخفى سببه، وهو الأشبه»[1].

---

(1) الإحكام: ١/١٩.

المصنفات فى الوجوه والنظائر

يدخل تحت عنوان «الوجوه والنظائر» ثلاثة أنواع من الكتب:

١ ـ الوجوه والنظائر فى اللغة.

٢ ـ الوجوه والنظائر فى القرآن.

٣ ـ الوجوه والنظائر الفقهيه.

أما الوجوه والنظائر فى اللغة: فإن كتاب «المنجد فى اللغة» لأبى الحسن على بن الحسن الهنائى، المشهور بكراع، يعتبر أشمل كتاب فى مجال اللغة، فيما يتعلق بموضوعنا هذا.

أما فى مجال الفقه: فقد ظهر منها كتب عدة، ومن أشهرها كتاب «الأشباه والنظائر فى قواعد وفروع الشافعية» للحافظ السيوطى، وكتاب «العقد النظيم فى ترتيب الأشباه والنظائر» فى الفقه الحنفى، لمصطفى بن خير الدين الرومى، توفى ١٠٢٥هـ.

أما فى مجال القرآن: فالمؤلفات فيه أكثر من أى مجال آخر، وهى من الكثرة بمكان، بحيث ربما يمل القارىء من تتبعها، ونستطيع أن نذكر بعضا منها فيما يلى:

١ ـ «الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم» لمقاتل بن سليمان (ت ١٥٠ هـ) طبع بتحقيق د. عبدالله محمود شحاتة.

٢ ـ «ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه» للأصمعى، عبدالملك بن قريب (ت ٢١٦) طبع بتحقيق مظفر سلطان فى دمشق.

٣ ـ «ما اتفق لفظه واختلف معناه» لليزيدى، إبراهيم بن يحيى بن المبارك، توفى ٢٢٥ هـ طبع بتحقيق عبدالرحمن بن سليمان العثيمين فى بيروت.

٤ ـ «ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد» لأبى العباس

المبرد، توفى ٢٨٦ هـ، طبع بتحقيق عبدالعزيز الميمنى فى القاهرة.

٥ ـ «تحصيل نظائر القرآن»، للحكيم الترمـذى، طبع بمطبعة السعادة فى القاهرة.

٦ ـ «وجوه القرآن للحيرى»، إسماعـيل بن أحمد بن عبدالله الضرير النيسابورى، ت ٤٣١ هـ، محقق كرسالة جـامعية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة سنة ١٩٨٤م.

٧ ـ «إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن» للدامـغانى محمد بن على ابن محـمد بن الحسن، ت ٤٧٨ هـ، وطبع ببيـروت عام ١٩٧٠م، دار العلم للملايين.

٨ ـ «الوجـوه والنظائر للزاغـونى»، أبى الحـسن على بن عـبيـدالله الحنبلى، ت ٥٢٧هـ.

٩ ـ «نزهة الأعـين النواظر فى علم الوجوه والنظائر»، لأبـى الفرج ابن الجوزى المتـوفى سنة ٥٩٧، طبع بالهند سنة ١٩٧٤، وبيـروت سنة ١٩٨٤م.

١٠ ـ «معتـرك الأقران فى مشترك القرآن» لجـلال الدين السيوطى، المتوفى سنة ٩١١ هـ.

وهناك كـتاب لابن فـارس أبى الحسـين أحمـد بن فارس بن زكـريا القزوينى المتوفى سنة ٣٩٥ أسماه الأفراد، خـصصه للكلمات التى تحمل مغناها فى كل موضع من المواضع التى تكررت فيها، ولا تتخلى عنه إلا فى موضع واحد.

مثل قولهم كل ما فى القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن إلا ﴿فلما آسفونا﴾ «الزخرف: ٥٥» فمعناه أغضبونا.

أمثله س الوجوه

اللفظ المشترك نجده فى كل من الأسماء والأفعال والحروف وسنختار لكل نماذج.

أولا: نماذج من الأسماء

من ذلك الهُدَى: جاء على سبعة عشر وجها[1].

١ ـ بمعنى البيان ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ البقرة: ٥.

٢ ـ وبمعنى الدين: ﴿إن الهدى هدى الله﴾ ال عمران: ٧٣.

٣ ـ وبمعنى الإيمان: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ مريم: ٧٦.

٤ ـ وبمعنى الداعى: ﴿ولكل قوم هاد﴾ الرعد: ٧.

٥ ـ وبمعنى الكتب: ﴿فإما يأتينكم منى هدى﴾ البقرة: ٣٨، طه: ١٢٣.

٦ ـ وبمعنى المعرفة: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ النحل: ١٦..

٧ ـ وبمعنى الرشاد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ الفاتحة: ٦.

٨ ـ وبمعنى محمد ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى﴾ البقرة: ١٥٩.

٩ ـ وبمعنى القرآن: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ النجم: ٢٣.

١٠ ـ وبمعنى التوراة: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ غافر: ٥٣.

١١ ـ وبمعنى الاسترجاع: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ التغابن: ١١.

أى يؤمن فى المصيبة أنها من عند الله يهد قلبه للاسترجاع.

١٢ ـ وبمعنى الحجة: ﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه﴾ إلى قوله ﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ البقرة: ٢٥٨ أى لا يهديهم إلى الحجة.

---

(١)انظر البرهان: ١/١٩٤، والإتقان: ١/١٤٢.

١٣ ـ وبمعنى التوحيد: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ القصص: ٥٧.

١٤ ـ وبمعنى السنة: ﴿وإنا على آثارهم مهتدون﴾ الزخرف: ٢٢.

١٥ ـ وبمعنى الإصلاح: ﴿وأن الله لا يهدى كيد الخائنين﴾ يوسف: ٥٢.

١٦ ـ وبمعنى الإلهام: ﴿أعطى كل شىء خلقه ثم هدى﴾ طه: ٥٠، أى ألهم كلا لمعيشته.

١٧ ـ وبمعنى التوبة: ﴿إنا هدنا إليك﴾ الأعراف: ١٥٦ أى تبنا.

ومن ذلك الفرح: فقد ورد على ثلاثة أوجه[1].

١ ـ بمعنى البطر كقوله: ﴿إنه لفرح فخور﴾ هود: ١٠ أى لبطر.

وكقوله: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ القصص: ٧٦، أى لا تبطر إن الله لا يحب البطرين.

٢ ـ بمعنى الرضا: ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا﴾ الرعد: ٢٦، أى رضوا بالحياة الدنيا.

٣ ـ بمعنى الفرح بعينه: ﴿حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾ يونس: ٢٢.

ومن ذلك الحميم:

١ ـ فقد جاء بمعنى القريب أو ذى الرحم: ﴿ولا يسأل حميم حميما﴾ المعارج: ١٠، ﴿ولا صديق حميم﴾ الشعراء: ١٠١، ﴿كأنه ولى حميم﴾ فصلت: ٣٤.

٢ ـ وجاء بمعنى الحار: مثل ﴿وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم﴾ محمد: ١٥، وكقوله: ﴿يصب من فوق رؤوسهم الحميم﴾ الحج: ١٩،

---

(١) انظر الأشباه والنظائر فى القرآن الكريم لمقاتل بن سليمان: ٢٠٠، ط وزارة الثقافة.

أى الحار من الماء.

ومن ذلك **اللهو**: فقد جاء على ستة أوجه، كما ذكره الدامغانى فى كتابه: «الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم».

١ ـ بمعنى السخرية والاستهزاء: ﴿الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا﴾ الأنعام: ٧٠.

٢ ـ بمعنى الولد: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا﴾ الأنبياء: ١٧.

٣ ـ بمعنى ضرب الطبل: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها﴾ الجمعة: ١١.

٤ ـ بمعنى الاشتغال: ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ المنافقون: ٩.

٥ ـ بمعنى الباطل: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة﴾ محمد: ٣٨.

٦ ـ بمعنى الغناء: ﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث﴾ لقمان: ٦.

ومن ذلك (العزم)، فقد جاء على أربعة أوجه[١]:

١ ـ بمعنى القصد: ﴿فإذا عزمت فتوكل على الله﴾ آل عمران: ١٦٠.

٢ ـ بمعنى الصبر: ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ الأحقاف: ٣٥.

٣ ـ بمعنى الحزم: ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ لقمان: ١٧.

٤ ـ بمعنى التحقيق: ﴿وإن عزموا الطلاق﴾ البقرة: ٢٢٧، أى حققوا الطلاق.

ومن ذلك (السؤال): فقد جاء على سبعة أوجه[٢]:

---

(١) انظر إصلاح الوجوه والنظائر للدامغانى: ٣٢٥، ط دار العلم للملايين.

(٢) المصدر السابق: ٢٢٣، ٢٢٤.

١ ـ بمعنى الاستفتاء، كما في كل موضع جاء فيه (يسألونك) من القرآن.

٢ ـ بمعنى الاستمناح: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ الضحى: ١٠.

٣ ـ بمعنى الدعاء: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾ المعارج: ١، يعنى دعا داع.

٤ ـ يمعنى المراجعة فى الكلام والاعتراض: ﴿فلا تسألنى ما ليس لك به علم﴾ هود: ٤٦، ومثله: ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ الأنبياء: ٢٣ لا يعترض عليه.

٥ ـ بمعنى الطلب: ﴿يسأله من فى السموات والأرض﴾ الرحمن: ٢٩، أى يطلبون المغفرة.

٦ ـ يمعنى الحساب: ﴿فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ الحجر: ٩٢, ٩٣.

٧ ـ بمعنى التخاصم: ﴿عم يتساءلون، عن النبأ العظيم﴾ النبأ: ١, ٢.

ومن ذلك (السوء) يأتى بمعنى:

١ ـ الشدة: ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ البقرة: ٤٩، إبراهيم: ٦.

٢ ـ وبمعنى العقر: ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ الأعراف: ٧٣ وغيرها.

٣ ـ وبمعنى الزنا: ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾ يوسف: ٢٥، ﴿ما كان أبوك امرأ سوء﴾ مريم: ٢٨.

٤ ـ وبمعنى البرص: ﴿بيضاء من غير سوء﴾ طه: ٢٢، والنمل: ١٢، والقصص: ٣٢.

٥ ـ وبمعنى العذاب: ﴿إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين﴾ النحل: ٢٧.

٦ ـ وبمعنى الشرك: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ النحل: ٢٨.

٧ ـ وبمعنى الشتم: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول﴾ النساء: ١٢٨، ﴿ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء﴾ الممتحنة: ٢.

٨ ـ وبمعنى الذنب: ﴿يعملون السوء بجهالة﴾ النساء: ١٧.

٩ ـ وبمعنى بئس: ﴿ولهم سوء الدار﴾ الرعد: ٢٥.

١٠ ـ وبمعنى الضر: ﴿ويكشف السوء﴾ النمل: ٦٢، ﴿وما مسني السوء﴾ الأعراف: ١٨٨.

١١ ـ وبمعنى القتل والهزيمة: ﴿لم يمسسهم سوء﴾ آل عمران: ١٧٤.

ثانيا: نماذج من الأفعال

رأينا في القرآن كثيرا من الأفعال، التي اتحد لفظها، واختلف معناها، حسب سياقها في الكلام، ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

❊ **(هلك) يأتي على أربعة أوجه**(١):

١ ـ يأتي بمعنى مات ﴿إن امرؤ هلك﴾ النساء: ١٧٦، ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ القصص: ٨٨.

٢ ـ بمعنى العذاب: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ الكهف: ٥٩، أي عذبناهم.

٣ ـ بمعنى ضل: ﴿هلك عني سلطانيه﴾ الحاقة: ٢٩.

٤ ـ بمعنى يفسد: ﴿ويهلك الحرث والنسل﴾ البقرة: ٢٠٥.

❊ **ومن ذلك (كان)، فإنها تأتي على خمسة أوجه**(٢):

١ ـ بمعنى ينبغي: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة

---

(١) انظر الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان: ٢٥٦، ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق: ٢٤٨، ٢٤٩.

ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله﴾ آل عمران: ٧٩، ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ﴾ النساء: ٩٢، ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ النور: ١٦.

٢ ـ تأتى صلة، كتلك الآيات التى تنتهى بوصف الله تعالى بصفة من صفات العلم والحكمة والقدرة والمغفرة والرحمة ونحوها ﴿وكان الله على كل شىء قديرا﴾، ﴿وكان الله سميعا بصيرا﴾ وغيرها، فمعناها والله على كل شىء قدير، والله سميع بصير، فى كل وقت من الأوقات سواء أكان هذا الوقت ماضيا أم حاضرا، أم مستقبلا.

٣ ـ بمعنى (هو) كما فى قوله تعالى: ﴿كيف نكلم من كان فى المهد صبيا﴾ مريم: ٢٩، أى من هو فى المهد.

٤ ـ بمعنى (هكذا كان)، كما فى قوله تعالى عن إسماعيل: ﴿إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾ مريم: ٥٤, ٥٥.

٥ ـ بمعنى صار: ﴿إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾ البقرة: ٣٤، ﴿وفتحت السماء فكانت أبوابا، وسيرت الجبال فكانت سرابا﴾ النبأ: ١٩, ٢٠، ﴿وبست الجبال بسا، فكانت هباء منبثا﴾ الواقعة: ٥, ٦.

*** ومن هذه الأفعال (ألقى).**

فقد ذكر الدامغانى لها عشرة أوجه فى كتابه (إصلاح الوجوه والنظائر):

١ ـ بمعنى وسوس: ﴿ألقى الشيطان فى أمنيته﴾ الحج: ٥٢، أى وسوس فى قراءته، والوسوسة فى جانب الكفار، لا فى جانب الرسول أو النبى.

٢ ـ بمعنى خلق: ﴿وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم﴾ النحل: ١٦.

٣ ـ بمعنى وضع: ﴿فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا﴾ يوسف: ٩٣.

٤ ـ بمعنى أنزل: ﴿يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ غافر: ١٥.

٥ ـ بمعنى اقترع: ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ آل عمران: ٤٤، أى يقترعون.

٦ ـ بمعنى كسا: ﴿وألقيت عليك محبة منى﴾ طه: ٣٩.

٧ ـ بمعنى أُدخل: ﴿فألقوه فى الجحيم﴾ الصافات: ٩٧.

٨ ـ بمعنى رمى: ﴿فألقى موسى عصاه﴾ الشعراء: ٤٥.

٩ ـ بمعنى كَلّم: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ النساء: ١٧١.

١٠ ـ بمعنى أجلس: ﴿وألقينا على كرسيه جسدا﴾ ص: ٣٤.

❊ ومن هذه الأفعال (ضرب).

ذكر ابن الجوزى أنه ورد فى القرآن على ثلاثة أوجه:

١ ـ بمعنى السير: ﴿إذا ضربتم فى سبيلل الله فتبينوا﴾ النساء: ٩٤، ﴿وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ النساء: ١٠١، ﴿وآخرون يضربون فى الأرض﴾ المزمل: ٢٠.

٢ ـ وبمعنى الضرب باليد، وبالآلة المستعملة باليد، ومنه:

﴿فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن﴾ النساء: ٣٤.

﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ الأنفال: ١٢.

﴿فضرب الرقاب﴾ محمد: ٤.

٣ ـ بمعنى الوصف، ومنه:

﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ البقرة: ٢٦.

﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ إبراهيم: ٤٥.

﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا﴾ النحل: ٧٥.

نماذج من الحروف

ومن الحروف التى لها معان متعددة ما يأتى:

※ (ما) وتأتى على سبعة أوجه[1]:

١ ـ بمعنى لا: ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ فصلت: ٤٣، ﴿أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار﴾ البقرة: ١٧٤.

٢ ـ بمعنى ليس: ﴿ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره﴾ الأعراف: ٦٥, ٧٣, ٨٥ وغيرها.

٣ ـ بمعنى الذى: ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾ الليل: ٣، ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ المؤمنون: ٦٨.

٤ ـ بمعنى (أى شىء) مثل: ﴿ما تعبدون من بعدى﴾ البقرة: ١٣٣، ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ عبس: ١٧.

٥ ـ بمعنى لم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ الأنعام: ٢٣، ﴿وما كنا غائبين﴾ الأعراف: ٧، ﴿وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ القصص: ٥٩.

٦ ـ صلة: ﴿إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها﴾ البقرة: ٢٦، ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ آل عمران: ١٥٦، ﴿فبما

---

(١) انظر الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان: ٢٤٢ ـ ٢٤٥.

نقضهم ميثاقهم﴾ النساء: ١٥٥.

٧ ـ بمعنى (كما) مثل: ﴿خالدين فيها مادامت السموات والأرض﴾ هود: ١٠٧,١٠٨.

ومن هذه الحروف (إنْ ـ أنْ)

فتأتى على الوجوه الآتية[١]:

١ ـ بمعنى إذْ: ﴿اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين﴾ البقرة: ٢٧٨، ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ آل عمران: ١٣٩.

٢ ـ بمعنى ما: ﴿لو أردنا أن نتخذ لهوا لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين﴾ الأنبياء: ١٧، ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ الزخرف: ٨١، ﴿إن الكافرون إلا فى غرور﴾ الملك: ٢٠.

وكذلك كل (إنْ) مخففة مستقبلة (إلا).

٣ ـ بمعنى لقد: ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولا﴾ الإسراء: ١٠٨، ﴿تالله إن كنا لفى ضلال مبين﴾ الشعراء: ٩٧، ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ الإسراء: ٧٣.

٤ ـ بمعنى (لئلا)، مثل:

﴿ يبين الله لكم أن تضلوا﴾ النساء: ١٧٦، أى لئلا تضلوا.

﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ فاطر: ٤١.

﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ الحج: ٦٥.

٥ ـ بمعنى (بأن)، مثل:

﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين﴾ الزخرف: ٦.

﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله﴾ الروم: ١٠.

---

(١) انظر إصلاح الوجوه والنظائر للدامغانى: ٥٢ ـ ٥٤.

ومن هذه الحروف (لا)

وهى تأتى على ثلاثة أوجه[1]:

١ ـ بمعنى النفى، مثل:

﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم﴾ آل عمران: ٧٧.

﴿ سنقرئك فلا تنسى﴾ الأعلى: ٦.

٢ ـ بمعنى النهى، مثل:

﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ البقرة: ٣٥.

﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج﴾ البقرة: ١٩٧.

﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ القصص: ٧٧.

٣ ـ بمعنى (لم)، مثل:

﴿فلا صدق ولا صلى﴾ القيامة: ٣١، أى لم يصدق ولم يصل.

---

(١) انظر نزهة الأعين النواظر: ٦٣١، ٦٣٢.

نماذج من النظائر[1]

١ - كل ما فى القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن، إلا ﴿فلما آسفونا﴾ فى الزخرف، فمعناه أغضبونا.

٢ - وكل ما فيه من ذكر (البروج) فهى الكواكب، إلا ﴿ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ فى النساء، فهى القصور الطوال الحصينة.

٣ - وكل ما فيه من ذكر (البر والبحر)، فالمراد بالبحر الماء، وبالبر التراب اليابس، إلا ﴿ظهر الفساد فى البر والبحر﴾ فى الروم، فالمراد به البرية والعمران.

٤ - وكل ما فيه من (بخس) فهو النقص إلا ﴿بثمن بخس﴾ فى يوسف، أى حرام.

٥ - وكل ما فيه من البعل فهو الزوج إلا ﴿أتدعون بعلا﴾ فى الصافات، فهو الصنم.

٦ - وكل ما فيه من البكم فالخرس عن الكلام بالإيمان إلا ﴿عميا وبكما وصما﴾ فى الإسراء و﴿أحدهما أبكم﴾ فى النحل، فالمراد به عدم القدرة على الكلام مطلقا.

٧ - وكل ما فيه (جثيا) فمعناه جميعا، إلا ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ فى سورة الجاثية، فمعناه تجثو على ركبها.

٨ - وكل ما فيه من (حسبانا) فهو العدد، إلا ﴿حسبانا من السماء﴾ فى الكهف، فهو العذاب.

٩ - وكل ما فيه من (حسرة) فالندامة، إلا ﴿ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم﴾ آل عمران: ١٥٦، فمعناه الحزن.

---

(١) انظر: البرهان: ١/ ١٩٥ - ٢٠٠، والإتقان: ١/ ١٤٣ - ١٤٥.

١٠ ـ وكل ما فيه من الدحض فـالباطل، إلا ﴿فكان من المدحضين﴾ فى الصافات، فمعناه من المقروعين.

١١ ـ وكل ما فيه من رجز فـالعذاب، إلا ﴿والرجز فاهجر﴾ فى المدثر، فالمراد به الصنم.

١٢ ـ وكل مـا فـيـه من ريب فـالشك، إلا ﴿ريـب المنون﴾ فى الطور، فمعناه حوادث الدهر.

١٣ ـ وكل ما فـيه من الرجـم فهو القـتل إلا ﴿لأرجمنك﴾ فـى مريم، فمعناه لأشتمنك، و﴿رجما بالغيب﴾ فى الكهف، أى ظنا.

١٤ ـ وكل ما فـيه من الزور فالكذب مع الشـرك، إلا ﴿منكرا من القول وزورا﴾ فى المجادلة، فإنه كذب غير الشرك.

١٥ ـ وكل ما فـيه من زكاة فهـو المال، إلا ﴿وحنانا من لدنا وزكاة﴾ فى مريم، أى طهرة.

١٦ ـ وكل مـا فـيـه من الزيغ فـالمـيل، إلا ﴿وإذ زاغت الأبصـار﴾ فى الأحزاب، فمعناه شخصت.

١٧ ـ وكل ما فـيه من سخر فالاسـتهزاء، إلا ﴿سخـريا﴾ فى الزخـرف، فهو من التسخير والاستخدام.

١٨ ـ وكل سعـير فيـه فهو النـار والوقود، إلا فى ﴿ضلال وسـعر﴾ فى القمر، فهو العناء.

١٩ ـ وكل شيطان فـيه فإبليس وجنوده، إلا ﴿وإذا خلوا إلى شـياطينهم﴾ فى البقرة، فالمراد رؤساؤهم فى الكفر والنفاق.

٢٠ ـ وكل شهيد فيه غير القتلى: فمن يشهد فى أمور الناس، إلا ﴿وادعوا شهداءكم﴾ فى البقرة، فهو شركاؤكم.

٢١ ـ وكل ما فـيه من أصحاب النار فـأهلها، إلا ﴿وما جعلنا أصـحاب

النار إلا ملائكة﴾ فى المدثر، فالمراد خزنتها.

٢٢ ـ وكل صمم فيه ففى سماع الإيمان والقرآن، إلا الذى فى الإسراء ﴿عميا وبكما وصما﴾ فعلى ظاهره وهو عدم السمع.

٢٣ ـ وكل قنوت فيه طاعة إلا ﴿كل له قانتون﴾ فى البقرة: ١١٦. والروم: ٢٦ فمعناه: مُقِرُّون.

٢٤ ـ وكل مصباح فيه فهو كوكب إلا الذى فى النور فالسراج.

٢٥ ـ وكل نكاح فيه تزوج إلا ﴿حتى إذا بلغوا النكاح﴾ فى النساء فالحلم.

٢٦ ـ وكل نبأ فيه خبر، إلا ﴿فعميت عليهم الأنباء﴾ فى القصص، فهى الحجج.

٢٧ ـ وكل ورود فيه دخول إلا ﴿ولما ورد ماء مدين﴾ فى القصص، فهو بمعنى هجم عليه، ولم يدخله.

٢٨ ـ وكل يأس فيه فهو قنوط، إلا ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ فى الرعد، فمعناه العلم.

٢٩ ـ وكل صوم فيه فمن العبادة إلا ﴿إنى نذرت للرحمن صوما﴾ فى مريم، أى صمتا.

٣٠ ـ وكل ما فيه من الظلمات والنور، فالمراد الكفر والإيمان. إلا التى فى أول الأنعام، فالمراد ظلمة الليل ونور النهار.

٣١ ـ كل كأس فى القرآن فهو الخمر.

٣٢ ـ كل شىء فى القرآن فاطر فهو خالق.

٣٣ ـ كل شىء فى القرآن إفك فهو كذب.

٣٤ ـ كل شىء فى القرآن جعل فهو خلق.

٣٥ ـ المباشرة فى كل كتاب الله الجماع.

التقديم والتأخير

التقديم والتأخير

التقديم والتأخير أحد الأساليب الراقية في بلاغة العرب، وهو يدل على تمكن صاحبه في الفصاحة، وملكته في الكلام، وانقياد ذلك الكلام له.

كما أن له تأثيرا طيبا في قلوب سامعيه، ووقعا حسنا في آذانهم.

ولما كان الأمر كذلك، وكان القرآن بلسان عربي مبين، خاطبهم الله بهذا الأسلوب الراقي، فوجدوا فيه معجم بلاغتهم، وقاموس فصاحتهم.

أسباب التقديم

وللتقديم أسباب نوجزها فيما يلي[1]:

الأول: أن يكون الأصل في اللفظ التقديم، ولا يوجد سبب يقتضي العدول عن ذلك، كتقديم المبتدأ على الخبر، والفاعل على المفعول، وصاحب الحال عليها، نحو ذاكر محمد جالسا.

الثاني: لعظمة المقدم والاهتمام به، كقوله تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ النساء: ٥٩.

قال الزركشي: «وذلك أن من عادة العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مخبر ما وأناطت به حكما وقد يشركه غيره في ذلك الحكم أو فيما أخبر به عنه وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب فإنهم مع ذلك إنما يبدؤون بالأهم والأولى»[2].

وقال سيبويه: «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنَى،

---

(١) انظر في ذلك البرهان للزركشي: ٣/٣٠٣ وما بعدها، ط دارالمعرفة بيروت.

(٢) البرهان للزركشي: ٣/٣٠٥.

وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم»[1].

الثالث: أن يكون فى التأخير إفساد للمعنى المراد.

كقوله تعالى: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾ غافر: ٢٨، فإن قوله: ﴿من آل فرعون﴾ لو أخر عن قوله (يكتم إيمانه) لتوهم أن الرجل ليس من آل فرعون.

الرابع: أن يكون فى التأخير إخلال بالتناسب، فيقدم لرعاية الفاصلة، ولمشاكلة الكلام.

كقوله تعالى: ﴿فأوجس فى نفسه خيفة موسى﴾ طه: ٦٧، فإن قوله: (فى نفسه) لو أخر عن (موسى) لما حدث تناسب فى الفواصل، لأنه قبله ﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى﴾ وبعده ﴿إنك أنت الأعلى﴾.

وكقوله تعالى: ﴿وتغشى وجوهَهم النارُ﴾ إبراهيم: ٥٠، فقد أخر الفاعل عن المفعول لمناسبته لما بعده.

الخامس: أن يكون الخاطر ملتفتا إليه، والعزم منعقدا عليه، والهمة معقودة به، كقوله تعالى: ﴿قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون﴾ الزمر: ٦٤، فقدم مفعول (أعبد) وهو (غير الله) لأن الإنكار متوجه إلى كل من عدا الله تعالى.

وكقوله تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ الأنعام: ١٠٠، بتقديم الجار والمجرور (لله) على المفعول الأول (الجن) لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله، لا إلى مطلق الجعل.

السادس: لإرادة التوبيخ، كتقديم المفعول الثانى على المفعول الأول من هذه الآية السابقة، فأساس الترتيب (الجنَّ شركاء) فقدم المفعول الثانى

---

(١) الكتاب: ١/ ٣٤ باب الفاعل الذى يتعداه فعله إلى مفعول.

على الأول لأن المقصود توبيخ هؤلاء المشركين، وتقديم الشركاء أبلغ فى حصول هذا التوبيخ.

السابع: الاختصاص: ويكون ذلك بتقديم:

١ ـ المفعول.

٢ ـ أو الخبر.

٣ ـ أو الظرف.

٤ ـ أو الجار والمجرور.

فمثال تقديم المفعول ـ قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ أى نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك، ونخصك بالاستعانة فلا نستعين بمن سواك.

ومثال تقديم الخبر ـ قوله تعالى: ﴿قال أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم﴾ مريم: ٤٦، وقوله: ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ الحشر: ٢.

قال السيوطى: «ذكر ابن الأثير وابن النفيس وغيرهما أن تقديم الخبر على المبتدأ يفيد الاختصاص، وصرح السكاكى وغيره بأن تقديم ما رتبته التأخير يفيده، ومثلوه بنحو «تميمى أنا»[(١)].

وأما تقديم الظرف، وكذلك الجار والمجرور:

(أ) فإن كان فى الإثبات دل على الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ الأنعام: ٥٩، وقوله تعالى: ﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ آل عمران: ١٠٩.

(ب) وإن كان فى النفى فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفى، كما فى قوله

(١) الإتقان: ٢/ ٥١.

تعالى: ﴿لا فيـها غول ولا هم عنها ينزفـون﴾ الصافات: ٤٧، أى ليس فى خمر الجنة ما فى خمر الدنيا من الغول.

وأما تأخيره فإنه يفيد النفى فقط، كما فى أول البقرة ﴿لا ريب فيه﴾.

كما إذا قلنا لا عيب فى هند كان مـعناه نفى العيب عنها، أما إذا قلنا لا فى هند عيب، كان معناه أنها تُفَضَّل على غيرها بعدم العيب.

ملاحظة: مـا تقدم من أن تقديـم المفعول يفـيد الاختـصاص إنما هو غالب لا لازم، بدليل قـوله تعالى: ﴿كلا هدينا ونوحـا هدينا من قبل﴾ الأنعام: ٨٤.

فتقديم المفعول هنا لا يفيد الاختصاص، لأن هداية الله ليست مختصة بهؤلاء الأنبياء.

أنواع المقدم[1]

ينقسم المقدم إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ مقدم والمعنى عليه.

٢ ـ مقدم وهو فى المعنى مؤخر.

٣ ـ مقدم فى موضع، ومؤخر فى موضع آخر.

النوع الأول

ما قدم والمعنى عليه

ولذلك أسباب:

الأول: السبق، ومن أمثلة ذلك ما يلى:

قوله تعالى: ﴿يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك﴾ الأحزاب: ٥٩.

وقـوله تـعـالى: ﴿ربنا هب لنـا من أزواجنا وذرياتنا قـرة أعـين﴾ الفرقان: ٤٧.

---

(١) انظر فى ذلك: البرهان: ١/ ٨ - ٣ وما بعدها، والاتقان: ٢/ ١٤ ـ ١٦.

﴿الذى خلق الموت والحياة﴾ الملك: ٢، ﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾ النجم: ٤٤، ﴿وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ البقرة: ٢٨.

ومن هذا القبيل ذكر الأعداد، فكل عدد متقدم على ما بعده بالذات كقوله تعالى: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ النساء: ٣.

وقوله: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ..الآية﴾ الكهف: ٢٢.

وقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم﴾ المجادلة: ٧.

وأما قوله تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى﴾ سبأ: ٤٦، فقدم (مثنى) على (فرادى) لأن المقصود حثهم على القيام بالنصيحة لله، ولا شك أن حالة الاجتماع أهم، فلذلك بدىء بها.

الثانى: التعظيم

كقوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ آل عمران: ١٨.

وقوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى﴾ الأحزاب: ٥٦.

الثالث: الشرف

وهو أنواع:

١ ـ منها شرف الرسالة كقوله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى....﴾ الحج: ٥٢.

وقوله: ﴿الذين يتبعون الرسول النبى الأمى﴾ الأعراف: ١٥٧.

٢ ـ وشرف الإيمان: ﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ الأعراف: ٨٧.

وقوله: ﴿فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة﴾ الصف: ١٤.

٣ ـ شرف العقل: كقوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب﴾ الحج: ١٨.

٤ ـ وشرف العلم: كقوله تعالى: ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ الزمر: ٩.

٥ ـ شرف المعلوم، كقوله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ المؤمنون: ٩٢، فإن علم الغيب أشرف من العلم المشاهد.

ونحوه ﴿يعلم سركم وجهركم﴾ الأنعام: ٣.

٦ ـ شرف الحياة، كقوله تعالى: ﴿وما يستوى الأحياء ولا الأموات﴾ فاطر: ٢٢، وأما قوله فى سورة تبارك: ﴿الذى خلق الموت والحياة﴾ فمن تقدم السبق بالوجود كما سبق إيضاحه قريبا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى﴾ الروم: ١٩.

٧ ـ وشرف الذكورة، كقوله تعالى: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ النجم: ٢١.

وقوله: ﴿وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾ النساء: ١٠.

وقوله: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾ الآية: ٣٥ من سورة الأحزاب.

٨ ـ وشرف الحرية، كقوله تعالى: ﴿الحر بالحر والعبد بالعبد﴾ البقرة: ١٧٨.

٩ ـ الشرف بالفضيلة، كقوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ النساء: ٦٩.

وكقوله: ﴿من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ البقرة: ٩٨، فجبريل أفضل من ميكائيل، لأن وظيفة جبريل متعلقة

بالخيرات الروحانية، بينما وظيفة ميكائيل متعلقة بالخيرات الجسدية، والأولى أفضل من الثانية.

ومنه تقديم المهاجرين على الأنصار، كقوله تعالى: ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار﴾ التوبة: ١١٧.

١٠ ـ وشرف الإدراك، كتقديم السمع على البصر، والسميع على البصير، فإن السمع أشرف عند فريق من العلماء، وعكس الأمر فى بعض المواضع لنكتة بلاغية اقتضاها المقام.

١١ ـ وشرف الإباحة، كقوله تعالى: ﴿ولا تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ النحل: ١١٦.

١٢ ـ شرف المجازاة، كقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها﴾ الأنعام: ١٦٠.

الرابع: كونه أدل على القدرة

ومنه قوله تعالى: ﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع﴾ النور: ٤٥.

الخامس: التعجيب من شأنه

ومنه قوله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ الأنبياء: ٧٩.

و﴿ياجبال أوبى معه والطير﴾ سبأ: ١٠.

و﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق، والطير محشورة كل له أواب﴾ ص: ١٨، ١٩.

فإن الجبال لما كانت جامدة كان تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة، وأوضح فى الإعجاز، لأن الطير حيوان ناطق وإن كنا لا نفقه نطقه.

السادس: الترقى من الأدنى إلى الأعلى

ومنه قوله تعالى: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها﴾ الأعراف: ١٩٥.

فإن منفعة الأيدى أشرف من منفعة الأرجل، ومنفعة العين أشرف من منفعة اليد، ومنفعة السمع أشرف من منفعة العين.

السابع: مراعاة الإفراد

كقوله تعالى: ﴿المال والبنون﴾ الكهف: ٤٦، وقوله تعالى: ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين﴾ المؤمنون: ٥٥، وذلك لأن المفرد سابق على الجمع.

الثامن: لقصد الاهتمام عند المخاطب

ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾ النساء: ٨٦.

وقوله تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ النساء: ٣٦.

التاسع: للحث عليه خوفا من التهاون به

ومنه تقديم الوصية على الوفاء بالدين فى قوله تعالى: ﴿من بعد وصية يوصى بها أو دين﴾ النساء: ١١, ١٢.

العاشر: للغلبة والكثرة

ومنه قوله تعالى: ﴿هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن﴾ التغابن: ٢، بدليل قوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ يوسف: ٤، وبدليل حديث بعث النار، الذى ينص صراحة على أن من كل ألف يدخل النار تسعمائة وتسعة وتسعون.

ومنه قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ آل عمران: ١٥٢.

الحادى عشر: مناسبة المتقدم لسياق الكلام

ومنه قوله تعالى: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ النحل: ٦، ففى كل من الإراحة والإسراح جمال، إلا أن جمال الإراحة أجمل، حيث تكون بطانا، أما فى الإسراح فتكون خماصا.

ومنه تقديم مريم على ابنها، حين كان السياق فى ذكرها فى قوله تعالى: ﴿والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ الأنبياء: ٩١.

بينما قدم ابنها عليها لما كان السياق فى ذكره، فى قوله تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ المؤمنون: ٥٠.

الثانى عشر: مراعاة اشتقاق اللفظ

كقوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر﴾ الحديد: ٣.

وقوله: ﴿قل إن الأولين والآخرين، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ الواقعة: ٤٩, ٥٠.

وقوله: ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ البروج: ١٣.

وقوله: ﴿كما بدأكم تعودون﴾ الأعراف: ١٩.

وقوله: ﴿ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين﴾ الواقعة: ٣٩, ٤٠.

الثالث عشر: للإشارة إلى أن السبب مرتب

ومنه قوله تعالى: ﴿يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ التوبة: ٣٥.

جاءت الثلاثة على هذا الترتيب لأن مانع الزكاة كان فى الدنيا يصرف وجهه عن السائل أولا: ثم ينوء بجانبه ثانيا، ثم يتولى بظهره ثالثا.

الرابع عشر: بالداعية

ومنه قوله تعالى: ﴿تقديم الأمر بغض الأبصار عن الأمر بحفظ الفروج، فى قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم. . .﴾ وقوله: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ النور: ٣٠، ٣١.

لأن النظر بريد الزنا، وداعية إلى الفرج.

قال ﷺ: «العينان تزنيان، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(١).

الخامس عشر: بالعلة والسببية

ومنه قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قدمت العبادة لأنها سبب حصول الإعانة.

ومنه تقديم العزيز على الحكيم، لأنه عز فحكم.

ومنه تقديم العليم على الحكيم، لأن إتقان الشيء سبب عن العلم به.

وأما تقدم الحكيم على العليم فى سورة الأنعام فى الآيتين (١٢٨، ٨٣) وفى سورة الزخرف فى الآية (٨٤) فلسبب آخر اقتضاه المقام فليرجع إليه فى كتب التفاسير.

النوع الثانى من أنواع المقدم

المقدم وهو فى المعنى مؤخر

ومنه تقديم المفعول على الفاعل، كقوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فاطر: ٢٨، وقوله تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾ البقرة: ١٢٤.

ونحو ذلك مما تقتضيه القواعد النحوية.

---

(١) مسند أحمد: ٢/ ٣٤٤، ٥٣٥.

ومن ذلك تقديم المفعول به قصدا للحصر، كقوله تعالى: ﴿قل الله أعبد مخلصا له دينى﴾ الزمر: ١٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ حيث قدم الخبر (مانعتهم) على المبتدأ (حصونهم)، ولو جاء الترتيب طبيعيا لما أشعر بزيادة وثوقهم بمنعها إياهم.

النوع الثالث

ما قدم فى موضع وأخر فى موضع آخر

ولذلك أسباب منها:

١ ـ كون السياق فى كل موضع اقتضى الصورة التى عبر فيها بما عبر، وقد سبق بعض الأمثلة لذلك، ومنها ما يأتى:

قوله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ الأنعام: ١٥١، بينما قال فى سورة الإسراء: ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ الآية: ٣١.

فقدم المخاطبين فى الأولى: ﴿نرزقكم وإياهم﴾ بعكس الثانية ﴿نرزقهم وإياكم﴾.

لأن الخطاب فى الأولى للفقراء الواقعين فى الفقر بالفعل، بدليل قوله: ﴿من إملاق﴾ فكان رزقهم عندهم أهم من رزق أولادهم، فقدم ضمان رزقهم على ضمان رزق أولادهم.

بينما الخطاب فى الثانية لغير الواقعين فى الفقر بالفعل، بل هم يخشونه فى المستقبل، بدليل ﴿خشية إملاق﴾ فكان رزق الأولاد هو المطلوب دون رزقهم، لأنه موجود بالفعل، فكان أهم، فلذلك قدم الوعد برزق الأولاد على الوعد برزق المخاطبين.

٢ ـ لقصد أن يقع البداءة والختم به، اعتنا، بشأنه.

كقوله تعـالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فـأما الذين اسودت وجوههم أكـفرتم بعـد إيمانكم فذوقـوا العذاب بما كنتم تكفـرون، وأما الذين ابيضت وجـوههم ففى رحـمة الله هم فيـها خالدون﴾ آل عـمران الآيتان:١٠٦, ١٠٧.

وكقوله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفـضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة﴾ الجمعة: ١١.

٣ ـ قصد التفنن فى الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب بينما اللفظ واحد، والقصة واحدة.

كما فى قوله تعالى: ﴿وادخلوا البـاب سجدا وقولوا حطة﴾ البقرة: ٥٨.

وقـوله: ﴿وقـولوا حطة وادخلوا البـاب سـجـدا﴾ الأعـراف الآية: ١٦١.

ومنه قـوله تعالى فـى سورة المائدة: ﴿إنا أنزلنا الـتوراة فـيهـا هدى ونور﴾ بينما قال فى الأنعام: ﴿قل مـن أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس﴾.

فواتح السور بالحروف المقطعة

فواتح السور بالحروف المقطعة

الناظر فى بداية السور القرآنية يرى أن تسعا وعشرين سورة منها افتتحت ببعض الحروف الهجائية ، وعدد هذه الحروف - بعد حذف المكرر منها أربعة عشر حرفا ، تجمعها عبارة " نص حكيم قاطع له سر " .

وقد وردت هذه الحروف فى افتتاح تسع وعشرين سورة كما قلنا على النحو التالى :

١ - ست سور بدأت بـ (آلم) وهى :

البقرة ، وآل عمران ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة .

٢ - خمس سور بدأت بـ (آلر) ، وهى :

يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر

٣ - ست سور بدأت بـ (حم) ، وهى :

غافر ، وفصلت ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف

٤ - سورتان بدأتا بـ (طسم) ، وهما الشعراء والقصص .

٥ - المجموعة الباقية بدأت كل سورة منها بافتتاح غير الأخرى ، وعلى النحو التالى :

(**آلمص**) لسورة الأعراف ، و (**آلمر**) لسورة الرعد ، و(**كهيعص**) لسورة مريم ، و(**طه**) لسورة طه ، و (**طس**) لسورة النمل، و(**يس**) لسورة يس ، و(**حم عسق**) لسورة الشورى ، و(**ص**) لسورة

ص ، و(ق) لسورة ق ، و(ن) لسورة القلم .

وحول معني هذه الحروف قامت مناقشات ، وتعددت أقوال ، ونستطيع أن نرجع هذه المناقشات وتلك الأقوال إلى اتجاهين :

١ - الاتجاه الأول : يقول إن هذه الحروف سر استأثر الله تعالى به .

٢ - الاتجاه الثانى : يقول إن هذه الحروف ليست سرا وإنما معناها معلوم لنا .

فإذا ما جئنا إلى الاتجاه الأول ، وجدنا على رأس القائلين به معظم سلف الأمة رضى الله عنهم .

فعن أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : " لله تعالى فى كل كتاب سر، وسر الله تعالى فى القرآن هذه الحروف التى فى أوائل السور " .

وعن على رضي الله عنه قال : " إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة القرآن حروف التهجى " .

وعن ابن عباس - فى قول - أنه قال : " هى من المكتوم الذى لا يفسر " .

وروى عن عمر وعثمان وابن مسعود رضى الله عنهم أنهم قالوا : "الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر "(١) .

---

(١) انظر التيسير فى علم التفسير لعمر النسفى : ١٤٧/١ ، وتفسير القرطبى : ١٥٤/١ .

فأصحاب هذا الاتجاه يرون أن هذه الحروف من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه ، ولا يجب أن نتكلم فيها ، وعلينا أن نؤمن بها وأن نقرأها كما كان رسول الله ﷺ وصحابته الكرام يقرؤونها .

قال النيسابورى فى غرائب القرآن :

" فالتخاطب بالحروف المفردة سنة الأحباب فى سنن المحاب ، فهو سر الحبيب مع الحبيب ، بحيث لا يطلع عليه الرقيب .

بين المحبين سر ليس يفشيه * قول ولا قلم للخلق يحكيه(١)

اعتراض على هذا الرأى

وعلى الرغم من أن هذا الرأى هو المشهور عن سلف هذه الأمة ، والمروى عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من أحبارها ، إلا أنه قد وُجِّه إليه اعتراض ، وهذا الاعتراض يتلخص فيما يأتى :

يقولون إن الله تعالى وصف القرآن بعدة صفات ، منها أنه برهان ونور مبين ، وتبيان لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

فكيف يكون القرآن متصفا بهذه الصفات ، بينما يقال إن فيه أشياء غير معلومة لنا ؟ كيف يكون هدى لنا ونحن لا نفهمه ؟ كيف يكن مبيِّناً وهو غامض غير واضح ؟ كيف يكون لنا بشرى ورحمة . ونحن لا نفهم تلك البشرى ، ولا ندرى تلك الرحمة ؟

---

(١) تفسير النيسابورى : ١٣٤/١ .

ومما يعترض به على هذا الرأى أيضا أن الله تعالى أمرنا بتدبر القرآن فكيف يأمرنا بتدبره بينما يستأثر بتلك المعاني عنده ؟

الرد على هذا الاعتراض

وهذا الاعتراض وإن تخيله بعض الناس وجيها فإنه فى الحقيقة أوهى من بين العنكبوت ، لما يأتى :

١ - فوصف الله تعالى كتابه بالهدى والرحمة والبشرى والنور والبرهان والتبيان لكل شىء لا ينافيه أن توجد حروف فى أوائل بعض سوره استأثر الله تعالى بعلم معناها ، خاصة وأن هذه الحروف لم يطلب بها فعل شىء ، أو ترك شىء ، أو إرشاد إلى شىء .

فمادام القرآن الكريم قد بدا - فى جملته - واضحا أيما وضوح في كل ما أراده الله به ، فلا ضير أن يكون فيه شىء استأثر الله تعالى بعلمه، ليكون دليلا على كمال القدرة الإلهية وقصور قدرة الخلق أجمعين .

قال عمر النسفى : " قال بعض العراقيين : حير عقول الخلق فى ابتداء خطابه ، وهو محل الفهم ، ليعلموا أنه لا سبيل لأحد إلى معرفة حقوق خطابه إلا بعلمهم بالعجز عن معرفة خطابه "(١) .

٢ - كما أن لله تعالى كتابا مسطوراً وهو القرآن الكريم ، فإن له كتابا منشورا منظورا ، وهو هذا الكون العظيم .

---

(١) التيسير فى علم التفسير : ١٤٨/١ .

وكما أن الله أمرنا بتأمل وتدبر كتابه المسطور ، أمرنا بتأمل وتدبر كتابه المنشور المنظور .

وكما أن الله أودع كتابه المنشور هذا أسراراً لن يستطيع الخلق الوصول إليها رغم أنهم أمروا بتدبره وتأمله فكذلك أودع الله كتابه المسطور بعض أسراره ، وكما أن وجود تلك الأسرار فى ذلك الكون العظيم لا تقف حائلا أمام الإنسان للوصول بالكون إلى المكون سبحانه وتعالى ، فكذلك تلك الأسرار الموجودة فى القرآن الكريم لا تقف حائلا بين وصول الإنسان بالكتاب إلى قائله ، ولا حجر عثرة بين هداية هذا الكتاب لذلك الإنسان إلى أحسن حال وأفضل مآل .

٣ - إذا نظرنا إلى بعض أمور العقيدة ، وبعض التكاليف الشرعية، وجدنا فيها من الأسرار ، ما لا يسلب عنها عظمتها ، وسمو مكانتها . فمن منا يدرك الله عز وجل ؟ ومن منا يطلع على أمور الغيب كأوصاف الملائكة وما يدور فى الملأ الأعلى ، وما يحدث فى القبر من نعيم وعذاب أليم ؟ ومن منا يعلم ما فى الجنة وما فى النار ؟

فإذا ما جئنا إلى العبادات مثلا ، وجدناها لا تخلو من أسرار .

فالصلاة مثلا لم كانت خمسا ولم تكن أقل أو أكثر ؟ ولم كان بعضها ركعتين ، وبعضها ثلاثا ، وبعضها أربعا ، ولم يكن الأمر على غير ذلك ؟

والزكاة : لم كانت فى بعض الأنواع دون بعض ؟ ولم كان النصاب فى كل نوع على النحو الذى شرع دون أكثر أو أقل منه ، وكذلك مقدارها، لم كان هكذا دون غيره ؟

والحج أيضا : لم كان في هذه الشهور دون غيرها ؟ ولم كانت المواقيت المكانية هكذا دون غيرها ؟ ولم كان المبيت فى منى أيام التشريق دون عرفة أو المزدلفة دون غيرها ؟

إلي غير ذلك مما استأثر الله تعالى بعلمه فيما يتعلق ببعض التشريعات كالمواريث ونحو ذلك .

إن من حكمة ما استأثر الله تعالى بعلمه ابتلاء الناس به ليعلم الصادق من الكاذب فى إيمانه ، قال تعالى عن المتشابه : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (١).

أى ما نعلمه ، وما استأثر الله تعالى به نؤمن بهما أنهما من عند ربنا ، ولذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه مخاطبا الحجر الأسود . " والله إنى لأعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر ، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك " .

ويقول الربيع بن خثيم(٢) : " إن الله أنزل هذا القرآن فاستأثر منه بعلم ما شاء ، وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استأثر به لنفسه فلستم بنائليه ، فلا تسألوا عنه ، وأما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه، وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون " .

ويعلق الإمام أبو بكر الأنبارى على قول الربيع هذا بقوله :

---

(١) سورة آل عمران من الآية رقم ٧ .

(٢) كما فى تفسير القرطبى : ١٥٤/١ .

" فهذا يوضح أن حروفا من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم ، اختبارا من الله عز وجل ، فمن آمن بها أثيب وسعد ومن كفر وشك أثم وبعد "(1) .

الاتجاه الثانى

أما الاتجاه الثانى فإن أصحابه يرون أن تلك الحروف المقطعة ليست مما استأثر الله تعالى بعلمه ، وإنما هى معلومة لنا ، فإذا سألناهم عن المعنى المراد منها وجدناهم يختلفون فى تحديد المراد اختلافا كثيراً .

ونستطيع أن نبرز أشهر تلك الأقوال لأصحاب هذا الاتجاه على النحو التالى :

١ - قول يقول إنها أسماء للسور التى بدئت بها .

وقد عورض هذا القول بوجوه ، منها :

(أ) أننا نجد سورا كثيرة اتفقت فى التسمية بـ (آلـم)، و(حم)، والمقصود من التسمية رفع الاشتباه .

(ب) لو كانت أسماء لاشتهرت السور بها ، لكنها اشتهرت بغيرها ، نحو سورة البقرة ، وسورة آل عمران .

٢ - القول الثانى : يرى أن هذه الحروف أسماء للحروف التى تكون منها الكلمات ويقصد بها التحدى .

---

(1) الموضع السابق .

٢٧

فكأن الله تعالى يقول لهؤلاء المكذبين ، الذين يدعون أن القرآن ليس من عند الله :

هاكم القرآن أمامكم ، تشاهدونه مكونا من هذه الحروف ، التى تركبون منها كلامكم ، في نثركم وأشعاركم ، في مقالاتكم وخطبكم ، فإن كنتم فى ريب من كونه منزلا من عند الله رب العالمين ، خالق القوى والقدر، فكونوا من هذا الحروف قرآنا مثله ، فإن عجزتم فهاتوا عشر سور مثله ، فإن أعيتكم الحيلة فعليكم بسورة واحدة مثله ، فإن عجزتم فاعلموا علم اليقين بأنه تنزيل رب العالمين .

وهذا الرأى قال به بعض العلماء ، ومعظم أساتذة جامعة الأزهر ، وكثير من العلماء المعاصرين .

وعليه يعقب الإمام الزمخشرى بقوله :

" وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل "[١] .

وهذا الرأى فى حقيقة الأمر ليس قويا ، ولا جديرا بالقبول ، لمايأتى:

أ - لأن من يقرأ تلك الحروف لا يخطر بباله على الإطلاق أنها للتحدى .

ب - أما آيات التحدى فكانت صريحة وواضحة ، بعيدة عن الألغاز أو التعمية .

---

(١) الكشاف : ٢٨/١ .

في مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ (١) .

ومثل قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

ومثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٣).

جـ - هل لو لم تنزل هذه الحروف فى بداية السور ما عرف البشر من أى حروف نظم القرآن الذى تحدوا به ؟

د - معروف أن الحروف الهجائية ثمانية وعشرون حرفا ، أما الحروف التى فى أوائل بعض السور فهى أربعة عشر حرفا فقط ، فلو كان المراد بها التنبيه على التحدى ، لذكرت كلها وليس نصفها لأن القرآن مركب من كل الحروف وليس من نصفها .

٣ - القول الثالث : يقول أصحابه : إن هذه الحروف من أسماء القرآن الكريم ، ويستدلون على ذلك ، بأن للقرآن الكريم ذكرا بعدها ، مثل: ﴿ الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فى أول سورة البقرة، ومثل: ﴿ الم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ فى أول سورة آل عمران .

ونقول لأصحاب هذا الرأى ، إن هذا الرأى غير صالح ، لما يأتى :

---

(١) الطور : ٣٤ .

(٢) هود : ١٣ .

(٣) يونس : ٣٨ .

(أ) لأن أسماء القرآن وصفاته ، لم يعرف من بينها تلك الحروف ، كما اشتهر من أسمائه الكتاب والقرآن . والفرقان وغيرها . فلم يشتهر بين سلف الأمة وخلفها أن من أسماء القرآن اسم (ص) ، أو(ن) ، أو (طه) ونحو ذلك .

(ب) هناك سور لم يرد للقرآن ذكر فيها بعد تلك الحروف المقطعة ، مثل سورة مريم ، والعنكبوت ، والروم .

٤ - القول الرابع : أنها اسم الله الأعظم ، وهذا القول ضعيف لأن أسماء الله توقيفية ، مأخوذة عن القرآن والسنة ، فلم نجد فى القرآن ما ينص على ذلك ، ولا فى السنة أن رسول الله ﷺ دعا الله بهذه الحروف المقطعة ، أو أثنى عليه بها .

٥ - القول الخامس : أن كل حرف اختصار لاسم أو فعل ، فمعنى (الٓمٓ) أنا الله أعلم ، ومعنى (الٓر) أنا الله أرى ، وهكذا .

٦ - القول السادس : أن كل حرف منها ليس اختصارا لكلمة واحدة وإنما للدلالة على معان شتي مختلفة .

وهذا الرأى اختاره ابن جرير الطبرى ، ورجحه .

واستدل أصحاب هذا الرأى بمثل ما جاء في الأسلوب العربى . "فقلت لها قفى قالت قاف " أى وقفت .

وكما قال زهير :

بالخير خيرات وإن شراً فا * ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد : وإن شرا فشر ، وأراد إلا أن تشاء .

والحقيقة أن القياس هنا مع الفارق ، لأنه قد ورد فى سياق كلام العرب مايدل على المراد من هذه الأحرف المختصرة ، بعكس هذه الحروف التى افتتح الله بها بعض سور القرآن الكريم ، فليس في السياق ما يدل على المعنى الأصلى الذى رمز له بها .

وأيضا : فإن هذا القول يفتح الباب على مصراعيه لمن يريد أن يتلاعب بألفاظ القرآن الكريم ، مثلما فعلت الباطنية قديما والبابية والبهائية حديثا ، فلقد أتوا إلى بعض الكلمات وقالوا إنها ليست لهذه المعانى المعلومة لدى المسلمين ، وإنما هى رموز لمعانى لا يعلمها إلا هم ، ومرادهم من هذا التحلل من التكاليف الشرعية وإسقاط الاعتقاد الصحيح ، والتشريع القويم .

٧ – القول السابع : يرى أصحابه أن هذه الحروف حروف يستفتح الله بها كلامه ، مجرد استفتاح ، لا لشىء آخر ، وقالوا : قد ورد ذلك فى لغة العرب .

ينشد الرجل منهم الشعر فيقول :

بل ، وبلدة ما الإنسان من أهالها

ويقول :

لا بل ، ما هاج أحزانا وشجوا قد شجا

و " بل " ليست من البيت ، ولا تعد في وزنه ، ولكن يقطع بها كلاما ، ويستأنف الاخر .

وواضح كل الوضوح خطأ أصحاب هذا القول ، حيث قاسوا افتتاح بعض سور القرآن الكريم ، بهذه الحروف على افتتاح العرب كلامها بـ (بل)، فإن العرب - كما يقول ابن جرير - لم يعهدوا افتتاح كلامهم بـ (الٓـم) و(الٓـر) و(الٓمٓـص) فيكون الله تعالى بذلك خاطب العرب بغير ما هو من لغتها ، وبما هو غير مألوف فى كلامهم ، ولا فى كلام أحد من الآدميين .

وأيضا : فإن (بل) فى كلام العرب مفهوم تأويلها ومعناها ، وأنها تدخلها فى كلامها رجوعا عن كلام لها قد تقضى ، كقولهم ما جاءنى أخوك ، بل أبوك ، وما رأيت عمروا ، بل عبد الله ، وما أشبه ذلك .

فـ (بل) أنما تأتى فى كلام العرب على هذا النحو من الكلام ، فأما افتتاحا لكلامها مبتدأ من غير أن يدل على معنى فذلك مما لا نعلم أحدا ادعاه من أهل المعرفة بلسان العرب ومنطقها "[1] .

٨ - القول الثامن : يرى أصحابه أن هذه الحروف مقصود بها التنبيه لما يذكر بعدها .

وذلك أن القوم كانوا قد تواصوا فيما بينهم بعدم الاستماع للقرآن واللغو فيه ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُون ﴾[2] .

فإذا ألقيت هذه الحروف المقطعة على أسماعهم أولا أنصتوا ، وحين ينصتون يلقى عليهم مابعد هذه الحروف[3] .

---

(١) تفسير ابن جرير الطبرى : ١/٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٢) سورة فصلت : ٢٦ .

(٣) انظر تفسير ابن جرير : ١/٢١٠ ، وتفسير القرطبى : ١/١٥٥ .

وهذا الرأى وإن استحسنه بعض العلماء فإنه ضعيف ، لما يأتى :

(أ) لأن الذين تواصوا بعدم الاستماع للقرآن ، والتشويش عليه كانوا في مكة ، وليسوا فى المدينة ، فلو كان هذا القول صحيحا لجاءت هذه الحروف فى السور المكية فقط ، ولكننا رأينا بعض السور المدنية مصدرة بها ، مثل سورتى البقرة وآل عمران .

(ب) وأيضا لو كان هذا القول صحيحا لكان الابتداء بهذه الحروف فى بداية كل سورة ، وليس فى بعض السوور ، بل لكان فى بداية كل خطاب ، حتى يحدث المقصود من الإنصات والاستماع والتدبر .

وللحافظ ابن كثير كلام طيب حول هذا المعنى فى تفسيره : ٥٩/١ .

وبعد

فهذان هما الاتجاهان فى معنى الحروف المقطعة فى بداية تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم .

اتجاه يرى أنها سر استأثر الله تعالى بعلمه ، واتجاه يرى أنها ليست بسر ، وقد اختلف أصحاب الاتجاه الثانى فيما بينهم ، حتى تشعب اتجاههم إلى آراء شتى ، كل رأى منها لم يخل من اعتراض قوى عليه ، ولم يثبت في الميزان من وجهة نظرى إلا ذلك الاتجاه الأول الذى يمثل قول معظم سلف الأمة وأصحاب رسول الله ﷺ ، وأما الاعتراض الموجه إليه فقد أجبنا عليه بما يدحضه ، وينسفه من أصله نسفا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أهم المراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الإبانة عن أصول الديانة، لأبى الحسن الأشعرى.
٣ ـ الإتقان للسيوطى.
٤ ـ أثر القرآن فى تطور النقد العربى، لمحمد زغلول سلام.
٥ ـ الإحكام فى أصول الأحكام، للآمدى.
٦ ـ إرشاد العقل السليم لأبى السعود.
٧ ـ إرشاد الفحول للشوكانى.
٨ ـ الأشباه والنظائر لمقاتل سليمان.
٩ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلانى.
١٠ ـ إصلاح الوجوه والنظائر، للدامغانى.
١١ ـ الأضداد، لأبى بكر الأنبارى.
١٢ ـ إعجاز القرآن للباقلانى.
١٣ ـ إعجاز القرآن للرافعى.
١٤ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلى.
١٥ ـ إيضاح الوقف والابتداء، لابن الأنبارى.
١٦ ـ البحر المحيط لأبى حيان.
١٧ ـ البداية والنهاية لابن كثير.
١٨ ـ البدر الطالع للشوكانى.
١٩ ـ البرهان للزركشى.
٢٠ ـ البديع لابن المعتز.
٢١ ـ بغية الوعاة للسيوطى.
٢٢ ـ البيان فى مباحث من علوم القرآن، للدكتور عبدالوهاب غزلان.
٢٣ ـ البيان فى عد آى القرآن للدانى.

٢٤ ـ البيان والتبيين للجاحظ.
٢٥ ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى.
٢٦ ـ تاريخ التراث العربى، لفؤاد سزكين.
٢٧ ـ تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى.
٢٨ ـ تاريخ ابن خلدون.
٢٩ ـ تاريخ القرآن د.عبدالصبور شاهين.
٣٠ ـ التبيان فى آداب حملة القرآن للنووى.
٣١ ـ تدوين القرآن د.محمد القبيسى.
٣٢ ـ تذكرة الحفاظ للذهبى.
٣٣ ـ التفسير البيانى، للدكتورة عائشة بنت عبدالرحمن.
٣٤ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
٣٥ ـ التفسير الكاشف لمحمد جواد مغنية.
٣٦ ـ تفسير المراغى.
٣٧ ـ التفسير والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للحافظ العراقى.
٣٨ ـ جامع البيان لابن جرير الطبرى.
٣٩ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى.
٤٠ ـ جمال القراء للسخاوي.
٤١ ـ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى.
٤٢ ـ خزانة الأدب للحموى.
٤٣ ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر.
٤٤ ـ الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى.
٤٥ ـ روح المعانى للآلوسى.
٤٦ ـ سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجى.
٤٧ ـ سنن الترمذى.
٤٨ ـ سنن الدار قطنى.

٤٩ ـ سنن أبى داود.
٥٠ ـ السنن الكبرى للبيهقى.
٥١ ـ سنن ابن ماجة.
٥٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام.
٥٣ ـ شذرات الذهب لابن عماد الحنبلى.
٥٤ ـ صحيح البخارى.
٥٥ ـ صحيح مسلم.
٥٦ ـ الصديق أبو بكر لمحمد حسين هيكل.
٥٧ ـ صور البديع لعلى الجندى.
٥٨ ـ الضوء اللامع للسخاوى.
٥٩ ـ طبقات الشافعية الكبرى للسبكى.
٦٠ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد.
٦١ ـ طبقات المفسرين للداودى.
٦٢ ـ الطراز، ليحيى العلوى.
٦٣ ـ عمدة القارى، شرح صحيح البخارى، لبدر الدين العينى.
٦٤ ـ العين، للخليل بن أحمد.
٦٥ ـ غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى.
٦٦ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى.
٦٧ ـ فضائل القرآن لابن كثير.
٦٨ ـ الفهرست لابن النديم.
٦٩ ـ الفوائد المشوق لابن القيم.
٧٠ ـ فى ظلال القرآن، السيد قطب.
٧١ ـ قالوا عن الإسلام، د.عماد الدين خليل.
٧٢ ـ القاموس المحيط، للفيروز آبادى.
٧٣ ـ الكتاب لسيبويه.

٧٤ ـ كتاب الصناعتين، لأبى هلال العسكرى.
٧٥ ـ الكشاف للزمخشرى.
٧٦ ـ كشف الظنون لحاجى خليفة.
٧٧ ـ الكفاية فى علم الرواية، للخطيب البغدادى.
٧٨ ـ لسان العرب لابن منظور.
٧٩ ـ لطائف الاشارات للقسطلانى.
٨٠ ـ المثل السائر لابن الأثير.
٨١ ـ مجمع البيان للطبرسى.
٨٢ ـ محاسن التأويل للقاسمى.
٨٣ ـ المحرر الوجيز لابن عطية.
٨٤ ـ المدخل لدراسة القرآن الكريم، د.محمد أبو شهبة.
٨٥ ـ مذاهب التفسير الإسلامى لجولد زيهر.
٨٦ ـ مرآة الجنان لليافعى.
٨٧ ـ المرشد الوجيز، لأبى شامة.
٨٨ ـ المزهر للسيوطى.
٨٩ ـ المستدرك على الصحيحين للحاكم.
٩٠ ـ المستشرقون والقرآن الكريم ليوسف لقمان الفلبينى.
٩١ ـ مسلم الثبوت لابن عبدالشكور.
٩٢ ـ المسند للإمام أحمد.
٩٣ ـ المصاحف لأبى داود.
٩٤ ـ معانى القرآن للفراء.
٩٥ ـ معانى القرآن للزجاج.
٩٦ ـ معجم الأدباء لياقوت الحموى.
٩٧ ـ معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة.
٩٨ ـ مفاتيح الغيب للفخر الرازى.

٩٩ ـ مفتاح السعادة، لطاش كبرى زاده.

١٠٠ ـ المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى.

١٠١ ـ مفكرون وأدباء، أنور وجدى.

١٠٢ مقدمتان فى علوم القرآن، تحقيق آرثر جفرى.

١٠٣ المقنع لأبى عمرو الدانى.

١٠٤ مناهل العرفان للزرقانى.

١٠٥ منجد المقرئين لابن الجزرى.

١٠٦ ـ المنهاج شرح صحيح مسلم للنووى.

١٠٧ ـ منهج الفرقان فى علوم القرآن، للشيخ محمد على سلامة.

١٠٨ ـ موطأ الإمام مالك.

١٠٩ ـ النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز.

١١٠ ـ النجوم الزاهرة، لابن تغرى بردى.

١١١ ـ نزهة الأعين النواظر فى الوجوه والنظائر، لابن الجوزى.

١١٢ ـ النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى.

١١٣ ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى.

١١٤ ـ هدى السارى لابن حجر.

١١٥ ـ هدية العارفين للبغدادى.

١١٦ ـ الوافى فى شرح الشاطبية لعبد الفتاح القاضى.

١١٧ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان.

الفهرس

المناسبات ٢٢٦